



رواية

آلهة من رمال

فكري فاروق





لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا



لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا



عنوان الكتاب : آلهة من رمال

اسم المؤلف : فكري فاروق

رواية

(1)

على فراش وردي وثير مزين بخطوط حمراء تجلس أم
ثلاثينية ذات شعرٍ ذهبي لامع يهتز لأقل حركة،
وعينين زرقاوين متألئتين تعكسان نورًا قادمًا من
مدفأة جانبية، تتحرك بكسل الطمأنينة. ولها بشرة
بيضاء مخملية يكسوها زغب ذهبي خفيف، ترتدي
فستانًا أبيض عاري الكتفين يُظهر جسدًا ليثًا يصلح
مهّدًا مريحًا لمولودها الجديد، سحبت الفستان لأسفل
ومدت كفها فأخرجت ثديها فألقت الحلمة الوردية
الباهتة لشفتين ورديتين صغيرتين، ضمت الطفل بقوة
ليتواصل الجسدان والروحان، الداخل بالداخل، يمتص
الفم المتلهف الدفقات البيضاء السخنة، يستمد الحياة،
شعرت بحرارة أنفاسه وسخونة شفتيه على بشرتها،
إحساس رائع بالدفء يسري كالموج في بدنّها مقاومًا
برودة هذا الشتاء القارس.

حول مدفئة نائية في ركن الغرفة الأيمن البعيد يجلس
رهط من الملائكة المجنحين، هذا مكان ملائم جدًا
لملائكة كادت تتجمد أطرافهم من جليد الطرقات،

وعلى اليسار، هناك ثلاثة ملائكة يحيطون بالأم
ورضيعها، أحدهم يسنده كي يخفف العناء عن ذراعها،
وأحدهم يضع العسل في لبنها وواحد يهددها كي
يمنحها السلام، فلبن السلام مفيد للروح والجسد.

خلف الفراش ستار نبيذي رقيق، سُحب شقاه إلى
جانبِي النافذة، ومن خلال الزجاج تظهر ندف الثلج
تتساقط ببطء لطيف، كثير من الثلج متراكم على قمم
أشجار السرو البعيدة.

اشتعلت النار في الأطراف ثم امتدت إلى الستائر، وعبأ
الدخان المكان. كان التخبُّط رهيبًا والخوف يغشى
الجميع، يبحثون عن مهرب، لكن النار أحاطت بهم من
كل الأطراف بسرعة عجيبة والتهمت كل شيء،
القماشة والخشب وألوان الزيت.

"هل هذا حلم؟".

لا.

"ماذا إذا؟".

إنها أجمل لوحة رسمتها.

"لقد وصفت مشهدًا متحركًا".

نعم فجميع لوحاتي حياة.

"هل رسمت الأم والطفل والملائكة ثم تلتهمهم النار؟".

لا رسمتها لوحة شتويةً يمتزج فيها سحر الجليد
ودفء وحنان الأمومة.

"وما النار إذا؟".

التهمتها عن آخرها.

"كيف؟".

سأقول لك لاحقًا، لكن دعني أبدأ معك من تلك
اللحظة.

"كما تشاء، لكن أرجوك لا بد أن تتذكر دائماً أن الوقت المهدر هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن تعويضه".
بالتأكيد.

"تفضل إذا".

أفقت كمن عاد إلى الحياة بعدما توقف قلبه أو بعد غيبوبة عميقة، برقت عيناى منتبهة، وسحبت رئتاي العطشيان ما استطاعتا من الهواء لدفع إحساسي الرهيب بالاختناق، عرق غزير وبصيص ضوء خافت أربكني فلم أميز إن كان غروباً أم شروقاً، سمعت خبطاً رهيباً كاد يحطم أعصابي، أيقظني رغماً عن جسدي المهدم وعقلي التائه في عوالم الغيب. بدد الحيرة، أو لنقل أعطاني طرف خيط البحث عن معلم ما وسط هذا التيه، أو طرف خيط الوعي. أين أنا؟ كان هذا سؤالي الأول ثم توالى الأسئلة.

ما هذه الغرفة؟ من جاء بي إلى هنا؟

الأسئلة تتقاذف في عقلي بلا إجابات، الأمر برمته مُبهم وعجيب، ازداد الضوء قليلاً وأخذت ملامح المكان في الوضوح، إنه الشروق إذاً.

غرفة ضيقة تكسو الأتربة كل شيء فيها، الجدران الرمادية، السقف الأبيض الذي تتوسطه مروحة صدئة، السرير المعدني الذي يصرخ كلما اهتز جسدي عليه. بجوار السرير ستار أبيض شفاف ما كان ليحجب شيئاً من الضوء المتسلل من النافذة لولا الأتربة.

أزحْتُ الستار فتساقطت الأتربة بهدوء، تطل النافذة على سطح مزدحم مليء بالركام، الشمس مختبئة في زاوية ما لا أراها، تتسحب رويداً تمسح الظلام المنسكب على كل شيء.

التخبيط مزعج جداً ويتكرر بإصرار عجيب، كأنه ساحر يرتل تعويذة ما لجلب الشياطين.

"ما مصدره؟".

التفت يسارًا لأعرف، لكن النقرات وشت سريعًا بأنه آتٍ من جهة اليمين، كانت فتاة نحيلة ذات شعر بني أشعث تتخلله أشعة الشمس، ترتدي جلبابًا أزرق، تمارس طقوسًا غامضة، كادت تدمر عقلي في نهاري الأول في هذه الحارة، تعلق على صدرها جوالًا بلاستيكيًا أبيض ممتلئًا بشيء ما، لم أتبينه، تسير بصورة شبه دائرية وتصدر أصواتًا بفمها غير مفهومة، تقرع علبة صفيح صدئة، ثم بدأت تأخذ حفنات من جوالها وترمي بها صوب الشمس لكن الريح المناوشة تعيد بعثرة الحبوب الصفراء عليها، تتبععتها هابطًا بعيني حتى رأيت دجاجات تجري تتبعها أينما نثرت حبوبها، أربعون جناحًا أو يزيد، تصطك في الهواء ومناقيرها تنقر الأرض، أقسمت أن ألملم حاجاتي وأعود أدراجي إن عاودت هذه الفتاة فعلتها غداً.

لا أعرف أي موجة من موجات الجنون قادتني إلى هذا المكان البائس، أي خمر وأي مخدر لعين؟ ربما نظرة كريم الموقن بأني من قتل أمه. نزل سلالم البيت يوم الرحيل ولم ينظر خلفه ولم يُجب كلمات الوداع

وتلويح يدي، حتى عندما نظرتُ إليه من خلال الشرفة لم يرفع عينيه ليلقي النظرة الأخيرة، فقط أغلق باب السيارة وذهب يملؤه اليقين. لم يكن لديه شك ولو بمقدار واحد بالمئة يجعله يلقي نظرة أخيرة. على أي حال لم أشعر بعاطفته يومًا فكيف أستدرّها الآن؟ لقد اكتسب منهم كل صفات البرود والجفاء، فليذهب كما ذهبوا شبابي وحببي للحياة فلم أعد أبالي.

"عذرًا دكتور صالح لقد قلت: إنك لا تعرف كيف ذهبت إلى الحارة.. هل تعني هذا حقًا؟ حتى لو افترضنا أنك اتخذت قرارات أو قمت بتصرفات تحت تأثير المخدرات، فهذا قد يحمل دلالة سلبية ويقبل تأويلات كثيرة، أرجو أن تكون متبهاً لكل كلمة تقولها، فالكلمة قد تكون طوق النجاة وقد ترسلك إلى الجحيم".

أفهم هذا جيدًا.

"حسنًا، أرجو أن يكون حكيك واضحًا غير مربك، ولا تنس القواعد الثلاث الذهبية: الانتباه لكل كلمة، وأن تحكي كل شيء مهما كان تافهاً أو تراه ضئيلاً لا قيمة

له، وأخيرًا أن تكون صادقًا معي تمامًا. ولا تنس أيضًا أنني بجانبك ومهمتي هي مساعدتك".

أنا منتبه جدًا وأعي كل ما أقوله يا سيدي، كان هذا شعوري للوهلة الأولى بعد الاستيقاظ، لكنني استدركت الأمر سريعًا مع انقشاع غمامة الصدمة عن عقلي، وبدأت الذاكرة تعود لي بالتدريج، لأشعر معها بفداحة تهوري، اسمح لي أعود زمنيًا يومًا آخر لنبدأ البداية الصحيحة.

"تفضل أنا منصت لك".

لقد جئت ليلاً بصحبة الشيخ نعمان، الذي عرّفني به الأسطى عثمان النقاش في إحدى جلسات الحشيش، وقبل القبض عليه والزج به في السجن، قلت له إنني أبحث عن سكن مؤقت، فقال على استحياء: إن لديه غرفة مفروشة خالية من السكان فوق سطح بيت ورثه أبوه، وسط منطقة شعبية.

التقينا أمام مسجد سيدنا الحسين ليلاً وانطلقنا معاً
نقصد الحارة، كان استقبالها لي لا يبشر بالخير،
فالكهرباء توقفت عن المسير في أسلاكها منذ ساعتين
كما قال الشيخ، ربما أخفى الظلام عني تفاصيل كثيرة
كانت كافية أن تجعلني أرفض هذه الخطوة المجنونة،
وإن كانت حواسي رصدت أثناء مروري ما يزيد روع
القلب واضطراب النفس، خليطاً يصعب تفكيكه من
الروائح الكريهة النفاذة والأرض غير المستوية والمليئة
بالحجارة والنقر والقمامة، تزاخم أصوات الناس،
صريخ الرضع وتصايح الأطفال ودبيب الأقدام وحركة
السجائر المشتعلة في الفراغ الأسود لتصنع خيوطاً
حمراء مضيئة، كل هذا يتخلله أصوات قطط تتصارع
وكلاب ضالة تنبح، البداية غير مشجعة، لكن على أي
حال.. كان بداخلي ما يكفي من الآلام التي لا تُحتمل
والتي قد تدفعني لخوض مغامرة ما في عالم مغاير
تماماً، لا يعرفني فيه مخلوق، فقد سئمت نظرات
التعجب والاستياء، نظرات أفصح من الكلمات وأوجع
من الطعنات تقول: هل رأيتم الرجل المجنون السفيف؟
كان دكتوراً مبدعاً يُدرّس في الجامعة، أصبح سكيراً

حشاشًا بارز الإهمال والتسيّب؟! قلت لهم وأنا ألملم بقاياي من عالمهم وأرحل: دعوني أكمل لكم الصورة أحبتي فالأسوأ من كل ما تعتقدون هو أنني رجل بائس، كره حياته، يحمل رسالة باهتة الملامح مطموسة القيم.

تحسست خطواتي درجات السلم، قلبي يرتجف، رؤاي متخبطة، لكني سرت تاركًا قدمي للصعود، الشيخ حذرني من تأكلها عدة مرات حتى تيقنت أنني ساقط لا محالة، أتشبث بالدرابزين الأسمنتي وأدور معه صعودًا طابقًا بعد طابق، يطمئنني بأن الأمور ستكون على ما يرام، لكن نفسي منقبضة. توقفنا لثوانٍ نلتقط أنفاسنا في الطابق الثالث أمام باب يتسرب من أعلاه خط أفقي لضوء أصفر خافت.

- هذه شقتي المتواضعة تعال نستريح بها قليلًا ونشرب كوبي شاي؟

- عندك نور؟! -

- آه، إنه مصباح جاز أشعلته قبل النزول، تعال تفضل.

- لا لا، دعنا ننته، أريد أن أرى منتهى خطواتي.

أفضى السلم أخيرًا إلى سماء صافية تحتشد فيها النجوم ولها هواء بارد يتحرك بحرية، عندما استشعر الشيخ ارتياحي قال مطمئنًا لي:

- الأمر برمته سيختلف بمجرد عودة النور لا تقلق.

نبرة صوته رصينة تمتلئ بالثقة.

- لا مشكلة يا شيخ أنا فقط أريد ما يشبه القبر أوارى فيه جثمانى حتى أشبع من السكون.

فتح الباب ودخل يتحسس الحائط إلى اليمين فكبس الزر، صدفة حدثت ولا أعرف دلالتها حيث انتعش التيار فقام النور صاحبًا في المصابيح وصاح الأطفال بالحارة فرحين "هيه!" ارتسمت على شفثيه الغليظتين البنيتين ابتسامة ارتياح واسعة جعلت شاربه الرفيع يبدو مقوَّسًا وطويلاً.

- جاء النور الحمد لله، الخير على قدوم الواردين،
تفضل ادخل برجلك اليمنى.

دخلت، عيناى زائغتان مترنحتان تتخبطان بين جدران
الغرفة الضيقة، انقبض قلبي واختنقت رئتاي، تفتش
عن هواء بلا أتربة فلم تجد، استنشقت التراب حتى
بطن فتحتي أنفي من الداخل وشعرت بطعمه في
حلقي.

- هذه الغرفة الوحيدة التي بها حمام خاص، بقية
غرف السطح تشترك في حمام واحد خارجي، والله
أنت ابن حلال وتستأهلها، حظك حلو.

نظرت إليه مستاءً، هذا الرجل مجنون حقًا، هل هذا
مفهومه عن الحظ الحلو؟!

- وماذا قد يحدث أكثر من هذا إن كان سيئًا؟!

رد متهكمًا:

- لا بأس يا سيدي لا تتعال علينا، اعتبرها استراحة مؤقتة حتى تجد مكانًا يليق بفخامتك.

استأذن وهم بالخروج، فتشبثت به تشبث طفل صغير بأمه: لم العجلة يا شيخ؟

- سأتركك تبدل ثيابك وتريح بدنك، وأنا سأذهب لقضاء بعض الحاجات الملحة.

بدأت في تنظيف الغرفة وكنس الأرض، ثم أخرجت الملاءة من حقيبتني وفرشتها، وأخيرًا دخلت لأختبر الحمام البلدي، ليس من السهل على رجل ذي خمسين عامًا يعاني خشونة في الركبتين أن يعتاد هذا النوع من الحمامات، حتى استخدام الكوز الصفيح للاغتسال لم يكن بالأمر الهين.

"لن أخفي عليك دهشتي، فمع كل كلمة تنطق بها أرى علامات الاستفهام تنبثق في عقلي كفقاعات، أتعجب حقًا ولا أستطيع أن أصدق أنك تابعت خطواتك وقبلت التدني إلى هذا الحد، بعد أن قضيت نصف عمرك الأول

في فيلا كبيرة ذات حديقة واسعة تنبت فيها أشجار
الفاكهة والورد ثم تزوجت في شقة المهندسين، شقة
واسعة متعددة الغرف، كيف تحملت مثل هذه
الغرفة؟".

(2)

كان هذا هو السؤال الأول الذي تبادر إلى ذهني في لحظة ارتبائي الأولى، وأخذ يتكرر برتابة وانتظام مع سقوط قطرات الماء من صنوبر الحمام النحاسي، السؤال مٌلح لكني لم أكن مهياً للإجابة عنه.

"لماذا؟".

لسبب بسيط، هو أنني كرهت منطق العقل، وقررت التحرك في اتجاه معاكس لحركة عقاربته، لهذا توقفت عن التفكير وقررت طعن الحيرة بالتجاهل والتغافل وبدأت رحلة استكشاف الغرفة ومحتوياتها، أبحث عن عالم رحيب في هذا الحيز الضيق، أتصرف كرجل كبير فقد ذاكرته فعاد طفلاً شغوفاً يحاول اكتشاف العالم من جديد.

"وهل وجدت شيئاً ذا قيمة؟".

وجدت فوق الدولاب الخشبي علبة من الصفيح قديمة كسا الصداً أغلب سطحها، بداخلها حفنة ذكريات، صور

قديمة لفلاحين يرتدون الجلابيب ويسكنون بيوتًا من الطين، ذكريات لأناس ربما رحلوا عن الحياة، بعض الصور أخذت بين الأشجار المحملة بثمار البرتقال المتوهجة، صور قليلة لكنها مترعة بالمشاعر والحكايات، لابتسامة ذات مذاق خاص ووقع طيب في النفس، تستنشق فيها رائحة الحطب المشتعل والخبيز ورائحة طهي الطعام على الكانون، ترى بساطة حياة بلا أرصدة بنكية ولا خزائن ولا طموحات توسعية غير محدودة، ولا الدوائر المتشعبة المتداخلة من العلاقات المربكة المهلكة التي تفقد النفس سلامها، ذكروني بالعم مغاوري الشربيني وابنه أيمن وأرضنا بالدقهلية.

وجدت أسفل السرير لعب بلاستيكية محطمة وصندوق من الورق المقوى به كتب دراسية اصفر ورقها، تعود لحقبة الستينيات، وجرائد من السبعينيات. للأماكن المهجورة رهبة غامضة بقدر ما حملت من تواريخ وذكريات لأناس من أجيال متعاقبة سكنوها.

"المدهش في هذا الأمر هو عدم عبث القادمين الجدد بذكریات أسلافهم، أليس هذا عجيبًا حقًا؟".

الحقيقة أن هذا ليس عجيبًا، فعادة البسطاء أن يسلموا عقولهم لأوهام الغيب وقلوبهم لأمجاد الماضي، ينتمون إليه ويغلفونه بالرهبة والمهابة، وفي النهاية يتوجونه بالتقديس.

بعدها انتهت جولتي في أزمنة الذكريات المعبأة في الصور والجرائد والكتب سكنت حركتي بصورة غير مبررة، خبا شغف الطفل المشاغب وعدت مكتئبًا متكورًا في وسط الفراش، علت دقائق قلبي تدريجيًا حتى أصبحت طبولًا وأنفاسي اللاهثة خيولًا تجري وصدري أرض معركة، بدأت معزوفة الألم تنشد ألحانها، العازفون محملون بويلات من الألم والغضب، تزاхمت الحوارات الذاتية والأسئلة الجدلية التي لا تنتهي، تدافعت، تساءلت كعادتي في سنوات عمري الأخيرة ذلك النوع من الأسئلة الذي لا إجابة له، الحياة واسعة لماذا تضيق عليّ؟ لها أمواج كالمحيطات وأنا مركب يطفو لا وزن لي، تدفعني ولا إرادة لي أو رد

فعل يثبت أنني أملك أنفاسًا مضطربة وقلبًا يخفق،
لكني قررت أن أحطم هذا التقهقر الذاتي والهروب إلى
الداخل، انتفضت واقفًا وقررت ألا أتمادى في تأنيب
نفسي، تحسست جيوبي، تلفتُ حولي، ندهتُ: أين أنت
أيتها النفس الأمارّة بالسوء؟ أراك نائمة على غير
عادتك! هرعْتُ إلى حقيبتني أفتش عن سجائري
المحشوة وزجاجة الخمر، نظرت إليهما فحدثتهما
بمودة تليق بهما: "دعونا نمارس بعض اللهو لنخرس
تلك اللوامة".

لم أسمح يومًا لتلك النفس اللوامة بالسيطرة عليّ،
فهي التي تجعل المتدينين دائمًا في حالة تأزم الضمير،
يعيشون مضطربين ضحايا لوسواس قهري الوقوع في
الخطأ، يخافون أن يتفوهوا بكلمة أو يقوموا بفعل أو
حركة كي لا يدهسوا دون عمد أوامر ونواهي الإله،
فيثيروا شجنه أو سخطه فيلقي بهم في العمق
السحيق من النار، ولأن هذه النفس اللوامة قوية
وملحة ولا تتعب أبدًا.. استخدمتُ جميع أسلحتي

لمواجهة ضجيجها الممل لكني فشلت، حاولت مرارًا حتى يئست، وعند اليأس دائمًا تحدث المعجزة.

في تلك الليلة امتصّ دمي نخاع سبع سجائر حشيش متتالية وما زالت محاولاتي تبوء بالفشل، جلست على فراشي الجديد والذكريات المنغصة تحوم حولي حوم الثعابين، تلدغني، تنفث في سمومها، كلماتهم الأخيرة، توبيخهم، نظراتهم المستاءة، وجوههم المتجهمة، حضروا جميعًا، لم أسمح لهم ولم أتمنّ قط حضورهم لكنهم اقتحموا الغرفة رغماً عني، التفوا حولي يحاصرونني بالسنة تحترف التقرير وعيون تطعن القلب بالاحتقار، أرجوكم.. كلّ يعود لعالمه، اذهب يا أبي لأطماعك ومجدك الزائف وأنت يا أمي استمتعي في مثواك الأخير بتراتيل الجحيم، وأنت يا عفيفي عش أسيرًا في حصن منصبك، فالحصون في عقيدتي الخاصة سجون، خلق يا كريم في سماوات الغربية كالطيور المهاجرة، عاملني بجفاء وجحود، لم أعد أبالي بنكرانك للجميل، نعم أنا من ضيّع كل شيء، أنا من اختار أن يمضي بقية عمره فوضويًا مجنونًا مستهترًا،

ليس هذا فحسب فما زال في العقل ترتيبات، والجعبة مليئة بالمفاجآت.

"هل كانت عائلتك بهذا السوء؟ أبوك إبراهيم بيه وأمك انشراح هانم وأخوك المستشار عفيفي وابنك المهندس كريم؟ يظن الجميع أنهم من الأفاضل".

نعم، هكذا يبدوون.

"وما الحقيقة من وجهة نظرك؟".

لا أريد أن أخوض في هذا الأمر أرجوك، على أي حال ماتت أمي وزوجتي خلال السنتين السابقتين ولا أريد نبش ذكراهما، الآن على الأقل.

"إذا تفضل، احكِ ما تريد، لكن حتمًا سنعود إليهم لاحقًا، هذا ضروري".

بجوار غرفتي.. غرفة مغلقة يدعون أنها تسكنها العفاريات، وفي المواجهة ثلاث غرف، الأولى للست أم زينب، وهي أولى الجيران الذين تعرفت إليهم، أما

زينب فهي تلك الفتاة المزعجة التي كانت تخطب للفراخ، إنها صماء بكماء. عرفت حكاية الست أم زينب من الشيخ نعمان في الأيام اللاحقة، قال إنها من البدو لكنها تزوجت من فلاح وجاءا هربًا خشية من بطش أهلها، فمن أعراف البدو قاعدة لا يحيد عنها إلا مُعَيَّر، يقولون: "نرميها لتمساح ولا نزوجها لفلاح". استقرا هنا في الحارة عندما كانت أقل توحشًا وإجرامًا، عملت لفترة في قراءة الكف ووشوشة الودع حتى واجهت سوء العاقبة بضرب مبرّح كاد يؤدي بحياتها من مريدي أحد دجالي المنطقة، توقف نشاطها بالحارة لكنها كانت تذهب بطلب خاص لحفلات المترفين لتوشوش لهم الودع وتقرأ المصاير المرسومة على الكف والفنجان، أما زوجها الذي عمل عدة سنوات في مصنع نسيج فقد خرج في صباح أحد الأشتية ولم يعد مرة أخرى، عاشت سنواتها الأخيرة على الصدقات والعطف الزهيد من الجيران.

أيقظني خبطها الحاد على الباب، طرق عنيف متواصل بأداة صلبة قلت ذلك الطارق لا يعرف اليأس إليه

سبيلاً، لم أتوقع قدوم زائر لي. لا أحد يعرفني هنا سوى الشيخ نعمان وهو كائن ليلي ينام صباحاً ولا يستيقظ قبل العصر عادةً، قمت أنفخ متبرماً، فتحت الباب فإذا بسيدة عجوز ضمر جسدها وانكمش جلدها، ظهرها المحذب جعل وجهها يتقدم قليلاً عن بقية جسمها، تتكئ بصدرها الجاف ويديها على عصا سوداء، وجهها صغير مستدير أصفر شاحب مكدود، فكاهها ملتصقان لا أسنان بينهما كي تعطي الوجنتين انبساطهما الطبيعي، أنفها صغير يبدو كنتوء ضئيل له فتحتان، يشق ذقنها خط طولي وعدة نقاط مرسومة على جانبيه بوشم أزرق يميل إلى الخضار، عندما تلاقت أعيننا حاولت إبراز بسمة من خلال غضونها الغائرة لكنها بدت لي غير مريحة للنفس، رحبت بي بصوت مرتعش وناولتني شيئاً ملفوفاً بورق جريدة قديمة صفراء تفوح منها رائحة طعام.

- أهلاً بك يا ولدي، أعددت لك هذا الفطور تفضل بالهناء والشفاء.

أخذته منها مترددًا، فورق الجريدة شكله مقرف جعلني أشعر بالغثيان، لكن لم يكن من اللياقة رفض كرم هذه السيدة العجوز علاوة على الشعور بالجوع الذي باغتني بمجرد أن مرت رائحة الطعام بأنفي، فتحتته فإذا هو صحن من الألمنيوم أسود في أغلب مواضعه، به خمسة أقراص طعمية، وبيضة مسلوقة ورغيفًا خبز طازجان، شعرت بالاشمئزاز حينها لكني في الأيام اللاحقة أصبحت أنتظر فطورها واعتدت منظر الطبق الألمنيوم الذي لا يتغير.

بعد ساعة تقريبًا دعّنتني لشرب الشاي، قبلت الدعوة بلا تردد فالعزلة في هذه الغرفة قد تقودني إلى الجنون، جلستُ معها على بساطها القديم المهترئ أمام باب غرفتها، فغرفتها الوحيدة على السطح التي لها عرش يظل أمامها، جلستُ مستندًا بظهري إلى الحائط وألقيت نظرة متأنية إلى المدى، السماء ستعمل كوسيط جيد لتسهيل تقبل الواقع الجديد، أسرتني التفاصيل، مآذن وعمائر عشوائية، وفوقها سماء زرقاء صافية مزينة بالكثير من الطائرات الورقية الملونة.

أخذته منها مترددًا، فورق الجريدة شكله مقرف جعلني أشعر بالغثيان، لكن لم يكن من اللياقة رفض كرم هذه السيدة العجوز علاوة على الشعور بالجوع الذي باغتني بمجرد أن مرت رائحة الطعام بأنفي، فتحتة فإذا هو صحن من الألمنيوم أسود في أغلب مواضعه، به خمسة أقراص طعمية، وبيضة مسلوقة ورغيفًا خبز طازجان، شعرت بالاشمئزاز حينها لكني في الأيام اللاحقة أصبحت أنتظر فطورها واعتدت منظر الطبق الألمنيوم الذي لا يتغير.

بعد ساعة تقريبًا دعّني لشرب الشاي، قبلت الدعوة بلا تردد فالعزلة في هذه الغرفة قد تقودني إلى الجنون، جلستُ معها على بساطها القديم المهترئ أمام باب غرفتها، فغرفتها الوحيدة على السطح التي لها عرش يظل أمامها، جلستُ مستندًا بظهري إلى الحائط وألقيت نظرة متأنية إلى المدى، السماء ستعمل كوسيط جيد لتسهيل تقبل الواقع الجديد، أسرتني التفاصيل، مآذن وعمائر عشوائية، وفوقها سماء زرقاء صافية مزينة بالكثير من الطائرات الورقية الملونة.

جلست زينب خلف أمها وأخذت تحدجني بنظرات جانبية تملؤها الريبة ظهر عليها القلق وعدم الارتياح، تحرك شفتيها كأنها تغمغم بالسباب، تدفعها أمها لتتخلص من التصاقها لكنها تعود تلتصق بها مرة أخرى في إصرار وعناد، دفعتها مرة أخرى وأشارت نحو مقشة من ليف النخيل، تعني "قومي اكنسي" فقامت الفتاة المتوجسة تسير نحو المقشة في خط مائل طويل بعيداً عني لتحافظ على مسافة الأمان بيننا، فضحكت السيدة وقالت:

- مسكينة تخاف الناس، الأغراب منهم خصوصاً، ماتت أمها منذ خمس سنوات وكانت تسكن في الغرفة المجاورة لغرفتك، تركت الفتاة غضة طرية بنت ست سنوات، لم نعرف لها أباً ولا أهلاً.

تقول إنها جاءت إلى الحارة هاربة من شيء ما، لا أحد يعلمه، وعاشت منعزلة تؤثر الوحدة والبعد عن العيون، حتى استيقظت الحارة على صراخها ذات يوم، خرجت من الغرفة تترنح وفي رقبتها حذ تنفجر منه الدماء، جاء الجيران متعجلين لنجدتها لكنها فارقت الحياة،

ذهبت وتركت آثار يديها الملطختين بالدماء على الجدران، من هي وما قصتها؟ الله أعلم، لم تترك أوراقًا أو بطاقة هوية، من قتلها ولماذا؟ لم تتوصل النيابة إلى شيء.

- إن هذا السطح يا ولدي عالم من الحكايات والأسرار، صمتت فجأة وتغيرت ملامحها وهي تراقب مرور شاب في منتصف العشرينيات، طويل القامة نحيف البدن، شعره أجعد بني اللون يبدو معفرًا مهملاً، مر من أمامنا رخوًا متمايلاً يطوّح ذراعيه ويمسح الأرض بنعليه، لم يُعزنا أي اهتمام ولا ألقى السلام كأنه لم يرنا. لكن السيدة حدثته بلحنٍ لا يخلو من التهكم:

- الأبالسة تظهر بالنهار سبحان الله نحن في زمن العجائب!

نظر إليها بكراهية شديدة لتظهر دمامة وجهه الرفيع المستطيل المسحوب الذقن، ملامحه حادة الخطوط، على بؤبؤ عينه اليسرى سحابة بيضاء مصقولة

كالرخام، أنفه طويل رفيع مدبب يفلق شاربيه الخفيف
نصفين، حدثها بغلّ لم يحاول مداراته:

- حتى الساحرة الدجالة تتكلم كأنها من الفضليات، لا
أعرف لماذا يأخذ عزرائيل أرواح الصغار ويترك
أمثالك؟!

- القبور والسجون يستأهلها أمثالك.

- والله لو لم تكوني امرأة عجوزًا لذبحتك وارتحت من
لسانك الذفر.

انصرف يغمغم بالسباب واللعنات وبصق بقوة جهتها،
فتح الغرفة الأخيرة ثم دخلها وأغلق الباب، وجل قلبي
من هذا الحوار بينهما فكلاهما بدا لي مخيفًا.

- من هذا يا أم زينب؟

(3)

الحقيقة أن رؤيته قد أزعجتني، لقد وُلِدَ بغض هذا الشقي في قلبي من أول لحظة رأيته فيها.

- إنه جعفر الإبلّيس، أعوذ بالله منه ومن شره.

قالتها العجوز وغرقت في موجة من السخط والدعاء عليه وسبه حتى هدأت نفسها ثم انتبهت لي مرة أخرى وبدأت تسألني على سبيل التعارف، أسئلة كثيرة لا آخر لها بدأت بـ"ما حكايتك؟ وأي موجة رمتك على السطح؟"، كل إجابة مني كانت تفجر لديها ينابيع للفضول أكثر، ولكي أكون صريحًا مع نفسي أكثر كان لا بد أن أعترف أن فكرة انتقالي إلى الحياة هنا كانت ضربًا من الجنون ولا منطق يسعفني حتى لو سيق من عالم الخيال، فبكل ما أوتيت من العلم وما قرأت من كتب وأبحاث لم أستطع تأليف كذبة واحدة يصدقها العقل تنهي حالة التعجب والدهشة.

"أظن أن هذا حال الجميع، وأسئلة العجوز ما هي إلا دليل عظيم على عبثية ما قمت به. وهذا ما يزيد المشهد تعقيدًا والتباسًا، وأتوقع أنك ستسمع هذه الأسئلة كثيرًا وستقف جميع إجاباتك موقف خيوط العنكبوت من العاصفة".

لا أبالي، سأقيم نُصْب الحقيقة أمام الجميع مهما كان غير منطقي ولا مقبول، وسأدير ظهري للجميع، تمامًا كما أدت ظهري للعجوز وأرحت نفسي من ثرثرتها ودخلتُ حجرتي مغلقًا الباب على تطفلها. ذهبتُ إلى الدرج يدفعني الضجر فسحبت سيجارة حشيش من الاحتياطي الاستراتيجي الخاص بي، أشعلتها وشرعت في سحب النفس الأول من الدخان وأنا أشرع النافذة لأستكشف العالم الجديد، كلما حل الظلام أضاءت المآذن والقباب الخضراء تعكس الأنوار الصفراء المسطرة عليها، لأكتشف أن هناك ميزة جديدة لم أنتبه لها في هذا السطح، أنه مطلٌّ على القاهرة الإسلامية التاريخية، الغنية بآلاف القباب والمآذن التي ترفع يديها بالدعاء منذ مئات السنين، صف البيوت المواجه

للبيت الذي أسكن فيه أقل ارتفاعًا إلا بيتًا واحدًا آخره من جهة اليمين يزيد ارتفاعه على مستوى سطحنا بثلاثة أمتار تقريبًا، تعتليه غيَّة حمام، يقف أعلاها شاب طويل قوي البنية يلوح بعلم أحمر لسرب حمام يطير في فلك دائري.

"السماء والطائرات الورقية الملونة والغية وسرب الحمام والمآذن والقباب الخضراء، إنك تلملم أبجديات عالمك الجديد الحالم الذي تريد بناءه والعيش بداخله".

نعم لقد كنت عازمًا على أن أنقب عن الجمال المخفي في هذا القبح الطاغي.

تناولت القليل من الطعام المعب ثم شربت كوب شاي، سمعت صوت الشيخ نعمان يناديني من خارج الغرفة، قابلني بابتسامة لطيفة وتحدث بودّ وكرم بالغين:

- اليوم أنت ضيفنا والكيف سيكون هدية منا، تعال لتفتتح جلسة المزاج السلطاني وأعرّفك على الثلة.

سار أمامي **ببدن سمين قصير منبعج الجانبين ورأس** مربع يلتصق بالجسم مباشرة، تجاوزنا غرفة أم زينب وهي جالسة أمامها، ضيّقت عينيها وتبعت خطانا كبومة تراقب الجرذان، تجاوزنا غرفتها ثم التي تليها ودخلنا التي وطأها جعفر الإبلّيس بالظهيرة، غرفة صغيرة خالية من الأثاث، بها حصيرة بلاستيكية خضراء محترقة في أغلب مواضعها من تساقط جمرات الفحم عليها، وموضوع عليها عدة وسائد أصبحت مسطحة مدكوكة لونها طيني، وفي منتصف الغرفة مجمرة صدئة مملوءة بالرماد وعليها عدة أحجار للجوزة وكتل متفحمة من المعسل، المكان مقرف ومعبأ بروائح مقززة، أخذ الشيخُ المجرمة لخارج الغرفة وقام بانتزاع بعض الأخشاب من كنية قديمة محطمة.

- قل لي يا شيخ هل هذه غرفة جعفر؟

نظر إليّ متعجباً وضحك ضحكة عالية متقطعة أرتج على أثرها جسده كقربة ماء ثم رد على السؤال بسؤال:

- هل عرفت جعفر؟

قصصت عليه ما دار بينه وبين أم زينب في الظهيرة وما بدى من تباغضهما.

- إنه ولد شيطان ابن حرام، كان أبوه يكرهه كأنما ينكر نسبه ويبرحه ضربًا ويقسو عليه ويوبخه على أتفه الهفوات، ولا يناديه إلا بـ"يا ابن الزانية" أهمل تعليمه وامتنع عن الإنفاق عليه حتى شب شقيًا مجرمًا يدبر نفقاته من السرقة والخطف أو بلطجيًا أجييرًا، حتى موت أبيه كان غامضًا فقد سقط من السطح بعد سهرة كيف معنا من عدة سنوات.

- ولم نحن في غرفته الآن؟

- لا، هذه الغرفة لم أؤجرها وتركناها خالية لزوم السهر والمزاج، ربما جاء بالظهيرة ليخبئ فيها أقراصه المخدرة.

- ولم تعرض نفسك للخطر؟ أمن أجل مجرم مثله لا قيمة له؟

- لا تقلق فمن كان له ظهر لا يُضرب على بطنه.

- ظهر؟! من ظهرك هنا؟!

- إنه سعد..!

لم يتم كلمته حتى جاء رجل طويل ضخمة الجثة، جسمه مدملك ثقيل ليس لديه كرش يذكر، شعره كثيف ناعم مهذب ومصفف بعناية، ملامحه غليظة ليست مريحة إلا أن علامة الصلاة المنبسطة على جبهته كسرت قليلاً من حدة انطباعي السلبي لرؤيته، ألقى السلام بصوت أجش ولم تفتقر شفتاه عن بسمة. ثم دخل الغرفة متجههم الوجه، سحب الجوزتين وأخذ يغير ماءهما، أشار له الشيخ نعمان وتحدث بصوت عالٍ يعرّف كلانا الآخر:

- إنه اللواء سعيد الجندي ظهرنا وحامينا، وزير داخلية المنطقة.

ابتسم الرجل ممتناً وبدا عليه الارتياح والثقة لكنه لم يلتفت إلينا، وظل منهمكاً في عمله يؤده بجدية، وكان

هذا هو سعيد أمين الشرطة ويعمل في نقطة الشرطة القريبة من الحارة.

- الدكتور صالح كان أستاذًا في جامعة القاهرة لكنه الآن في إجازة طويلة وسيحل ضيفًا علينا لفترة قصيرة حتى يجد سكنًا مناسبًا.

استمر سعيد على حاله صامتًا يغسل الجوزة ويضبط كمية الماء المناسبة، أتابع عملهما وكلما حاولت المساعدة نهرني الشيخ نعمان:

- أنت اليوم السيد ونحن خدمك، تفضل اجلس يا دكتور، استرح من فضلك.

بدا الأمر مقبولًا إلى حد ما، لكن ليس مريحًا بدرجة كبيرة، قلت لنفسي مع الاعتياد سيصبح كذلك، مؤكد أن أمين الشرطة يحاول بث الرهبة وخلق مسافة كافية تحفظ له هيئته أمامي، الكثير من الناس لا يستطيعون خلع شخصية المهنة التي يمتهنونها،

تستحوذ عليهم حتى في خارج أوقات العمل
وخصوصًا إن كانوا من ضباط الجيش والشرطة.

"داخلني شعور أنك تحتقر الشيخ نعمان بدرجة ما،
وصفك له من ناحية الجسد ذلك الوصف الكاريكاتيري
أوحى لي بذلك، أما بالنسبة لأمين الشرطة فأراك
متحيرًا يختلط عليك أمره".

نعم، لقد لامس عقلك أطراف الحقيقة، لكن لدي
توصيف آخر أكثر دقة وأقل وطأة من الاحتقار وهو
قلة الاحترام.

"لا أرى أن بينهما فارقًا جوهريًا".

لا بل بينهما فارق كبير، فالاحتقار يحمل في طياته
الكراهية والتقزز، فعندما تحتقر إنسانًا ما تمتلئ نفسك
بالرغبة في تطهير العالم منه ومن شاكلته، ولن تجد أي
مانع أو تشعر بالغضاضة إن رأيت فيه نهاية مأساوية
دموية، بل إن حدثت هذه النهاية سيسر قلبك وترتاح
لها نفسك، هذا ما شعرت به تمامًا تجاه جعفر مثلاً، أما

نعمان فهو شخص سطحي حد التفاهة، وبلا ملامح ولا قيمة، ولا توجه ولا مبدأ واضح، لا يقدم شيئاً مفيداً في حياته، فقط يجمع إيراد البيت وينفقه على الطعام والكيف، دائم الهزل يريد الضحك والسخرية من أي شيء، اعتاد التلصص على نساء الحارة من خلف خصاص النافذة بعد رجوعه من سهرة الكيف وحتى مطلع النهار، أما بالنسبة إلى سعيد فهو رجل غامض ذو هيبة، قليل الكلام، لا تستطيع سبر أغواره ولا تصنيفه بسهولة.

"أرى أنك لم تفز بصحبة مميزة".

لم أكن متعجلاً في إصدار الأحكام عليهم ولم أدع انطباعاتي الأولى تصبح حجر عثرة في طريق شغفي الطفولي ولا روح المستكشف الجديد الذي ينوي استخلاص الذهب من برك الطمي، لهذا جلست كالتلميذ أمام نعمان وهو يعلمني أصول إشعال الحطب في المجرمة حيث رص الخشب الرفيع في القعر والأخشاب الغليظة في الأعلى، رفع بحرص الخشب ثم أشعل القداحة في ورقة جريدة أسفله، وفرت النار

فيضًا مناسبًا من النور والدفع طرد لسعة البرد المتنامية في ليلة متأخرة من إحدى ليالي نوفمبر، كان كل شيء يمر بسلام والأمر تبدو جيدة حتى ظهر جعفر، جاء حاملاً كيسين أسودين تكثفت عليهما قطرات الندى، بهما عدة زجاجات بيرة مثلجة.

- كيف الحال يا شيخ نعمان؟ أحرق الله أعداءك!

ضحك بصوت رفيع حاد ذي بحة تنتهي بصفير تخللته حشرجة وانتهى بسعال ثم استجمع من عمق فمه المخاط وتقله بقوة على الأرض، دخل فوضع كيسيه على الأرض ثم لم الحصيرة الملهلة وخرج بها إلى السطح ووقف بجوار السور وأخذ ينفذ ترابها غير عابئ بالمارة أو الجالسين في الحارة، نهره الناس فسبّهم غاضبًا متوعدًا وبصق عليهم عدة مرات في اتجاهات مختلفة كأنه يرسل لكل واحد وواحدة نصيبهم من البصاق على حدة.

تحلّقنا حول المجرمة، لكل اثنين منا جولة يتناوبان عليها، التحمّثُ بالشيخ نعمان لأتناوب معه وتركنا

الأمين وإبليس يتناوبان معًا، بعد مرور وقت ليس كبيرًا كان كل منا قد أفرغ زجاجتين من البيرة ويتجرع الثالثة على مهل، بدأ كل من نعمان وجعفر بحكي حكايات سخيفة ويضحكون عليها، أما الأمين فقد كان مشغولًا بي بادئ الأمر، يرمقني من آنٍ لآخر بنظرات فاحصة محاولًا قراءة ملامحي ومطابقة صفاتي مع خبراته الطويلة في مخالطة المجرمين، لكنه ما لبث أن انخرط معهم في هزهم ونسيني، أثارت نظراته المرتابة بواعث الشجن بقلبي فأخذت أجادل نظراته باختلاجاتي: أتستطيع أيها الحاذق أنت أو حتى أعظم الخبراء في علم الجريمة معرفة ذلك النوع من المجرمين الذين لم يجرموا إلا في حق أنفسهم؟ ومن في هذه الحالة الجاني؟ ومن المجني عليه؟ وهل لهذه الجريمة الشنعاء عقاب ملائم؟

تنحنح جعفر ثم تكلم رافعًا صوته للفت الأنظار إليه كتاجر بالسوق ينادي على بضاعته:

- سأحضر لكما فرصة لم تذهب أحلامكما لمثلها من قبل ولن تتخيلا من تكون.

أوحت لي صياغة الجملة أنه يتحدث عن امرأة يعرفانها ويتمنيانها لكنهما لا يتخيلان حضورها، لكن رد فعل سعيد ونعمان أوضح أنهما لم يفتنا لهذه الملحوظة، ضحكا بوهن وخيبة أمل ظناً منهما أن البيرة قد لعبت بعقله.

- سأخذ من كل واحد منكما مئتي جنيه، قبل أن تلمسا منها شعرة واحدة.

أدرك الرجلان أخيراً جديته وظهر منهما اهتماماً مغلفاً بادعاء اللامبالاة، سحب سعيد نفساً عميقاً ملأ به رئتيه ثم قال بلهجة بين الهزل والجد، والدخان يتسرب خارجاً من فمه وفتحتي أنفه:

- لماذا مئتا جنيه هل ستحضر لنا ممثلة معروفة أم راقصة شهيرة؟!

- لن أقول لكما الآن، فهي مفاجأة.

- لم تأت لنا يوماً بامرأة نضرة، كل نسائك منتهيات الصلاحية لا خير فيهن، لولا السكر ما تحملنا النظر

إليهن أو لمسهن.

ضحك جعفر متهكمًا ولسعهما بلسان بذيء:

- إن حضر شيطان الشهوة تركبان البهائم الجرباء والكلاب الضالة، لكن أقسم لكما أنكما ستدعوان لي هذه المرة، قولا لي: ما أحلامكما؟ وسوف أثبت لكما أنها أجمل مما تحلمان.

عدّل الشيخ نعمان جلسته وأخذ يوسع الجلباب عن حجره ليواري ما تغير من حاله، زفر سعيد نفسًا آخر وقال:

- أريدها طويلة نحيفة، إلا ردفها ونهديها، خمرة ذات عينين سوداوين وشعر أسود طويل ينثال بنعومة حتى يبلغ مؤخرتها، ها؟ ما رأيك؟ هل تستطيع إحضار شبيهة لها؟

نظر جعفر لنعمان موجهًا له دفة الحديث فتحدث نعمان وقد هامت عيناه ومادت أساريره:

- أريدها بيضاء لحيمة، لا يهم عمرها، أهم شيء أن تكون ممتلئة ذات مؤخرة كبيرة متكورة مثل نعيمة زوجة سليم الخبّاز، إنها بيضاء كالدقيق وطرية كالعجين، ذلك الرجل الجاحد يميل إلى زوجته الثانية السمراء النحيفة التي تشبه عود السواك ولا يعرف قدر النعمة التي بين يديه ويتركها الليالي الطويلة تنقلب في فراشها وحيدة تلتهم نيران الرغبة جسدها، آه يا نعيمة! لكم تخيلت نفسي بجوارك في فراش اللذة.

"نعمان هذا داهية من دواهي الزمن هاهاها".

نعم، إنه أرمل منذ ست سنوات لم يلمس جسد امرأة إلا مرات قليلة، واعتاد مطاردة نساء الحارة بعينيه المتلصصتين المتحسستين، لقد حكى لي عنهن وعن بناتهن حكايات تصهر الحديد وتبخر الحديد.

"ما شاء الله! كل هذا يحدث من الشيخ! ترى.. ما حكايته؟ أظن أن وراءه سرًّا ما".

نعم صدقت. فله حكاية مؤلمة سوف أحكيها لك لاحقًا
 لكن دعني أحكي لك بقية ما حدث بالسهرة.
 "تفضل".

جاء دوري في الكلام بمجرد أن صوّب جعفر عينه
 الوحيدة السليمة لي، كان الخجل يكمم فمي وكذلك
 دهشتي بحال سعيد صاحب علامة الصلاة الغامقة
 العريضة ومجاراة الشيخ لهما، زاد الدخان بصورة
 كادت تحجب الرؤية تمامًا ثم هبت نسمة باردة،
 اختفى البؤساء من حولي تمامًا وكذلك الجدران
 المقشرة الدهان ولم يتبق سوى السحاب، سحاب
 حولي وفوقي وأسفل مني، فردت ذراعي فحلّقت
 فوقه وسافرت منطلقًا في اللامكان واللازمان، بزغت
 حبيبتني سماح قمرًا يخترق السحاب، إنها ملكة الفؤاد
 وحبّي الأول والأخير، خمريّة الوجنتين نضرة، تبتسم
 بعينين دعجاوين، وجسد شرقي جيد التقسيم لم تصل
 إليه الفلسفة الغربية في تقديس النحافة، كاملة
 الجمال لا يعيبها شيء، ابتسم ثغرها فأصبح كهلال
 أضواء قوسه السفلي، شعرها الكستنائي متحرر من

حجابه، متموج، طليق تتخلله الغيمات، ترتدي ثوبها التقليدي الذي كانت ترتديه دائمًا، القميص الأبيض والبنطال الجينز والحذاء الرياضي.

- كم أوحشتني يا حبيبة القلب، أحمد الله أنك ما زلت على حالك جميلة ومتألقة، اقتربي والتميني، دعيني أستشعر دفء صدرك ولهيب أنفاسك!

ابتسمت لي بغنج ثم نظرت إليهم وأومأت بوجهها تعني "استحي يا حبيبي؛ أصحابك ينظرون إلينا".

- لا تبالي يا حبيبتني إنهم سكارى، يهيمون في ساحات الوهم، تعالي، اقتربي مني ضميني، ياه يا حبيبتني ما أسكر ريقك! وألين شفتيك الرطبتين! ما أشد عينيك الناعستين سحرًا! ضميني يا عمري ضميني يا روعي!

شق صوت جعفر أمواج الغيم الحالمة كالصواعق والبروق فبدد غلالة الحلم السحرية متهمكًا:

- لقد ذهب عقل صاحبك يا شيخ، وما زال الليل في أوله!

وجه لي الشيخ نعمان الحديث ولم يلتفت لتهكم
جعفر:

- هل هي زوجتك يا دكتور؟

- لا لا، كانت حبيبتي أيام الجامعة لكن أُمي رفضت أن
أتزوجها!

تجاوزني الشيخ وذهب بعينيه الزائغتين لجعفر
وحدثه:

- هل حديثك جدُّ أم تتلاعب بنا يا ابن الكلاب؟

- جد وحياة هذه النعمة!

وأشار بكفه صوب البيرة والجوزة، فقال سعيد:

- من هي؟ ومتى تجيء بها؟

قاطعه نعمان:

- لا لا، قل أولاً ما شكلها!

ما زال الشيخ على تشوُّقه حتى بدا كمراهق في سن السابعة عشر، اعتدل جعفر ورفع حاجبيه لأعلى وبدأ على وجهه الغرور والثقة.

- إنها أنثى لم تلدها ولادة، بيضاء كالقشدة، طرية كالملبن، شعرها ناعم طويل، كل شيء فيها مرسوم مثلما يقول الكتاب.

فغر كل منهما فاه، وفتحا أعينهما بكسلٍ، كأنهما في غفوة الحلم، وأصبحا بين الحضور والغياب.

- متى تأتي بها؟ نقودنا حاضرة، ها هي خذها!

أخرجنا نقودهما في عجل، وكأنه سيخرجها من جيبه!

- قريبًا جدًا لا تتعجلا، أحب أن أترك الطعام ينضج على نار هادئة ليصبح لذيذًا طريًا يذوب في الفم بلا مضغ، أعلم أن أسنانكما متهاكة ضائعة هاهاها!

(4)

"هناك نقطة تجاهلناها رغم أهميتها ويجب الرجوع إليها قبل الخوض في بقية تفاصيل حكايتك".

ما هي؟

"لقد تحدثنا عن بداية وصولك للحارة لكننا لم نتطرق إلى الدافع، كيف تغاضينا عن هذا، حدثني عن تلك اللحظة الفارقة التي قلبت حياتك رأسًا على عقب ودفعتك لهجران حياتك القديمة تمامًا والانتقال إلى الحارة".

سأحكي لك عن مفارقة عجيبة، هدمت في لحظة واحدة الكثير من الثوابت وجعلتني أشعر لأول مرة أنني أحمق وفكرة أنني أستاذ في علم النفس أو أن أصنّف عالمًا مُلمًا بها، ما هي إلا فكرة مضحكة جدًا، مضحكة حد البكاء، تخيل لقد درست أربع سنوات وقرأت مئات المجلدات في هذا العلم وقمت بالعديد من الأبحاث وتجاوزت اختبارات الماجستير بتفوق

ثم حصلت على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف وأذهلت الجميع، وتوهمتُ أنني أصبحت خبيرًا في هذه المدعوة بالنفس البشرية، لكن هذه الفقاعة المزينة بألوان الطاووس انفجرت في ذلك اليوم، تحديدًا الساعة السابعة صباحًا، عندما دق المنبه في ميعاده اليومي، أنا استيقظتُ من النوم وهي لم تستيقظ، نعم هكذا بكل بساطة قد ينتهي إنسان، المحكوم عليه بالإعدام يمر بمراحل كثيرة من التحقيقات والمحاكمات ودرجات التقاضي وثرسل أوراقه إلى المفتي ثم ينتظر أيامًا طويلة مسجونًا في برزخ الدنيا، قبل أن تُسحب العصاة الغليظة ليسقط في الهاوية السوداء، لكن دون أي جرم أو محاكمات أصدر القدر حكمه الواجب النفاذ في الحال، هل هناك علم نفس للقدر؟ هذا الذي يقرر أن حيًا يصبح ميتًا دون سابق إنذار، غنيًا يصبح شحاذًا، حرًا يصبح أسيرًا، طفلًا يصبح يتيمًا، زوجة تصبح أرملة، لو كان القدر إنسانًا مثلنا لظننت أنه يتلذذ بالتلاعب بنا وتعذيبنا.

"أراك **ساخطًا** على كل شيء، مرةً على أبيك ومرة على أمك ثم أخيك والآن ساخط على القدر، أو لِثَقُلْ على الله عز وجل، فهو بالتأكيد صانع القدر".

لا أعرف بدقة، لم يكن الله في بالي وقتها ولم يكن مقصودي مطلقًا، ربما نظرت إلى القدر حينها على إنه الحظ العاثر.

كانت تبدو نائمة، ترتسم على وجهها بسمه باهتة محايدة، تجمعت على جانبي عينيها غصونٌ حديثة لم ألاحظها من قبل، لم تتجاوز التاسعة والأربعين بعد، يقول الطبيب إنها متوفاة منذ مساء البارحة، يشك أنها تناولت جرعة زائدة من الدواء، نعم أعطيتها الدواء، لكنني أحفظ الجرعات بدقة ومستحيل أن أنساها أو أخطئ فيها، حتى لو كنت سكران مُخدرًا.

"ألهذا يظن كريم أنك قتلتها؟".

نعم، لكنه أحرق يميل إلى تحميلي كل آثام العالم مثلهم.

"ولماذا لم تفترض ولو لمرة واحدة أنهم على صواب،
وأنت ربما أعطيتها جرعة زائدة، أنت تدعي أنك لا
تخطئ في دوائها حتى لو كنت سكران! من أين جاءك
هذا اليقين؟".

أذكر جيدًا كل شيء بدقة كأنه حدث البارحة، لقد
حدثتها وتلقيت ردّها بالنظرات المشفقة، أرحت
وسادتها، وضعت رأسها برفق، نفّسها مجهد ذو صوت
مبحوح يفضح أنينها المكتوم قلّت لها بقلب حنون
وصوت هامس: "لو كان الألم رجلاً لقتلته" وضعت
جسدي على الفراش بهدوء حتى لا يؤلمها الاهتزاز،
نمت كالعادة على جانبي الأيسر لأعطيها ظهري، لكنها
في تلك الليلة خاصة طرقت ظهري بأناملها الوانية،
التفت إليها ونظرت إلى عينيها المسافرتين، سحبت
كفّي ووضعتته على خدها وأغمضت عينيها، أذكر كل
شيء حدث بالتفصيل في تلك الليلة كأني أراه كما أرى
هذه الأجهزة والأرقام الخضراء المضيئة عليها
وأستطيع قراءتها واحدة واحدة، لا أدّعي أنني أحببتها
لكن أيضًا لم أكرهها، رغم أنني تزوجتها مكرهًا، فُرضت

علي من أُمي فرضًا وهذه إشكاليتي الكبيرة معها، التي لم أستطع التغاضي عنها، كانت تشبه أُمي كنموذج قياسي معياري مثالي، لكنها ليست كأُمي تمامًا، فهي طيبة باردة كالآلات الحديدية، ولم أرَ منها قسوة مفرطة سوى تلك الصفعة المزلزلة في ذلك اليوم الأول! السهرة الأولى.

كانت علاقتنا كعلاقة أي قطعتي أثاث في منزل، علاقة الجمادات ببعضها، كقضيبي القطار، نسير معًا في توازٍ محكم منضبط لا نتلاقى ولا نفترق، المسافة بيننا ليست قريبة ولا بعيدة، كنا أليفين بدرجةٍ لا بأس بها.

"ورغم هذا كان موتها كانفجار قبلية عظيم دفعك بقوة للخروج عن مسارك الطبيعي؟!".

الموت ذاته كفكرة مجردة هو ما حير عقلي وكاد يجنني، ذلك الانقطاع الكهربائي عن الأجهزة الإنسانية، الصمت الأبدي، لا كلمات أخيرة، اللاعودة، الفناء، لم أفكر فيه يومًا، في ذلك الصباح كان راقدًا بجواري، ربما لامسته عدة مرات أثناء تقلبي، الناس يموتون كل

يوم، نعم حقًا، بل كل دقيقة، بل يموت الآلاف في الثانية الواحدة، أوبئة وزلازل وفيضانات وسيول وحروب ومجاعات كلها مناجل ملك الموت يحصد بها الأرواح، فرادى وجماعات، لكن عندما ينام إنسان ولا يستيقظ! فهذه هي الإشكالية الحقيقية من وجهة نظري.

"لقد كانت مريضة وفكرة موتها واردة، لماذا شعرت بالصدمة؟".

لم يكن مرضها خطيرًا لدرجة اليأس وتوقع الموت، بالعكس لقد لاحظنا استقرار حالتها فجأة في أيامها الأخيرة، كانت آخذة في التحسن، لديها عدة أبحاث لم تتمها بعد، وتترقب ترقيتها المعتادة، كانت ستفرح بها كثيرًا.

لقد أصبح لدي مشكلة كبيرة مع الحياة، كنت أظن أن الموت يأخذ الناس بعد سن التقاعد بعدة سنوات، ونادرًا ما كان يأخذ الصغار، الآن أراه يقوم بقرعة يومية على حياة الجميع، يرمي أحجار نرده فتارة

يأخذ ذا عَقْد أو أقل وتارة يأخذ ذا ستة أو يزيد، أصبحت أخاف الموت كثيرًا ولا آمنُ الحياة، كان من قبل عدوًا خفيًا يتحرك في الظلام صامتًا لا يعلن عن نياته، أصبح الآن ظاهرًا شاهراً أدواته، يقتفي أثري في الطرقات، يقف خلف أعمدة النور، سائقًا لسيارات الأجرة، كامنًا في بالوعات الصرف، متواريًا داخل أسلاك الكهرباء، أصبحت أخاف على نفسي، أخاف من الفقد ومن الوحدة، أخاف أن أموت ولم تذق نفسي الطمأنينة فأعود إلى ربي مخزيًا لا راضيًا ولا مرضيًا، أريد أن أنسى الموت كي أستطيع الرقاد، كي أستطيع النهوض، كي تتوقف فرائسي عن الارتعاد.

"خذ نفسك يا سيدي، تفضل اشرب القليل من الماء".

شكرًا أنا بخير دعنا نكمل.

"لا ضير من راحة قصيرة فقد يؤثر الإرهاق على حالتك الصحية".

سأطلب الراحة عندما أحتاج إليها لا تقلق.

" كما تحب، الحقيقة يا دكتور صالح أنا لا أرى حتى الآن أنك مررت بالأزمة الرهيبة التي قد تدفعك لهجر حياتك والذهاب إلى الحارة!".

الأمر بدا لي في الوهلة الأولى مجرد بذرة حزن ستواربها أتربة النسيان لكن البذرة أصبحت شجرة فغابة موحشة، لم يعد هناك ما يربطني بالمنزل بعد رحيلها وسفر كريم، فقد أصبح موحشًا مخيفًا، أراها بالصباح تعد الفطور وبعد العصر بالمطبخ تطهو الغداء وبالليل تتقلب بجواري لكنها في جميع الأحوال لا تلتفت إلي، صامتة تمامًا لا ترد علي.

ذات ليل شعرت بالاختناق والتيبس، لساني صخري متكلس، حلقي جاف، لا أستطيع أن أبلع ريقِي، حاولت القيام لكنني فشلت، أصبحت كتلة رمال متحجرة، كلما حاولت النهوض تساقطت الرمال، انفركت، لم تتوقف الرمال عن السقوط ولا جسدي عن التداعي، حتى بعدما سكنت حركاتي ويئست، كنت خائفًا هلعًا من هذا التَفَتُّ والتلاشي، أخشى هبوب الريح فتحمل أجزائي إلى الفراغ الوهمي، أيقنت أنني ذاهب إلى

الجنون بخطى سريعة متسارعة، شهور قليلة وأصبحت مدمناً لكل طرق الهرب، أطرق كل أبواب الغياب، أتشبت بتلابيب اللاوعي، الجيران مستأؤون، بعضهم مشفق علي، ما زالوا يتذكرون الدكتور صالح، الأستاذ الجامعي الباحث الطيب المهيب ذو الوقار، الذي كان يذهب كل صباح إلى عمله مهنّداً الثياب لامع الحذاء، يحمل على شفتيه بسمّة مشبعة بالسكون والاستسلام، أما صفارهم فلا يلتفتون إلى التاريخ، ولم تعادل التجربة الحياتية رؤيتهم للأمور، لا يعرفون سوى الدكتور المجنون السكير المغيّب، عم زين بواب العمارة يضرب كفاً بالأخرى متعجباً من حال الدنيا أو بمعنى أدق ما وصل إليه حالي، لِمَ الرجوع كل ليل إليهم، أتطوح وأدعي الثبات؟ قررت أن أمكث أمام المجمرة وألزم كائنات العالم السفلي أولئك النوع من البشر.

(5)

ثقل رأسي وقد فعل الخمر والحشيش بعقلي الأفاعيل،
أغلقت نور غرفتي وألقيت بجسدي على السرير الذي
ترنح وكاد يهوي بي، أغمضت عيني لكن هيهات لبائس
مثلي أن ينعم بنوم هانئ، سمعت صوت طرق خفيف
قريب لكن ليس ببابي، وصوت حركة غير مفهومة ثم
صرير بابٍ يُفتح فقامت مستندًا إلى مرفقي أتلصص
من خلال الحافة الجانبية للنافذة، وجدت رجلًا يقف
ملتصقًا بأُم زينب، قابضًا عليها، كانت حركتهما عجيبة
كأنهما ثعبانان يلتف كل منهما حول الآخر، سمعت
الفحيح، بل المزيد من الفحيح، كان تفسير الأمر
عويصًا في بادئ الأمر، حتى لاحظت أن الرجل الذي
يبدو في هيئة جعفر يخنق العجوز وهي تتلوى بين
قبضتيه، تستجدي الهواء كي تتنفس، تلوّت كثيرًا
حتى ظننتها لا تموت، سقطت أخيرًا متكومة على
الأرض بعد زمن طويل من التشبث بالحياة، لقد فعلها
إبليس الخسيس، تراجعَتْ بسرعة أتوارى عن نظرة
طائشة قد تقع علي، قلبي ينتفض أكاد أسمع نبضاته

الهلة، أخاف أن يسمعها القاتل، لماذا قتلها الشيطان
وهي عجوزٌ وانيةٌ مشرفة على الموت؟ أمن كلمة
تلفظت بها تجعله يهم بها قاطفًا روحها، انزلقت لأسفل
بهدوء وسحبت الملاءة فوق رأسي وأغمضت عيني
وغصت في ظلام مصمت لا آخر له وما زال السرير
ينتفض تحتني، ساعات قليلة وستنقلب الدنيا رأسًا
على عقب، عندما تستيقظ زينب في موعدها المعتاد
لتطعم فراخها، ستري أمها صريعة طريحة الأرض،
فتصرخ وتملأ الدنيا ضجيجًا.

استيقظت من نومي في موعدي المعتاد على ذات
الطرقات! إنه صوت عصا أم زينب، ثم جاء صوتها
المرتعش يتقطع متخللاً الباب.

- قم يا ولدي، ستبرد الطعمية، هيا.

انتابني الذعر، انتبهت وقمت منتفضًا وفي خلال ثانية
كنت قد أشرعت الباب لها، أخذت أحملق في وجهها
متفحصًا، إنها كما هي لا شيء طرأ عليها، اللعنة على
الشكر وأوهامه!

- هل أنت بخير يا أم زينب؟

- الحمد لله يا ولدي.

نعم هي بخير بل هي بخير جدًا، وكأنها اليوم أصبى من الأمس بعدة أعوام.

جلس ثلاثتنا، زينب العاقدة الحاجبين دومًا على الطرف الأقصى من الحصيرة تقبض بكلتا يديها على رغيف ملفوف محشو بالطعمية والباذنجان المقلي ويتقطر منه الزيت فيسقط في حجر جلابيها، تأكل بنهم وتوحش حيوان بري جائع يمزق لحم فريسته بأنيابه، تتساقط فتات الطعام من فمها فيستقر بجوار قطرات الزيت، وبيننا السيدة التي شاهدت مصرعها فجرًا، سحبت طبقًا بلاستيكيًا كانت تخبئه تحت شالها، به بيضتان مسلوقتان، قربت الطبق مني وزينب تراقبها، هجمت البنت على الطبق لكن العجوز حالت دونه ونهرتها، اربد وجه الفتاة وترقرقت الدموع في عينيها وأخذت تغغم بالسباب المشفر كعادتها، أخذت

أمها بيضة وناولتها، ومدت الطبق بالبيضة الباقية
تجاهي:

- تفضل يا ولدي قبل أن تنقض المحرومة عليها.

أخذت البيضة واحتفظت بها في يدي، لاحظت بعد
قليل أن الغرفة المغلقة دائماً، تلك التي تتوسط غرفة
أم زينب وغرفة الكيف تنفتح على مصراعيها، سكنها
شاب عشريني يقوم بإخراج المفروشات ويضعها على
سور السطح، الولد نحيف طويل ذو سمرة جنوبية،
أجعد الشعر يفرقه من الجانب، كان يلقي علينا نظرات
خاطفة ولم يُلَقِ السلام، ابتسمت له ابتسامة طويلة
لعله يتجاوز رهبته فتجاذب أطراف الحديث.

- إنه من سوهاج، اسمه علاّم، جاء به الشيخ نعمان من
ساعة وقال إنه استأجر الغرفة حتى انتهاء السنة
الدراسية بجامعة الأزهر.

- يبدو خجولاً.

- يظهر الجميع هكذا في البداية، لا تتعجل الحكم على الناس!

أنهيت طعامي وقبل أن أذهب إليه مددت يدي بالبيضة لزينب متوددًا، أخذت تنظر إليّ مرة وللبيضة مرة في حيرة لكن رغبتها كانت أقوى من خوفها، اقتربت بحذر فخطفتها بسرعة من كفي المفتوح وعادت لمكانها الحصين على طرف الحصيرة النائي.

توجهت لعلام مباشرة لعلني أجد فيه الأنيس، طالب جامعي ولعله مثقف، ليس مثل هؤلاء الجهلة الذين احتلوا حياتي.

- السلام عليكم كيف الحال؟

"اسمح لي أن أقاطعك مرة أخرى، أظن أنك تناقض نفسك هنا".

لماذا؟

"تقول إنك ذاهب في رحلة استكشاف تستهدف من خلالها الفوز برفيق مثقف، على الرغم من أنك هجرت عالم الفكر والثقافة طوعًا؟! ولم يظل مقامك في الحارة حتى نقول إنك افتقدت حياتك القديمة، هذا التناقض يربكني في الحقيقة!".

قد يحتاج المثقف إلى شيء من الجهل حتى يستمتع بإنسانية لا ترهقها المثالية، كما قد يحتاج المُنْظَم إلى بعض الفوضى في حياته حتى لا يتحول إلى آلة، هنا الفكرة معكوسة لكن المنطق نفسه، فربما احتجت إلى خيط من نور وسط كل هذا الظلام.

(6)

يدرس في كلية الشريعة والقانون وموقن أنه سيكون قاضيًا عظيمًا يومًا ما، كان عندما يستذكر دروسه يتقوقع بداخل غرفته، أما عندما يسحب دفتر الرسم فإنه يخرج وسادة وسجادة الصلاة فيجلس عليها أمام الغرفة مقرفصًا ويضع الدفتر على فخذه ويشرع في الرسم، رأيت له لوحات ورقية مرسومة بالفحم في غاية الروعة والجمال، جعلني أسترجع ذكرياتي الأليمة ولوحاتي القديمة وسألت نفسي: "ترى هل سأعود إلى الرسم يومًا؟".

أعجبني كرمه ودماسته حينما اقتحمت عليه خلوته، حيث هم بتحضير الكركيه وقدم لي كل ما جلب من فطير وعسل أسود وجبن قديم، لكنه لم يقم يومًا بالمبادرة بالحديث أو الزيارة، وكأن ترحيبه من قبيل كرم الضيافة الذي تربى عليه في قريته التي جاء منها، وما لم يعجبني فيه أنه كان ينظر إلى الناس بالحارة نظرة دونية وكثيرًا ما يسخر منهم ومن جهلهم، فخور

وفرّح بما لديه من الثقافة بسبب الدراسة وبعض الكتب التي قرأها.

"وكيف كانت نظرتك أنت لهم؟".

الحقيقة أنني أيضًا كنت أنظر إليهم نفس النظرة الدونية، وسخرت كذلك من جهلهم لكني لم أظهر ذلك مثلما فعل هو، بدا لي متعاليًا ومغرورًا علاوة على حبه للجدال ولا يعترف بالخطأ وإن أقمت عليه الحجة وأثبت له بالدليل القاطع وبات خطأه جليًا بل يصل به الكبر أن يتهم عليّ أنا شخصيًا كلما اختلفت وجهات نظرنا، لم يراعِ فرق السن ولا مكانتي العلمية والأدبية لهذا بثّ حريصًا على عدم الصدام به.

- أتدري يا علام أنني كنت أعشق الرسم مثلك وكانت لي لوحات عظيمة أشاد بها أساتذتي، وقد فزت في مسابقة بالجائزة الأولى على مستوى الجمهورية؟

- حقًا؟!

- نعم، كانت مسابقة عن المشكلة السكانية.

- رائع جدًا!

- الرسم شيء جميل، حيث ترسم عالمك الخاص، سماء تحلق فيها وحيدًا منفردًا حتى تتربع على عرش اللذة الروحية.

- وماذا حدث لموهبتك؟ لِمَ لم تكمل؟ هل أكلتها الجرذان هاها؟

قررت ألا أحكي له ما حدث بسبب سخافته وتهكمه، وبعد عدة جلسات معه قررت ألا أتوغل في هذه العلاقة فأنا أستاذ من المغرورين المتهكمين، لأخي عفيفي نفس هذا العيب، وقد زاد قبحه وفضاظته بعدما انخرط في سلك القضاء، لذلك كنت أمقت الوقت الذي أمضيه معه ولم أتحسر ساعة واحدة لمقاطعته لي.

"أظن أنك مقتٌ فيه شيئًا يشبهك وتحاول التخلص منه".

بل قل إنني مقتٌ فيه شيئًا يشبه حياتي القديمة.

ظهر لي بعد ذلك بوضوح أن وجود علام في الحارة ليس مرحبًا به من قبل جعفر وثلته، كرهه منذ رآه أول مرة، يقول إنه مغرور ويمشي بالحارة مختلًا لا يعجبه أحد، يرفع حاجبيه وأنفه ويأبى أن يلقي السلام، خشيت أن يتربص به فيؤذيه، قلت لجعفر: تكرهه لأنه مغرور أم لأنه متعلم ومتفوق؟

- إنه تلميذ يأخذ مصروفه من أمه، أما أنا فجعفر الجن، آتي بالمال من حنك السبع.

تجهم وجه سعيد من كلام جعفر فنهره وحذره بلهجة صارمة:

- هذا شاب غريب بعيد عن أهله ولا شأن لك به يا جعفر، أحذرك أن تقترب منه بسوء أنت أو ثلتك.

حينها لمست في الأمين الشهامة والرجولة ورق قلبي له، لكننا على حالنا يلتزم كل منا ركنًا حصينًا موصدًا أبوابه ونوافذه في وجه الآخر فلا يشرعها إلا الشكر.

"ما زلت على رأيي، إن قلبك يميل بعض الشيء لسعيد، ربما تريده أن يكون لك الحصن الآمن والحامي في الحارة ودون أن تستشعر أي غضاضة".

لا تتعجل يا سيدي في إصدار أحكامك فما زال الوقت مبكرًا جدًا على إصدار الأحكام أو تكوين رؤى مكتملة.

"إذا فلتكمل حديثك حتى النهاية، وأنا سأقوم بتسجيله من الآن، وسأقول لك لاحقًا رأيي مفصلاً، وما يجب عليك فعله".

انتهت جلستنا وذهب كلٌّ منهم يقصد مسكنه وعدت أروم غرفتي، رأيتها تتأرجح أمامي كمركب تتلاعب بها الأمواج، تارة قريبة تقف على مسافة ذراع مني وتارة تبتعد حتى تبتلعها السماء، مرت نسمة باردة سريعة تكاد تكون ريحًا، حملت بين ثناياها تراتيل الفجر الآتية تباغًا من القباب المضيئة المترامية، قلت: ما هذا الخيال الجميل؟ ماذا يحدث لو أنني صعدت فوق السور؟ سور السطح، لا مشكلة مطلقًا، رفعت قدم ووضعتها عليه، وكان أعلى من قامتي أو أسفل ركبتي،

رأسي يترنح ولا أستطيع تثبيته جيدًا فوق رقبتني، نظرت إلى عربة الفول بحمارها الواقف في الحارة فإذ بهما يقتربان ويبتعدان، "يكفي هذا يا صالح، من يُرد الصعود لا ينظر إلى الأسفل"، نظرت إلى السماء فإذ بها مضمار والغيوم خيول جامحة، دفعت السور بيدي بقوة لأتحرر من جاذبية الأرض الثقيلة، فصعدت بالقدم الثانية، تمايل السور تحتي كحبل مرتخٍ لكنني فردت ذراعيّ فتوازنت واستقر بي الحال، تحركت فاردًا ذراعيّ أتمايل مع التراتيل البعيدة وسباق السماء، مشيت مستقيمًا أو مقوسًا على حافة دائرة، دائرة كبيرة كحلقة والقباب في المنتصف كرؤوس معمة بوشاح أخضر والمآذن أذرع ترتفع إلى أعلى بالدعاء، الرؤوس الخضراء والأذرع تتمايل كالعباد في حلقات الذكر.

"الله حيّ، الله، الله حيّ، الله"

القباب تدور في أفلاك حول مركز من نور كالشموس في دورانها حول مركز المجرة، نور في القلب شديد.

"الله حي"

الحروف نور، النسيم الذي تسلل من فتحتي أنفي
لرئتي نور. "حي، الله حي"

لَمْ لا أنضم إليهم، الذكر نبع يفيض وهنيئًا لمن اغترف
الغرفة بروحه وفؤاده.

"الله حي، الله، الله حي، الله"

مددت رجلي وملت بقلبي قبل جسدي وإذ بقبضة من
حديد تسحبني من ثوبي فهويت، مددت ذراعي إلى
السماء، هل من مُنَجِّ؟

"حي!"

(7)

كنت أعشق تلك الرحلة إلى بلدنا بريف الدقهلية في
 مواسم الحصاد لتَحصيل إيجار الأرض من مستأجرها
 العم مغاوري الشربيني، انتظرها من العام إلى العام
 بشغف طير حُرْمَ التحليق عام كامل، وحدي أرافق أبي
 في رحلته، أَصِرُّ على رغبتني كل مرة رغم مشقة السفر
 وطول الطريق، نستقل قطار الذهاب، أتثبت بالمقعد
 المجاور للنافذة فأتابع قطعان السحب القطنية التي
 ترعى في السماء الفسيحة، وفي الإياب أضع رأسي
 على فخذة مستسلمًا للنوم فيغطيني بمعطفه الصوفي
 ويضع كفه على ظهري لأنام، مشاعر جميلة لم أكن
 أشعر بها إلا في مواسم تحصيل الإيجار.

كنت بمجرد أن أصل إلى القرية أنطلق كالمجنون باحثًا
 عن أيمن ابن العم مغاوري لنلعب ويلاحق كل منا
 الآخر، أو نتسلق شجرة التوت التي تمتد فروعها حتى
 منتصف الترفة، أذكر في آخر زيارة لنا أنني تسابقت
 معه في الغيط لكن الغبي لم يقل لي إنه مغمور يُسقى،
 عدت يومها لأمي حاملاً طمي قيراط كامل في حذائي،

كانت مصيبة عظيمة بالنسبة إليها، هالها ما رأت وانتابها الذعر كأني أحمل لها فيروسًا وبائيًا، صفقة من أصابعها النحيفة الطويلة كانت كفيلة أن أحافظ على ثيابي في الأزمان اللاحقة من أي أوساخ قد تعلق بها، لم أذهب إلى الأرض مرة أخرى بعد حكم بات قاطعًا غير قابل للنقض من قاضي قضاة الأرض/ انشراح هانم، أمي العزيزة.

قال لي العم حمدان الخادم "النظافة من الإيمان، لا تحزن يا ولدي فأمرك تخاف عليك" يربت على قلبي بكلماته الدافئة، هو فقط من يحنو علي، ظننت في تلك المرحلة أن كل الخدم قد خلقوا من طينة واحدة، طينة بيضاء نقية تختلف عن الطينة التي خلق منها بقية البشر، كان عفيفي يشي بي كلما كسرت أو وسخت شيئًا أو أحدثت أي فوضى، لا يفوت فرصة واحدة، أمي السبب فقد كانت تشجعه على ذلك.

- لا يليق بابن العائلات العريقة المرموقة أن يتصرف كالهمج، ننفق عليك وأخيك مئات الجنيهات لتكونا باشوات، لا فوضويين كأبناء الشوارع!

شرح لي أبي بهدوء رصين فلسفتهم في الحياة كي
أومن بها، فهمتها لكني لم أومن بها أبدًا، لقد أحببت
طيبة العم حمدان وحميميته أكثر من حبي لهم جميعًا،
كانت دموعه مؤثرة وملهمة عندما تلقى من خلال
الهاتف نبأ نجاح ابنته الكبرى في الثانوية العامة
بمجموع درجات يؤهلها لكلية الطب، لم أرَ أبي أو أُمي
يدمعان يومًا، حتى عندما كُسرت رجلي اليسرى بسبب
قفزي من شرفة الطابق الأرضي فالتوت قدمي أسفل
مني، لم أشعر يومها إلا بغضب الجميع، حانقين، على
وجوههم علامات تنبأ بسوء العاقبة، فقط العم حمدان
حملني وجرى بي هلعًا يتمتم بكلمات تنسكب من بين
حروفها الدموع: "استر يا رب، يا رب سلم، شفاك الله
يا ولدي" وضعني على سرير متنقل في استقبال
المشفى، لقد تمنيت أن يكون هو والدي، وكان
إفصاحي بحقيقة شعوري تجاهه سببًا وحيدًا كافيًا
لطرده واختفائه من حياتنا إلى الأبد، اللعنة عليكم أيها
القساة المزيفون!

"هل فكرت في البحث عنه؟ ربما وددت لو تلقاه مرة أخرى وتعبر له عن امتنانك أو تشمله برعايتك عرفانًا بجميل صنعه".

لا لم أفكر، فحبي له كان السبب في حرمانى إياه، وقطع عيشه في نفس الوقت، كان الحب هو الجريمة، والإفصاح عنه هو الأداة، لذلك كنت أخاف أن أفصح مرة أخرى، أخاف أن يتأذى بسببي بشكلٍ لا أعلمه.

"أظن أنك أحببت أن تتركه رمزًا، قديسًا من الشهداء أو تمثالًا تقدم له كراهيتك لهم قربانًا، أو حائط مبكى، لم تشأ أن تضعه تحت تليسكوب الوعي بعدما كبرت وأصبحت أكثر قدرة على فهم الناس والحكم عليهم، رسمت حوله الهالة ولا تريد بعد كل هذه السنوات أن تبدها، وكذلك تريد أن تبقي عائلتك في منطقة الذنب حتى يكون لديك الدافع دائمًا لتحميلهم أسباب معاناتك، ورجمهم من حين إلى آخر إن لزم الأمر، أرى العُقد مثل قوالب الطوب تتراص واحدة تلو الأخرى وترتفع، تتشكل جدرانًا منيعة في أعماقك".

كثير من الأمور في بيتنا تعقد الإنسان، فمثلاً لم يكن فيه مكافآت للنجاح فهذا هو الطبيعي، التفوق واجب على الجميع، غير مقبول خسارة أي درجات، أن تكون نظيفاً ليست ميزة بل هي شيء طبيعي، والشاذ هو أي خطٍ قد يحدثه قلم حبر مارق على بشرتي، لا ثواب في بيتنا، إنه لا يعرف سوى لغة العقاب أو بمعنى أدق عقابي أنا.

"لماذا قلت عقابي أنا؟".

لأنهم لم يعاقبوا عفيفي أبداً.

"وهل كان يفعل ما يستحق العقاب؟".

لا أذكر، لكن قل لي.. من منا لا يفعل ما يستحق العقاب؟

كانت جدران غرفتي بيضاء، أتخيلها في الصيف تلال ثلج، وعند الضيق سماءً وعند العطش أنهار مياه باردة، وفي البرد ألحفة من زهرة القطن، وأحياناً سجنًا أريد أن أحطمه، فرسمت ذات ضجر لوحة لنافذة مشرعة

يطير خارجها سرب حمام، ورسمت لوحة لقارب صغير،
وأنا جالس أمد يدي إلى الماء، ورسمت أرجوحة من
جدائل الورد، نعم تعلمت الرسم لأن حياتي كانت سجنًا
محكمًا وأردت أن أرسم النوافذ ليدخل منها النور
والهواء، أردت أن استنشق الحياة.

(8)

في الساعة الواحدة ظهرًا سمعت صوت أنثى تتحدث،
أنثى ناضجة، وصوت أولاد يافعين، هنا على السطح؟!

"هل كان هذا من تلاعب الحشيش بعقلك؟".

لا، فأنا لم أتوهم بالنهار قط، الشمس مرت من النافذة
وتركزت على وجهي، وذبابة عطشى وقفت على
جبيني تمتص قطرة عرق تندت، كلما دفعتها عاودت
الوقوف حتى أيقظتني، لم أنم إلى هذا الوقت من
قبل، ترى أين منبهي القديم "أم زينب" لماذا لم تحضر
لتوقظني لنفطر معًا كعادتها؟

عندما فتحت الباب انشرح قلبي، المنطقة أمام غرفتي
والغرفة المجاورة مكنوسة بعناية ومرشوشة بالماء،
وعلى جانبي بابها صفيحتان كبيرتان بهما شجرتا
صبار، تجلس هناك سيدة ترتدي نقابًا أسود في نفس
موضع جلستي المعتاد مع أم زينب، وزينب واقفة
تراقب شيئًا لم أره بعد، انتبهت لي أم زينب فنادتني:

- تعال يا دكتور أعرفك بأم إسلام.

مررت بجوار زينب في سلام وهي على حالها منشغلة.

"أتدري يا دكتور أنني ألاحظ ترقق صوتك وميله للشجن كلما ذكرت اسم زينب".

لا أعرف ما دلالة هذا لكني أشعر أنها ضحية القدر الذي اختار لها أن تواجه هذا العالم الوحشي بإعاقة، كلانا وقع ضحية لاختيارات القدر، دائماً ما أضبط نفسي وأنا شارد أتأمل ملامحها وتصرفاتها ونظراتها العدوانية السريعة التنقل بين الأشياء.

"لا أعرف ما مدى دقة التشابه الذي ذكرته لكن على أي حال لنعود إلى أم زينب والسيدة المنتقبة".

نعم، رغم أن السيدة كانت مغطاة تماماً لكن النقاب لم يتمكن من حجب كل المعلومات والتفاصيل الهامة، لديها جسد قوي البنية يميل إلى الاعتدال أكثر من السمنة، وتملك صوتاً أنثوياً رقيقاً وعينين سوداوين واسعتين ذواتي بريق ينبض بالحياة والجرأة، فكرت

في الرجوع إلى غرفتي مرة أخرى حتى أعدل من هياأتي المهمة، أغسل شعري الآخذ في التناول، وأمشط لحيتي التي نمت سريعًا، لكن أم زينب سحبت من جانبها طبقًا من ألنيم مغطى بشالها، وألحت أن أشاركهما المجلس.

- أم إسلام استأجرت الغرفة الملاصقة لغرفتكم، جاءت مساء أمس، عندها إسلام وحبيلة، يلعبان هناك، انظر إليهما.

نظرث حيث تشير وتنظر زينب فإذ بولد يبدو في العاشرة من عمره وفتاة في الثامنة تقريبًا، كلاهما نحيف لم يرثا بنيان أمهما القوي، نادتهما أمهما فجاءا مهرولين فسلما علي، ما زالت زينب تراقبهما في صمت وحذر وتدور بوجهها وعينيها تتبعهما أينما ذهبا، جلست أكل والسيدة ذات النقاب تحدجني بنظرات غير مفهومة، كأنها تشاهد كائنًا عجيبًا، أخلتني فهربت نظراتي لتستقر في قعر الطبق، ثم ما لبثت أن انخرطت في ثرثرة متدفقة بنبرة صوت متهدجة، كأنها تستدر العطف، أخذت تسرد حكاية زوجها الذي مات

والجيران الذين آذوها، توجه الكلام لأم زينب وترميني
بنظرات جانبية كأنما تستطلع تأثير قصتها عليّ، فرغت
من حكايتها وتوقف لسانها واستقرت نظراتها الدائرية
على معصمي الأيسر تنظر إلى...

(9)

"تنظر إلى ماذا؟ لماذا سكت يا دكتور؟".

قل لي.. ألم أحك لك حكاية الساعة من قبل؟

"أي ساعة؟".

ساعتي الذهبية، هذه التي أرتديها، إنها إحدى أهم أبطال قصتي.

"أليس هذا غريبًا؟".

سأروي لك حكايتها وستحكم بنفسك.

"تفضل يا سيدي احك لي قصة الساعة".

قديمًا عندما كنت أدعي فهم الأشياء وأصوغ النظريات الفلسفية لتعريفها، قلت وأنا أنظر إلى لوحة الطائر المعصوب العينين المعلقة في مواجهة مكتبي بالكلية "إن الساعة ليست فقط تلك الكتلة الحديدية التي تحتوي على التروس وبعض المكونات الأخرى، بل هي

كلمة ذات دلالات ومفاهيم كثيرة ومختلفة وقد تكون متباينة أو متناقضة أحيانًا، أو مبهمة تحتاج إلى فلاسفة الأرض ليتباحثوا فيها ولن يصلوا إلى شيء يقيني، أو يتفقوا على شيء واحد كالعادة، فهي مثلًا الزمن السرمدي والزمن المؤقت والقيامة وفترة في تاريخ الإنسان أو الدول أو الحضارات، قد تكون ذهبية مثل عصور النهضة والازدهار وقد تكون رخيصة لا قيمة لها كعصور الاضمحلال، وأراها أيضًا تلك المحطات الهامة والفاصلة التي لا يمكن نسيانها، هي مواقيت متوجة بعناوين القصص، قصص ذات أثر كبير في الحياة، تتيح لك ميزة رؤية الأشياء من منظورين مختلفين يبدوان متناقضين لكنهما في حقيقة الأمر ضروريان لتكتمل بهما المعرفة.

لكن لسبب ما، لا أعرفه حتى الآن، توقفت جميع نظرياتى أمام هذه الساعة، سأحكي لك قصتها من البداية وكيف انتقلت لنا وكلي يقين بأنها متورطة بشكل ما في كل التغيرات التي طرأت على شخصيتي وحياتي.

"الساعة؟!".

نعم.

"من أين لك هذا اليقين؟".

للساعة حكاية حزينة تحمل في طياتها شعورًا بالقهر،
مُخَزَّنٌ فيها، من ذلك اليوم عندما خلعها التاجر من يده
والحسرة تملأ قلبه.

"هل تؤمن بالخرافات يا دكتور؟".

لا طبعًا، لكن هناك أشياء كثيرة تتخطى حدود إدراكنا،
منطقنا البسيط الذي لا يستطيع التوغل من خلال
القشرة الصلبة الظاهرة ليغوص في عوالم الغيب، إنها
أمور غير ملموسة ولا تستطيع أن تسوق الأدلة عليها،
لكنها تلامس ذلك اليقين الكامن في اللاوعي.

"يبدو أنني سأسمع أسطورة من الأساطير الغامضة".

نعم أسطورة لكنها حقيقية، لقد أخذها والدي من تاجر
معسر كان مديونًا له وأصبح معدومًا لم يتبقَّ له شيء

يخسره سوى ساعته الذهبية، أخذها منه بلا أي شفقة فهذا قانون السوق "لا رحمة للمفلسين"، عاد بها إلى البيت وفي عينيه نظرات عجيبة يصعب تفسيرها تغلب عليها الخيبة، وتتماس معها في لحظات أخرى اختلاجات التشفي، أخرج أبي الساعة من جيبه، وقال لأمي:

- هذه كل ما أخذته منه وآخر ما تبقى لديه.

وضعها بين يديها وجلس يراقبها، نظرت إلى الساعة تتجرع خيبة الأمل وزفرت في غيظ زفرةً بألف ألف وقالت:

- ساعة لا قيمة لها، والدّين خمسون ألفاً.

اللعنة على السوق وقوانينه وأمواله الملوثة بالحسرات وخراب البيوت، اللعنة على ذلك اليوم الذي يرى فيه الإنسان كل من حوله يسعى للاستفادة من أزماته لأقصى درجة وبلا أي شفقة أو رحمة، اللعنة على الضباع بكل أشكالها الحيوانية والبشرية، قل لي.. هل

شاهدت الضباع وهي تنتزع خصية الثور الواقف على قدميه في الغابة؟

"هاها، الحقيقة لم أمر من هناك يومًا هاها".

دعني أشرح لك ذلك الحدث ولنتأمله قليلًا.

"تفضل".

يقترّب الضبع بحذر شديد، في هدوء تام، كاتمًا لهاثه، ثم ينقض في غفلة من الثور فينتزع خصيته بقضمة واحدة، في هذه اللحظة تمامًا تبدأ النهاية، ولا سبيل حينها لإيقاف التداعي، تشلّ حركة ساقيه الخلفيتين ويعجز عن الهرب أو حتى الالتفاف ليزود عن نفسه، تحتشد الضباع الانتهازية لتبدأ في سحب الأمعاء من نقطة الثغرة التي أحدثها قاضم الخصيتين، يبدو الثور بحالة جيدة، قوي، سليم من الخارج تمامًا، لكن يتم تفريغه من الداخل.

"آه فهمت ما تريد الإشارة إليه لكن دعنا نرجع إلى الساعة مرة أخرى".

نعم... لقد أسرني بريقها وجمالها من الوهلة الأولى،
فهي رغم قدمها تحتفظ برونقها، شعرت بالقشعريرة
تسري في بدني وأنا أتابع بريقها الأصفر النابض، تبدو
كنجم بعيد يضيء في مدى ليل سرمدي الظلام،
شعرت بقوة جذبها وسمعتها تنادينني، دقائقها الدقيقة
تخلت روحي وانسجمت مع نبضاتي، والغموض
الساكن دائماً في المجهول.

طلبتها من أبي في إحدى زياراتي العائلية وكان
مشغولاً في حديث هاتفي، أخرجها من درج المكتب
ووضعها فوقه وأشاح بيده بما يعني "خذها واذهب
فأنا مشغول وهي لا تعني لي شيئاً" نعم هي لا تعني له
أي شيء هي فقط تعني انتهاء عصر تاجرٍ كان يملأ
السوق ضجيجاً وقلقاً.

"قصة مؤثرة فعلاً لكني أرى أنك تبالغ في تحميلها
مسؤولية تغيير حياتك، وعظمت من قدرها بلا مبرر
منطقي، أرى أن الفكرة كلها خرافية ولا تتناسب مع
عقليتك العلمية والثقافية التي تقوم على فكرة

التحليل المنطقي للأحداث، ومن ناحية أخرى لم تكن أنت من أخذها من التاجر حتى تنصب لعنتها عليك".

لا، هي متورطة بلا شك، فمنذ أخذها أبي والمصائب تنهال علينا تباغًا، فبعد أسبوع واحد من دخولها بيتنا تم سحب الأرض التي خصصت له وقد أنفق على استصلاحها جل ما يملك، لتصاب أُمي على أثر ذلك بالجلطة الأولى ثم توالى عليها الأزمات الصحية التي قضت عليها في خلال شهور قليلة، وبعدها أخذتها منه بيومين طرأت فكرة تجديد الشقة بشكل فجائي على عقل سهير ليجمعني القدر بعثمان النقاش.

"عثمان النقاش؟! هل تعارفك إلى النقاش شيء ذو قيمة لتعتبره محطةً تذكّر في هذا السياق؟".

انتظر من فضلك ولا تسبق الأحداث، فعند نقطة التعارف بعثمان خط يفصل بين زمانين، موتٌ لصالح القديم وميلاد الجديد.

"فسر لي هذه الأحجية أرجوك، لقد فهمت أحجية الساعة بصعوبة والآن ترميني بأحجية جديدة أكثر غموضًا وتعقيدًا".

كانت الثامنة تمامًا، أذكر هذا جيدًا، وما أدراك ما الثامنة، فتلك الساعة تعني نقطة في التاريخ حيث تولد إحدى البدايات، وتبدأ بعض النهايات.

طلبت مني زوجتي أن أفرغ عدة أيام لأتابع أعمال طلاء شقتنا، كانت الفكرة كلها مزعجة بالنسبة إليّ فطلاء الشقة يعني أن تنقلب الدنيا وتحل الفوضى، ويأتي أناس أغراب يقضون ساعات طويلة معنا وعدة أيام متتالية، تحدثت إلى عثمان من خلال الهاتف وأخبرني أنه سيأتي الساعة السادسة والنصف مساءً ليطلع على الشقة ويتفق على أجره والخامات المطلوبة، بدلت ثيابي متأهبًا للقاءه، نظرت إلى ساعتني فوجدتها قد تخطت الموعد المتفق عليه، قلت إنها بلا شك بداية مبكرة للفوضى!

منذ ارتديت الساعة الذهبية وأنا مصاب بهاجس الأحداث المقرونة بالساعات التامة، وكان الاقتران الأول عندما سمعت صوت جرس الباب وساعة الحائط تدق الثامنة تمامًا، وضعت دائرة كبيرة كإطار للحدث والتاريخ معًا ولديّ يقين تام أن هذه اللحظة ستكون فارقة بشكل ما، لكن شعرت بنوع من السخف والسخرية من نفسي.. فما الفارق الذي قد يحدثه نقاش؟

مدّ لي يده بالمصافحة لكنني تجاهلته وأدّرت له ظهري، نهّرتة على تأخره دون أن أنظر إليه.

- إنه فرق التوقيت يا دكتور بين جمهورية بولاق ومملكة المهندسين هاهاها.

تجاوزت الأمر على أي حال فليس من المنتظر من صنايعي قادم من بيئة عشوائية أن يكون دقيقًا في مواعيده ويعلم قيمة الوقت.

كنت أريد أن أكسر رتابة الحياة بألوان عصرية ونقوش حديثة بعدة ألوان مختلفة وغير متجانسة، كانت هذه بادرة ثورة، إرهابات تمرد لم يعلن نفسه بعد، لكن سهير تشاورت مع أمي الخبيرة الفنية الكلاسيكية وكانت في أيامها الأخيرة واتفقتا على رأي آخر، حتى وهي على فراش الموت لا تريد أن تفوت الفرصة بصبغ حياتي بصبغتها الخاصة.

ضحك عثمان بقوة وفتح فمه حتى ظهرت الأسنان المتهاكة البنية والسوداء، الأمر بالنسبة إليه بسيط وينتهي بجملة فكاهية، لكنه بالنسبة إليّ يمثل رمزاً للفوضى وهذا ما لم أكن أسمح به في بيتي قط، الزمن عند البسطاء والجهلاء لا يعني شيئاً فحياتهم لا قيمة لها وطموحاتهم محدودة، أحداث حياتهم وذكرياتهم عبارة عن الكثير من الخيبات والإنجازات الساذجة التي لا قيمة لها، فوضى البسطاء مرض مُعدٍ وقد ينتشر بين الناس بسهولة، كنت أظن أنني أكثر قوة وتعقيداً حتى جاء عثمان.

سمعت جرس الباب يرن مع دقائق الساعة، اللعنة على الساعة الثامنة في كل زمان وفي كل ساعات الأرض.

- ما كل هذا التأخير يا أسطى ألا تحترم المواعيد؟

كنت متجهماً والغیظ يدفعني دفعاً إلى عقابه بشكل ما، أو طرده والبحث عن نقاش آخر، لكنني أردت أن أنهي هذا الأمر بأسرع وقت، فرد بذلك الرد الأبله وضحك بقوة كأنه أطلق نكتة لطيفة ونظر إلي متوقعًا إعجابي بتفاهته، لكنني لم أطق النظر إليه.

حضرت سهير لتشرح له ما تريد:

- أريد أن يكون الطلاء لأكيه مطفي بلون سن الفيل، هذا لجميع الحوائط، أما الأعمدة فأريدها باللون العسلي، والسقف فسيكون أبيض.

تظن أُمي أن هذه الألوان مع الإضاءة الصفراء الخافتة سوف يعطي للمكان انطباعًا كلاسيكيًا أنيقًا وساحرًا كأنه متحف وسوف يحوّل قطع الأثاث البنية والنبذية إلى تحف فنية.

في الثامنة تمامًا انتقل إليّ الفيروس وأصابني متلازمة الفوضى.

بدأ العمل بالشقة بعدها بيومين بالصباح، كان الأسطى وابناه هاني وجمال أبطال الملحمة العبثية، يتكلمون دائمًا وغالبًا في نفس الوقت تقريبًا ومسجل الأغاني لا يتوقف دقيقة عن إصدار أصوات مغنيين شعبيين، ورغم كل هذا التداخل في الأصوات العالية التي كادت تجنني فإن كلاً منهم يسمع الآخر بوضوح ويفهمه بيسر والأمور تسير بنجاح، أمكث قريبًا منهم صامتًا أراقبهم وكلي فضول، كيف يحدث هذا؟ الأسئلة تتكرر والدهشة نفس الدهشة لا تتوقف، هناك قوة ما جذبتني إليهم لم أستطع تفسيرها بادئ الأمر، الأسطى عثمان الدائم الضحك وإطلاق النكات، حكى لي قصة حياته كلها تقريبًا، بداية من فشله في التعليم وحتى تعلمه المهنة على يد أحد الجيران حتى أصبح أسطى مميزًا يتهافت عليه الزبائن، كانت علاقته بولديه علاقة مدهشة فكان يشتم من يخطئ بأمه ولا يتورع أن يصفعه أو يلطمه على قفاه، ظننته يتلذذ بذلك، كان

هاني الصغير يبكي كلما ضُربَ ثم ينسى الأمر برمته
خلال دقائق قليلة، أما جمال فكان نادر الخطأ.

- لا بد أن يتعلما مني قبل أن تعلمهما الحياة ويتحملا
ضرباتي قبل أن تضربهما الأيادي الغريبة، فالناس
والمحن يضربون بقسوة.

تحدث كأنه يرد على تساؤلات تدور في عقلي، ويفك
طلاسم لغز عويص أعجز عن حله.

"لم أجد حتى الآن في قصة النقاش ما يستدعي
الدهشة وهذه الحالة من النشوة والانجذاب".

هاهاها هذا ما كان سيقودني إلى الجنون لكنني وجدت
الإجابة لاحقًا، أتعلم المثل الذي يقول: فاقد الشيء لا
يعطيه؟

"بالتأكيد أعرفه".

هذا المثل مناقض للحقيقة تمامًا، بل هو الضلال بعينه،
إن كل من حرم من شيء تصبح كل أحلامه ترجمة

لرغبته في تعويض النقص والحرمان، الجائع يحلم بالطعام وإذا شبع يومًا فسيكون حريصًا على تأمين مخزون طعام يكفيه لفترات طويلة إن استطاع، المشرّد يحلم بالبيت، الغريب يحلم بالوطن، عثمان يحلم بعائلة يشملها بالحب والعطف والانسجام والتآلف، كما حلمت بهذا عندما أحببت سماح، حلمت بيت مشرع النوافذ، يتحرك فيه النسيم بحرية، بحبيبة جامحة حرة القلب واللسان، لا تحسب ألف حساب لكل كلمة قبل أن تنطقها، تقول لي يا حبيبي لا يا دكتور، عثمان نجح فيما فشلت فيه، وظهر نجاحه جليًا في حالة التفاهم والانسجام بينه وبين جمال الذي يفهمه من النظرة والإماعة، فيجري لإحضار الفرشاة، أو علب الدهان، أو تثبيت الأشرطة اللاصقة التي تحدد حواف الدهان أو التي تحفظ الأزرار الكهربائية ومقابض الأبواب.

"جميل جدًا لقد وصلت إليّ وجهة نظرك لكن لم نصل بعد لتلك اللحظة الفارقة التي جعلت من عثمان بطلاً خرافيًا لقصتك".

آه صحيح، بعد الغداء في أحد الأيام رأيته يتسلل إلى الشرفة ويخرج سيجارة ملفوفة بطريقة يدوية وقام بإشعالها ثم شرع في تدخينها بتلذذ عجيب، شيء ما جعلني أتحسب كالتمساح حتى وقفت خلفه، جذبتني الرائحة.

- ما هذه السيجارة يا رئيس؟

ارتبك وكاد يطفئها في كفه ورد متلعثمًا:

- اعذرني يا دكتور فأسي غير متزن واحتجت إلى تدخين سيجارة حشيش.

اخترقت كلمة حشيش أذني وشعرت للوهلة الأولى باستياء رهيب، حشيش في بيتي، بعد بضعة وعشرين عامًا لم تدخل سيجارة عادية بيتي يُدخن الحشيش، كظمت غيظي وقلت لنفسني، هنا يجيء دور العالم الباحث، لماذا لا أجادله وأحاول إحداث تغير في حياة واحد بائس مثله فحدثته بهدوء كأني حكيم الزمان.

- لماذا لا تقلع عنها؟

- ولماذا أقلع، وهي المزاج واللذة كلها؟

حكى لي كثيرًا عن عشقه للحشيش والخمر وتغزل
فيهما كمن يتغزل في عشيقاته التامات الحسن
المكتملات المفاتن.

- عندما لا تكون هناك أي متعة في حياتك إلا
السيجارة والخمر، عندما لا تشعر بالأمان إلا وأنت
مُخدر، ولا تشعر بأنك سلطان زمانك إلا بها، ولا تنسى
همومك اليومية والغلاء المتزايد والحياة غير الآدمية
في الحارات الشعبية إلا بها. لا بد أن تكون ذا عزيمة
 وإرادة.

أجادله وأنصحه وأنا كرجل يقف على الشاطئ يتحدث
بالعقل والمنطق إلى غريق يقاوم عناق القاع، هكذا
يراني غير واقعي، فيرد علي:

- من يذو في الماء ليس كمن يذو في النار، الأمر ليس
بهذه السهولة، لا بد أن تجرب قبل أن تعطي النصائح
للناس.

أرأيت كيف قد تقتلك قوة الضعفاء ويهزمك منطق البسطاء، أفتش خبايا منطقي المزدحم بالمكتبات، فأجده خاويًا. ها هي المياه وها هو الغطاس.

وتراهنّا بأن أدمن الخمر والحشيش عدة أشهر وأن أثبت له قوة إرادتي وأناي سأتوقف عنهما تمامًا عندما أقرر هذا، مر على هذا الرهان أكثر من سنتين ونصف وقد أصبحت مدمنًا من الدرجة الأولى ولم أفكر مرة في الإقلاع.

"أظن يا سيدي أنك رغبت في الهزيمة بمحض إرادتك".

الهزيمة! في ماذا؟

"في الجدل وفي الرهان".

ولماذا أفعل هذا؟

"لأنك تريد هدم الجدران، القوانين، القواعد، وبالفعل نجحت بقوة في هدم كل شيء".

ربما.

"قل لي كيف تعاملت زوجتك الدكتورة سهير مع التغيرات التي طرأت عليك حينها؟".

كانت تقول لي لقد أصابتك لعنة النقاش، أطرقت رأسي أرضاً وتبدلت الأدوار في عقلي، فقد آمنت بقوة منطق البسطاء "عندما لا تكون في هذه الحياة أي متعة إلا السيجارة والكأس" إن صدى صوت عثمان يتردد بخوائي كالوطاويط.

"إن فكرة التحدي كانت مجرد ذريعة لتتحدى في الشطط وتحاول إضفاء شيء من المنطقية العلمية على تهورك، لكن قل لي ما مدى حماس ذلك الرجل للرهان؟ أراه شيطاناً يحاول الإغواء ويريد أن يخرج لسانه لعلمك وطبقتك الراقية كلها، سيحكي في جلسات الحشيش بكل فخر ما فعله بك كأهم بطولة له على الإطلاق وأعظم إنجازاته، سيقول: أنا تلاعبت بدكتور يدرّس بالجامعة ويعيش في المهندسين وهدمت حياته".

لا أظن هذا، ففكرة التحدي بالنسبة إليه كانت مجرد لعبة، مثل دور دومينو أو عشرة طاولة على المقهى، الفكرة كلها لا تعنيه ولم يشغل باله أن يثبت لي شيئاً، ربما أردت أن أثبت لنفسي أنني قادر وهو ضعيف، فأنا مثقف ودكتور جامعي متخصص وقادر على الفعل والتأثير والتغيير، لكنه تراجع في رهانه عندما شاهد انقلاب الهزل إلى جد وإني أتمادى في تهوري، حاول أكثر من مرة أن ينهاني عن الاستمرار في هذا الطريق، وحاول كثيراً أن يتهرب مني حتى لا يُخْضِر لي الخمر والحشيش، أحببته وأحببت كل ما يقوم به، كان رجلاً أميناً طيباً ذا شهامة، إذا تكلم بجدية أصبح حكيماً، وإذا قطع وعداً لا يخلفه، وجدت حميمية كبيرة بينه وبين أدواته وملابس العمل التي تحمل طبقات عديدة من أنواع الدهانات وألوانها، يأكل ورائحة التمر أو النفط تلوث الطعام، ويدها مليئتان بكل صنوف التلوث، قبل أن أراه كنت أظن أن مثل هذه الأوساخ قد تقتل إنساناً في طرفة عين، لقد حطم أحد أصنامي بالتجربة العملية، فمنذ جئت إلى هذه الحياة وكل شيء نظيف مرتب على الدوام، أبي المهنّدم وأمي

الأنيقة التي لا تخلع فستانها إلا وقت النوم، كل شيء في بيتنا لامع كأنه لم يمس أبدًا، قطع الأثاث تعامل كالتحف، قد أوبّخ من أجلها فأرى الشماتة بادية في بريقها، الوضع مع عثمان كان مختلفًا، فهناك علاقة متداخلة ذابت فيها الفواصل والحدود، ملابسه وأدواته حتى الجدران التي يقوم بطلائها.

كنت أرمي السيجارة له وأخرج مسرعًا عندما أسمع صوت سلسلة مفاتيحها تعزف سيمفونية الوصول، أهرول فألقاها عند الباب وقبل أن تخلع حذاءها ولسان حالي يقول لها "انظري يا عزيزتي أنا بعيد تمامًا عن الأوساخ، أنا مجرد رقيب عليهم حتى لا يفسدوا الأثاث أو يسرقوا شيئًا من المنزل".

"انظري يا عزيزتي؟! هاها كأنك تراسل مدير جامعة أجنبية، أستشعر دائمًا في حديثك عنها الكثير من التوقير والقليل من العاطفة كأنها زميلة لك في العمل وليست زوجتك".

سهير هي اختيار أُمي المثالي من وجهة نظرها، اختيار السماء، النظيفون للنظيفات، المتفوقون للمتفوقات، أولاد العائلات المرموقة لبنات العائلات، فهي من بيت مشابه لبيتنا، ونشأت على مثل ما تربينا عليه، لكن على أي حال سهير كانت أقل قسوة وجمودًا من أُمي.

"هل هذه فلسفة دعم وتقوية العائلات ببعضها، شبكة علاقات قوية تمنع السقوط؟".

ظننت أنهما أو أُمي على الأقل كانت تسعى لفكرة الإنسان الكامل بمصاهرة العناصر المتفوقة لإنجاب جيل من العباقرة، قل لي هل سمعت عن نيتشه؟

"سمعت أنه فيلسوف مجنون لكني لم أقرأ له شيئًا أو عنه"، نيتشه هذا صاحب فلسفة تدعو إلى القوة والإنسان الأعلى، وقد شغف به كل مريض بالأنا، وما النازية أو الفاشية إلا نتاجًا عمليًا لأفكاره، كانت أُمي مصابة بسعار فلسفته، لكن الأمر مشوش ومربك، فما مفهوم القوة؟ المسألة كلها نسبية تمامًا فهناك قوة المال وقوة المناصب والقوة البدنية وقوة العلم والقوة

الدينية والقوة الأخلاقية، والكثير من هذه العناصر لا تنتقل بحال من الأحوال عن طريق الوراثة علاوة على تغير موازين القوة وأشكالها من عصر إلى عصر، كما قلت لك المسألة نسبية تمامًا ومعقدة جدًا وتحتاج إلى الاستفاضة في الحديث عنها.

(10)

قمت أفتش حطام الأثاث على السطح حتى وجدت
 كسرة مرآة منزوية، حاولت تمشيّط شعري المتلبّد دون
 جدوى، قررت أن أستحم بعدما هرولت إليّ كرة حبيبة
 فجاءت تأخذها فأمسكت أنفها مستاءة من رائحتي،
 حينها تمنيت أن تنشق الأرض لتبلعني، ذهبت إلى
 غرفتي على عجل، وبدأت في إزالة الأوساخ، وكان هذا
 شعور عظيم جدًّا عندما استبدل جسدي برائحة العرق
 المقيّئة.. رائحة الصابون العطرية، وبعد أسبوع أو أكثر
 طلبت مني أم إسلام أن أعطيها ثيابي المتسخة
 لتغسلها.

وما زلتُ كالْمسحور أذهب بنظراتي خلف زينب فأُتبعها
 أينما ذهبت وهي على حالها ترفض اللعب مع الطفلين
 وتكتفي بالمراقبة، يبدو أننا حلقتان في سلسلة طويلة،
 ترى من يقف خلف الجدران متخفيًا يراقبني، ومن يا
 ترى يراقبه، لكنني لاحظت تآكل المسافة بينها وبينهما،
 تحاول أن تقترب كل يوم شبرًا، كما أحاول غير يائس
 التقرب إليها كل يوم بالبيضة، لم تعد تخطفها بنفس

السرعة، كنت في السابق أشعر بأظافرها كأنها نصال تخمش راحتي، أما الآن تملس أناملها برفق وهي تسحب البيضة، فشلت جميع محاولات الطفلين الجميلين في استدراجها لتكون ثالثتهما، لكني كنت على يقين أن في محاولة قادمة قريبة جدًا ستنضم إليهما، وتقترب مني دون خوف.

"يدهشني دائمًا حديثك عن زينب وتهدج صوتك وتغير حالك كلما ذكرتها".

إنها فقط تجعلني ساخطًا في أعماق نفسي على القدر.
"الله تقصد؟!"

أرجوك لا تقحم الله في كل حديث، قلت لك إنني عندما أتكلم عن القدر إنما أقصد الحظ العاثر ليس إلا.

"آه تذكرت اعذرني".

كلما تأملتتها هجمت على عقلي التساؤلات.

"مثل ماذا؟".

مثلاً: إذا كان الإنسان يخوض الحياة كامتحان، فما هو امتحانها؟ وهل تساوت الفرص لجميع الممتحنين؟ لماذا هي معوقة قبيحة همجية في حين أن حبيبة بنت أم إسلام جميلة مهندمة نظيفة؟ وتتميز رضوى بنت أخي عفيفي بوفرة في الصحة والجمال والمال؟ وأتساءل كثيراً عن مصيرها عندما تكبر، أو عندما تموت مربيتها، كيف ستعيش؟ هل سيرحمها القدر ويمنحها نهاية سعيدة؟ ما هي النهاية السعيدة المتوقعة لواحدة مثلها؟

"حالتها تربك عقلك".

لا أنكر هذا، ما زالت صورتها وهي تراقب الطفلين عالقة في عقلي حتى الآن، كانت أم زينب في هذا اليوم نائمة كعادتها عصرًا بعد الإفطار وشرب الشاي، نامت متكورة كالجنين تضع الشال الأسود الشفاف على وجهها حتى تتجنب مضايقات الذباب، كنت قد أدمنت الجلوس أمام غرفتها في ذلك التوقيت من النهار ومشاهدة لعب الطفلين وشجارهما، ومراقبة أم إسلام التي لم أكن أعرف لها اسمًا بعد، كانت تشر

كمي جلبابها أثناء الغسيل فكنت أسترُق النظر لذراعيها البضتين، ثم إلى صدرها المكتنز إذا ما التصق به الجلباب المبتل بعد عصر الثياب.

أنهت غسيلها وبدأت رائحة الطعام المسبك تتسرب من داخل غرفتها، لتنشر فتنها في السطح كله، فدخلت ونادت طفليها ثم أرسلت لي مع إسلام طبقًا مملوءًا بالويكا الصعيدي ورغيفي خبز سُخْنين، كما أرسلت طبقًا مثله لأم زينب، انتهت مرحلة الغداء ثم وجدتها للمرة الأولى تخرج لتجلس أمام غرفتها، قلبت دلوًا على وجهه فجلست على قاعدته وأخذت تسبّح على عُقل أصابعها، ثم قامت فدخلت وتحدثت من داخل غرفتها بصوت عالٍ:

- كم ملعقة سكر يا دكتور؟

- مضبوط لو سمحت، أو لا داعي، أرجوك، لا تتعبي نفسك.

عادت تحمل كوبي الشاي وناولتني أحدهما بلطف ودار
بيننا الحديث الأول:

- هل صحيح ما قالت أم زينب إنك كنت تدرّس
بالجامعة؟

- نعم صحيح.

- وما رماك على هذا المخروب؟

- ظروف.

- أي ظروف هذه يا دكتور صالح؟ ألا ترى في المرأة
عينيك؟ كم هي ذابلة! ألا تتجنب رفقاء السوء، ألا
تتقي الله في نفسك وبدنك ومالك!

تعجبت من جرأتها، كيف تخطت جميع الحدود
ونسفت المسافات؟ هل كوب الشاي وطبق الويكا
أعطاهما الحق في هذا التجاسر؟ أطرقت عيني أرضاً
وتعثرت الكلمات في فمي، لأنني لم أتوقع هذا الهجوم
المباغت:

- لكل إنسان ظروفه الخاصة يا أم إسلام.

- اعذرني يا دكتور على كلامي، أعلم أنني أتجاوز حدودي، لكني والله أخشى على ولديّ منك، يستيقظون على ضجيجك وهذيانك قبل الفجر، والابتهالات تتهاذى من المآذن، أتعلم أنني في يومي الأول هنا رأيتك تسير على السور فاردًا ذراعيك تتمايل سكران فجريت إليك مسرعة وسحبتك من ثيابك وجررتك حتى أدخلتك في غرفتك، هل تريد أن تلقى الله وأنت على معصيتك؟ ألا تستحي من الله؟

كانت هادرة، رمتني بفيض من الكلمات الموجهة التي تحمل الكثير من الدلالات، الغضب والقسوة والزجر والتأنيب والعتاب والنصح و... و... ومع ذلك لا أنكر أن كل كلمة كانت تخرج من فمها تجعلها تزداد علوًا وقيمة في نظري وأنا أزداد ضالة، كما راقطني هذه الحالة من الفوضى الاجتماعية، عدم المنطقية في مسار العلاقات، فسكت أمامها كتلميذ اعترف ضمنيًا بذنبه وهي لم تنتظر مني ردًا، فقط استأنفت تسدد وخزها إلى ضميري:

- ألا تذهب إلى طبيب يعالجك، والله إن هذه الحياة لا تليق بك، أتمنى أن تكون قدوة يحتذى بها أولادي، لا سكيرًا حشاشًا لا تدرك أفعالك.

رغم قسوتها هذه إلا أنها مسّت قلبي، إنها صادقة جدًا، مليئة بالأمومة، ومنطقية في طرحها وخوفها على أطفالها.

"هل تسعى إليها تحرضك الغريزة.. أم تمعن في السير بالمقلوب لتحطم صالح القديم؟ أظن التودد إلى سيدة منتقبة لا يناسبك، أعرف أنك تميل إلى الفكر الوجودي".

من أخبرك بهذا؟!

"عرفت من بعض طلابك وزملائك بالجامعة".

يبدو أن مفهومك عن الفلسفة الوجودية محدود ويتسم بالسطحية، فإيماني بالفلسفة الوجودية ينحصر في فكرة أن يكون الإنسان حرًا بشكل كامل ومطلق في تصرفاته واختياراته وقراراته، ولا أذهب

إلى الشطط والتعارض مع القيم الدينية، ولا أميل إلى المدرسة الوجودية الإلحادية التي اعتنقها جان بول سارتر، على أي حال ما زال هناك أحاديث وقصص ستغير مسار أفكارك.

"إذا كنت تظن أن الإنسان حر بشكل كامل ومطلق في تصرفاته فمن المؤكد أن هذا سبب رئيس للارتباك الذي يصيبك بسبب حالة زينب، أظن أن لديك إشكالية فلسفية هنا، فهذه الحالة لا بد أن تؤرق منطق فلسفتك الوجودية وربما تهدمها".

ربما يكون تحليلك صائبًا هذا المرة ولكن دعني أكمل حتى لا أفقد ترتيب الأحداث.

"أعذرني لكثرة مقاطعتي لحديثك، تفضل أكمل".

أثناء تلك الجلسة مع أم إسلام مر جعفر وألقى نظرة فبرقت عينه السوداء ثم ارتسمت على شفتيه بسمة مقبلة لم أفهم مغزاها، يحمل ذات الكيس الأسود الحاوي لزجاجات الخمر، حدجته المنتقبة بنظرة حقد

جلية اتسعت لها عينيها ضعف اتساعها الفطري وقالت لي:

- كيف تطيق مصاحبة هذا الضال؟ والله إن أمرك لعجيب حقًا!

ماذا أقول لها وهل ستتفهم القاضية الملائكية دفوع الشيطان؟ والله لولا السكر ما تحملته ساعة واحدة، ولكن لا أنكر أن هذا السؤال راودني من قبل، لماذا يتحمله نعمان وسعيد؟ أم إنه فرض نفسه عليهما؟

كانت السيدة التي لا تتوقف عن الكلام مصرة على أن تهديني إلى الطريق المستقيم لكن مع الأسف يا سيدتي الطيبة سأفوّت عليك تلك الفرصة العظيمة فأنا كنت على الطريق المستقيم بالفعل وتخلّيت عنه بكامل إرادتي، رغبةً مني في التحليق وكسر قوانين الجاذبية وخطوة الأرض.

ما إن اختفى الدميم حتى ظهر نعمان وسعيد يقهقهان ويسعلان ويثيران ضجيجًا، ألقى الشيخ المزعوم

السلام ثم ناداني بنظرة وإماعة، وكانت هذه أول مرة أشعر بأن رجلي قد شلتا، ليس اقتناعًا بكلامها ولكن من شدة الخجل، قمت ولم أنظر إليها فلن أحتمل مزيدًا من تأنيبها، دلفتُ أسحب قدمي وكأني عبد مغلول بسلاسل ويسحب أثقالًا حديدية، رأيته بعين الخيال تحدجني وتبصق على أطراف ظلي الذي ينسحب من بين يديها.

"قل لي: هل تغير رأيك في الشيخ نعمان والأمين سعيد بعدما تعرفت عليهما جيدًا؟".

أظن أن أكثر إنسان أربكني وحيرني في هذه القصة كلها كان سعيد، كثيرًا ما كنت أرى في تصرفاته علامات الشهامة والرجولة، دائم الجد، قليل الكلام والهزل، متزوج ويسكن بالطابق الثاني من البيت المجاور لنا، ولديه بنتان، محبوبٌ من أهل الحارة وكثيرًا ما يخدمهم كلما استطاع، لكن ما يدفع الجميع إلى الدهشة والاستياء هو حمايته لجعفر وتركه الشمامين أحرارًا يرتعون بالحارة، أراه مختلفًا تمامًا عن الشيخ نعمان، فالشيخ نعمان ذو شخصية باهتة لا

ملاحح ولا طعم لها، يقول إنه شيخ ولم أره إلا عاصيًا
تقطعت به سبل الفلاح.

"جيد لنرجع لجلستكم مرة أخرى، ماذا دار فيها؟
الوقت يسرقنا".

دفعت نصيبي من ثمن الكيف وجلست بعد الحساب
ليس كما أجلس كل مرة، لم أكن مطمئنًا.

"لماذا؟!".

لا أعلم يقينًا، داهمتني حالة من الحزن والشجن، ربما
حديث أم إسلام القوي المنطقي، لقد بعثرت هذه المرأة
جميع أوراقى وهدمت تصوراتى لجدوى المرحلة
الراهنة، يبدو أن ما هربت منه في عمارة المهندسين
سيلاحقني في كل مكان، لا أطيق نظرة الاحتقار
والشعور بالضالة أمام أي إنسان، أو أن تكون تصرفاتي
موضع النقد والتحليل فأنا أريد أن أظل ذلك الطفل
العابث الذي اختار الركن النائي المظلم من الغرفة،
بعيدًا عن أعين الجميع ليحطم ألعابه بتلذذ عجيب، لقد

خسرت كل شيء ولم أجن من مغامرتي إلا مزيدًا من التعاسة، باغتتني فيوض من الأسى والهم وتلقت قلبي الشجون، شعرت بحنين جارف لشيء ما، لا أتصور شكله أو ماهيته، هو فقط شيء يحتويني، يبت في قلبي السكينة، نعم السكينة، إنها أحد أحلامي بل أهمها، ظننت يومًا وأنا متوهم أن الغياب عن الوعي سوف يمنحني إياها ولو مؤقتًا، لكني لم أذقها قط في عالم الواقع كنت أستدعيها قديمًا من عالم الخيال، أرسم لوحات مليئة بالحب ودفء الأسرة وصوت النار في المدفأة في الشتاء، كل هذه الصور والأحاسيس داهمتني مرة واحدة، في الدقائق القليلة الأخيرة وقبل أن أقرر أن أهدر وعيي في بلاط هذا المجلس، نظرت إلى الثلة الهائمة في سحب الدخان، هل هذا ما كنت أريد؟ هل هذه هي الحال التي أردت الوصول إليها؟ أين السعادة المرجوة؟ أين الحرية والهواء النظيف والانطلاق؟ الحقيقة أنني لم أطق التماذي في التفكير، لم أحتمل تأنيب الضمير أو فكرة أنني ضيعت كل شيء بلا مقابل يستحق، حاولت إخراسها، كتم أنفاسها وخنقها، تبديدها من خيالي، حدثت نفسي زاجرًا لها:

"انس يا صالح، تجرّع خمرك يا حكيم الزمان تجرّع، اسحب النفس، املاً قلبك بالدخان، املاً عقلك بالدخان، املاً عينيك، املاً، املاً" أخذت أدفع نفسي دفعًا إلى التيه والضياح حتى تحللت تمامًا من بدني الثقيل، تركته مُلقًى على الأرض باليًا مغشيًا عليه، جثة هامة لا روح فيها.

"يبدو أن أم إسلام نجحت في نبش ما كنت تحاول دفنه".

نعم، هذا ما حدث حقًا، أم إسلام جعلت تلك السهرة حالة تدور بين قوسين، كانت هي القوسين فقد وضعت أول قوس قبل السهرة بكلامها وأنهت الأمر بقوسٍ آخرها.

"كيف هذا؟!".

عندما انتهت السهرة قمت عائداً إلى الغرفة أغني، أبحث عن الغرفة لكن لا أجدها، أناديها متبرماً، تاهت تمامًا واختفى كذلك السور اللعين، أين أنت يا لعينة؟!

سمعت صوت طرق، هل هذه هي يدي التي تطرق
الباب أمامي؟! آه هذه ساعتني الذهبية أعرفها.

- دكتور صالح، ألا تنتهي يا رجل؟!

آه آه أيُّ لعنة تلك؟! من الملعون الذي صفعني على
وجهي، يا أبناء الكلاب يا ملاعين، من صفعني؟!

(11)

كانت الصفعة رهيبة كزلزال مدمر بقوة سبعة ريختر،
صدعت وجهي وكادت تفلقه نصفين، أظن أن لها بدل
العذر أعذارًا، فالصدمة ليست هينة بالنسبة إلى واحدة
مثلها، رغم إنني لم أتماد في الشُّرب يومها، الأسطى
عثمان انتزع الكأس من بين يدي عنوة ودفعني أمامه
بعنف، سحبني من يدي كأني طفل أسره اللهو ولا يريد
ترك الأرجوحة، فسرت في الطرقات مترنحًا وكل شيء
حولي يدور، رأسي دائخ، وعندي رغبة قوية في
التقيؤ، بل شعرت بطعم عصارة معدتي يسيل في
فمي، عندما وصلت إلى باب الشقة أخرجت المفاتيح،
أخذت أبحث عن المفتاح المطلوب، وكلما قلت هذا هو
وحاولت وضعه في قفل الباب أشعر أنني أعمى يريد
أن يضع حبلًا غليظًا في ثقب إبرة وفجأة أصبح الباب
كله فجوة وأنا مُنحنٍ أمامه، بدت لي سهير كالحائط أو
أشد علوًا وصلابة.

- هل أنت سكران يا دكتور؟ ها أجبني لو سمحت!

لم أجبها فقط اعتدلتُ وهي فقط مالت نحو فمي
وابتعدت بوجهها متقززة وصفعتني صفعتها المزلزلة،
خرج كريم على الصوت يستطلع الأمر لكنها أمرته أن
يعود لغرفته فاختفى سريعًا، نمت يومها بمفردي وهي
باتت في الردهة باكية.

- اهدي يا حبيبتى لا داعي للفضائح أرجوك، ادخلي
نامي وسأوضح لك الأمر غدًا.

- افتضح أمرُك والسكان يلوكون سيرتنا بالصباح
والمساء، فريدة هانم حدثتني بالهاتف ليلة أمس أكثر
من ساعة، تقول إن سكان العمارة أناس محترمون،
نحن يا دكتور لم نعد من أولئك المحترمين بسبب
أفعالك الجنونية غير المسؤولة.

- حبيبتى، هذا تحدٍّ مهم جدًا في بحثي، لا بد للباحث
أن يعرف كل شيء قبل أن يوجه النصح والإرشاد
للحالات التي يتعامل معها، لا بد أن أواجه، وألا أدفن
رأسي في الرمال.

- هل أنت مقتنع بهذا الهراء؟!

"حقًا يا دكتور هل كنت مقتنعًا حقًا بما تقول؟ وكيف تصورت أن تتقبل واحدة مثل الدكتورة سهير هذه الحجة الساذجة؟!".

لا أفهم.. وما المشكلة يا سيدي؟ أنا أدرّس في كلية الآداب قسم علم النفس، والدكتوراه الخاصة بي كانت حول سيكولوجية المجرم، نزوع الإنسان للجريمة وأسبابه البيئية والنفسية لذلك قلت لها مُصرًا على موقفي: "لو سمحت يا دكتورة لا تتدخلي في هذا الأمر فما أفعله إنما هو من صميم عملي".

لا أعرف.. هل كان من الحكمة أن تخبر أبي وأخي؟ لقد مهدت بفعلتها المتهورة منحني شديد الانحدار أمام الكرة، أرسلتني إلى الهاوية.

- ألم يكن عهدنا أن نستتر سوءاتنا وألا نخرج أسرارنا؟

"ها قد وصلنا إلى الجزء الأهم من القصة، أتوقع زلزالًا عظيمًا تتلوه تصدعات أسرية متتالية".

حقًا، هذا ما حدث بالفعل فبعدها بأيام قليلة وقفت أمام أبي بعدما استدعاني بمكالمه هاتفية، عدت صغيرًا ضئيلاً، تلميذًا يكاد يبول على نفسه خوفًا، تكلم بغضب وغيظ فشل في كظمه عدة مرات، وجهه الثلجي أصبح مريدًا ينضح صهدةً، أخذ يسترجع أمجاد العائلة، مكانتهم الاجتماعية من أيام الملك فاروق، فقد كانوا من المقربين للملك والأسرة الحاكمة، وحتى بعد أن سلبتهم الثورة أموالهم ورغم كراهيتهم لها ولزعيمها جمال بعد الناصر، استطاعوا الاحتفاظ بالصدارة والتفوق في جميع النواحي العلمية والعملية وشغل المناصب الهامة في الدولة من الجيش والشرطة وسلك القضاء.

- أحمد الله أن موت أمك سبق فضائحك، ربما كانت ستتجرع المرارة والحسرة حتى الموت، هل يعقل أن يهدم ذلك الصرح الذي بنيناه على القيم والمبادئ والعلم والاجتهاد لسنين طويلة في طرفة عين؟

"أتخيل مدى الحسرة التي شعر بها".

يا سيدي تلك المثالية التي تحدث عنها ما هي إلا قشرة تغلف عالمنا لكن الحقيقة أن الأمور كانت خلافًا لما يدعيه، لم يكن أبي مثلاً للنزاهة والشرف كما يدّعي، فالفضيحة التي تورط فيها نسفت كل ما آمنت به، لم أصدقها حينما ألقاها الدكتور جودت رئيس القسم في وجهي، رفضتها متعصبًا، رفضت الإيمان بها تمامًا وشعرت بأن كل مؤمن بها كافر، صدمة تشبه في جوهرها صدمة الكنيسة الأوربية عندما سمعت زنديقًا يقول إن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض، تخيل إن كانت العقيدة تقوم على مركزية الأرض، هكذا كانت عقيدتي بنزاهة أبي، تشاجرت مع الدكتور وقبضت على رابطة عنقه فاعتصرتها أفرغ فيها غيظي وهو ينتظر مني ما يمكنه من طردي من الكلية وقال لي هذه الجملة بكل احتقار وكراهية:

- لولا معارف أبيك ما تعينت بالجامعة ولا كنا رأينا وجهك البهي.

رفضت حديثه بكل ما لديّ من المنطق، فأنا الأحق بما وصلت إليه بلا شك، لكن أبي منحني منظورًا جديدًا

لمنطق الأشياء لم أكن أدركه:

- ليس بالمنطق وحده تسير الأمور، فالحياة هنا لم تكن يومًا منطقية، قل لي كيف يسير الإنسان على خط مستقيم إذا كان الطريق معوجًا؟ ليس بالاجتهاد وحده ستنجح في دولة بنيت على الوساطة والمحسوبية، البيروقراطية التي يمسك مفاتيحها الموظفون، بالمنفعة المتبادلة ستصل إلى كل أهدافك، يجب أن يكون لديك شيء تمنحه وشيء تريد الوصول إليه.

- إذا ليس تفوقي وتفوق عفيفي هما سر وصولنا إلى تلك المناصب.

- اجتهادكما يمثل عاملاً هاماً لكنه ليس هو العامل الرئيس في المسألة، دون العلاقات والهدايا والمصالح المتبادلة لن يكون لكما مكان في الحكومة، فأخوك عفيفي عمل بالنيابة بتزكية من عمك المستشار شوكت مثلاً، حتى رئيسك الدكتور جودت هذا ما كان ليشم رائحتها دون توصية من أعلى.

بهذا المنطق تم توظيفنا في مراكزنا المرموقة وبنفس المنطق تورط أبي في تلك الفضيحة التي سمعتها على لسان دكتور جودت، فضيحة فساد كبرى أطاحت بالكثير من الرؤوس الكبيرة، فقد خُصصت مساحات شاسعة من الأراضي لبعض الأشخاص من معارف الرتب العليا، وفاز أبي بنصيب جيد منها بوساطة من خالي اللواء عامر، ولولا تورط خالي وهو ذو منصب حساس لقضت الفضيحة على سمعة العائلة كلها ولَزَجَّ بأبي في السجن، لكن تكتموا على الأمر واكتفوا بدفع خالي إلى التقاعد، وسحبت الأرض من أبي بعدما أنفق على استصلاحها وزراعتها معظم مالنا، فأصبحت أُمي بعدها بالجلطة.

"وماذا كان ردك عليه؟".

لا شيء، انتهى الحديث معه بوعده مني، لكنني لم أفِ بوعدي ولم أنتهِ عن عاداتي الجديدة وبعدها بأيام قليلة تعرفت على الشيخ نعمان في جلسة حشيش، قبل أن يتدخل أخي عفيفي ويتسبب في سجن الأسطى عثمان، حتى الآن لا أحد يعلم شيئاً عن عثمان



بعدها أخذوه في منتصف الليل من بين زوجته وأبنائه.

(12)

في السهرة التالية كان ثَمَّت شيء غامض يحدث،
نظراتهم مختلفة وإيماءاتهم وتشكُّل أساريدهم، يبدو
الأمر ثقیلاً بعض الشيء على اثنين منهم، مؤكداً أن
إبليس قد وسوس لهما بشيء ما ونجح في رسم
الفكرة وإثارة نفسيهما، صمتوا عند دخولي، تبادلوا
النظرات.

- مساء الخير.

بادر إبليس بالحديث كمن يفتح الباب لصاحبيه:

- كيف حال الخيمة التي تسكن بجوارك؟

- أي خيمة؟!

- مَنْ غيرها؟! التي تلاطفها وتلاطفك، تعد لك الشاي
وتغسل لك ثيابك؟

- أم إسلام؟! ما لها؟!

أخذ الأمين الدفة وخاض في الحديث متلعثماً بما هو متفق عليه:

- الحقيقة يا دكتور إنها فرصة!

فأكمل نعمان:

- بل أشد من الفرصة، طول وعرض ومنحنيات وبروز لا ينقصها سوى أن تصاحبنا ونصاحبها نأخذ منها ونعطيها، وإذا رضيينا عنها لن نبخل عليها بأموالنا ورعايتنا.

كملت الصدمة عقلي وشلت لساني، ثم عادت الكرة لإبليس ولعاب الشهوة يتقطر من شذقيه.

- أليست أرملة؟ أي عطشى، من ذاقته لا تسله مهما طال بها الزمن، والأرض كلما طال بها العطش زاد شوقها إلى الرواء.

أجمتني الدهشة والعجز عن الحديث وإبليس يقسم أنه سيحضرها، فإن لم تأتِ برغبتها فستأتي مرغمة،

لكن سعيد اعترضه قائلاً:

- لا يا جعفر، مرغمة لا، إن نجح الدكتور معها، فستصبح مباحة لنا جميعنا برغبتها، وإلا شهّرنا بها وطردها من الحارة.

- الدكتور ليس محنكاً وحباله طويلة يا باشا، لن ينجح معها، مت يا حمار!

أين وقارك يا أمين سعيد يا أبا البنات؟ لعن الله شيطان الشهوة والشبق، شربت معهم في تلك الليلة لكني لم أسكر، فالسكر رغبة فقدتها، عقلي واع أكثر من كل يوم، يسترجع كلماتهم ونبرات صوتهم ونظرات عيونهم، لم أتوقع أن تجنح أنفسهم لمثل هذه الخسة، ألا يرحمون أرملة وحيدة تربي ولديها، هكذا ينغمس الناس في الشهوة ويدمنون السقوط، وصلوا إلى قاع المستنقع لكن لا يشعرون بالتقزز أو القرف، أما أنا فلم أعد أختلف عنهم في شيء سوى أنني لم أصل بعد، لكني في الطريق إلى القاع، فالمسألة لا تعدو كونها مسألة وقت.

مرّ على أم إسلام -على غير عاداتها- ثلاثة أيام لم تخرج من غرفتها لشرب الشاي أو الثرثرة مع أم زينب، مما جعلني أشعر بوحشة عجيبة، تلك المرأة التي لا أعرف لها اسمًا ولا شكلاً تشغل عقلي في فترات الوعي، أحاول تخيل وجهها مكشوفًا وكذلك شعرها، أصطنع معها الأحاديث في باحات الخيال، فتحدثني بلين وتجنح حينًا للغنج، تكون رقيقة وأقل قسوة، أجلس مترقبًا ظهورها، حتى جاءت تلك الظهيرة وأنا أفطر مع أم زينب وزينب تبدو قلقة متململة وهي تلقي النظرات المتتابة مثلي على باب أم الطفلين.

- أين أم إسلام وولداها يا ترى؟ هل ألم بهم مكروه؟

- لا تقلق هي فقط تستيقظ بعد الفجر وتخرج للحمام ثم تذهب لشراء ما يلزمها من السوق ثم تعود لغرفتها وتغلق على نفسها.

- ماذا حدث ليتغير حالها؟

- لا أعرف والله يا ولدي.

خرج إسلام وحبيبة للعب بعد ثلاثة أيام من محبسيهما، وعادت الروح لزينب وأضاءت الفرحة وجهها، ناديت إسلام وتحدثت إليه حديثًا متواريًا أستطلع الأمر.

- لا شيء الحمد لله كلنا بخير، لكن أُمِّي لا تريد الخروج.

استجمعت شجاعتي وذهبت إليها فطرقْتُ الباب، خرجت لي بعد عدة دقائق وقد وارت وجهها بطرحتها

- خير يا أم إسلام، هل مسَّك أحدٌ بسوءٍ لا سمح الله؟

كانت تشيح عني عينيها وتواري فيهما نظرة غاضبة، وبعد إلحاح مني انهدم سدُّ صمتها وانطلق هدير الكلام.

- ألا تعلم يا دكتور ماذا فعلت؟

- أنا؟! لا، أقسم لك لا أعلم شيئًا! ماذا حدث؟

حينها ذهبت وساوسي بأن تكون قد سمعت ما دار بيني وبين الشياطين الثلاثة، لكن تذكرت أن اختفاءها كان قبل هذا الحديث بيوم.

- تطرق علينا الباب وتفزعنا وأنت ثمل، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصفعك على وجهك، صفقة بحجم الهلع الذي سببته لنا، ألا تستحي من نفسك؟

آه إنه زلزال ذلك اليوم، لقد استيقظت وخدي الأيسر متورمًا.

- لا أعرف ماذا أقول لك، لعن الله الكيف ومن أوصلني إليه! اعذريني وسامحيني أرجوك.

- والله لولا فقرنا وضيق حالنا ما مكثنا في سطحكم النجس هذا ليلة واحدة، أنتم شياطين ملاعين.

كانت حانقة جدًا، صوتها مختنق، بكت متألمة، تألمت جدًا لألمها ولخجلي من نفسي، وددت لو تصفعني ألف مرة حتى يرتاح ضميري، هل وصل بي الحال أن أكون تهديدًا لأرملة مسكينة وطفليها.

- أنا آسف جدًّا، وأعدك ألا يتكرر هذا الأمر أقسم لك.

- لا أصدق سكيرًا لا يعي أفعاله.

شعرتُ بصدق وبرغبة تخلو من أي شهوة أن أضمها
وأربت على قلبها بحنان، قوة خفية عجيبة حرَّكت
يدي لتمسك يدها، تجمدت ثواني لا أعرف مقدارها ثم
انتابتها رعشة مفاجئة فسحبت كفها ودخلت غرفتها
مسرعة.

(13)

هبطت درجات السلم وبدأ لي الباب مُشرعًا يضيء مدخل البيت، بنت بيضاء ذات شعر ذهبي تكتس المدخل، لم أرَ وجهها لكن النور الداخل من الباب تخلل جلبابها السمني فشَفَّ لي جسدًا مثيرًا، ألقيت عليها السلام وخرجت مطرقًا رأسي أرضًا.

يجلس جعفر على المصطبة المجاورة للبيت الذي أسكن فيه، يطلق أهل الحارة على بيتنا "بيت أم عريان" رغم أنه ملك للشيخ نعمان، لكن لدوام جلوسها أمامه علّموا البيت بها، لم أرَ تلك المرأة حتى الآن، يقولون إن لديها فتاة صغيرة جميلة كالقمر اسمها نسرين، إذا ذكر الجمال ذكر اسمها، ترى هل تلك الفتاة ذات الشعر الذهبي التي كانت تكتس المدخل هي نسرين؟

اعتدل جعفر ولملم كومًا من أشرطة البرشام كان موضوعًا في حجره ووضعه في غطاء وسادة ونظر إليّ متعجبًا.

- إلى أين يا دكتور؟!

أشرت بكفي إلى شعري وجعلت إصبعي السبابة والوسطى كشفرتي مقص وحركتهما ففهم واستأنف نشاطه.

يشغل دكان الحلاق الناصية التي تطل على الحارة والشارع الرئيس، عندما دخلت من الباب نظر الحلاق إلى شعري، كأن الناس عنده رؤوس تطير بلا أجسام، كان المحل خاويًا إلا منه فانحنى بكل تبجيل وأشار نحو الكرسي فسرت نحوه مباشرة، تبوأ مكانًا على المقعد السلطاني، جلست أمام المرأة منكشًا تائهاً في الكرسي الحديدي الضخم المكسو بالجلد الأسود، أشبه الصعاليك والمجازيب، وضعت مرفقي على المسندين، تحدث الرجل بصوت رخيم مشبع بالطيبة:

- أهلاً يا دكتور.

- أهلاً بك، يبدو أنك تعرفني يا أسطى.

- يا بيه الحارة كلها تعرفك هاهاها.

انقبض قلبي من هذه الجملة وطريقة إلقائها فأنا لا أحب أن تكون سيرتي مضغة في الأفواه، لكن لا ضير أن أحاول استطلاع الأمر وفهم الدلالات فمن المؤكد أنني لن أعرف منه على سبيل الدقة ما يقوله الغوغاء عني.

- ماذا يقولون يا ترى؟

- يقولون إن دماغك عالٍ عالٍ، أعلى من السحاب هاهاها.

ابتسمتُ له وقد أدركت الحال الذي وصلت إليه، سكّث وسادت حالة من السكون، سحب الرجل مقصه وغمره بالكحول ليطهره.

- أي قصة تفضل لشعرك يا دكتور؟

- لا أعرف، افعل ما تراه مناسبًا يا حاجّ...

- نبيل، أخوك نبيل عطا الله.

- أين تسكن يا حاجّ نبيل؟

ابتسم ابتسامة ودودة وأشار إلى صليب معلق جانبًا لم
الحظه وقال:

- شنودة.. نبيل عطا الله شنودة.

- آه لا تؤاخذني يا عمّ نبيل.

- لا عليك، أنا يا سيدي أسكن في نفس البيت الذي
تسكن فيه لكنك من سكان السماء وأنا من سكان
الأرض.

في أي شقة يا ترى يسكن الرجل؟ هناك اثنتان، إحداها
تسكنها أم عريان.

- هل عندك أبناء؟

- نعم عندي رزق ونسرين.

- أليست نسرين بنت أم عريان؟

- بلى فأم عريان زوجتي، وهكذا يلقبونها على اسم
ابننا الكبير الذي توفي من عدة سنوات، لا بد أن

تشرفني بالزيارة **سترحب بك أيما ترحاب.**

سكتَ قليلاً منهمكاً في أداء مهمته البالغة الصعوبة ثم قال:

- يبدو أنك أهملت شعرك كثيراً، كثر فيه القمل والصئبان، سوف أقصره وأدلكه بالجاز بضع دقائق وسوف ترى النتيجة.

لم أبدِ أيَّ اعتراض، فقط تركته يقوم بتلك المهمة المستحيلة بدون إزعاج، بدأ باستخدام ماكينة قص كهربية ومع بداية طنينها في أذني وجدت أكواماً من الشعر تزول كأنها غابة تجرفها الكاسحات.

- سأجعل منك عريساً ابن ثلاثين وستأكلك النساء بأعينهن ثق بكلامي.

ألقي الكلمة ضاحكاً كعادته ثم صمت إجلالاً لشرودي، لم يُلقِ لكلمته بالاً ولم يعرف أن هذه الكلمة كانت ملهمة ساحرة، أنا عريس؟! ترى هل هذا ممكن؟ حينها تراءت لي أم إسلام ترتدي عباءة بيضاء وتكشف لي

وجهها، لكن هل ستقبل الزواج بي؟ إنها سيدة فاضلة
وسأكون سترًا لها من كلاب الحارة فلا ينهشها ناهش.

غسل شعري أكثر من مرة بصابون سائل رخيص
ليخلص شعري من رائحة الجاز، وعندما انتهى من
عمله كانت الفكرة قد اختمرت في رأسي، وبدا لي
البعيد قريبًا والمستحيل ممكنًا فصعدت متجهاً لأم
زينب مباشرة لأحدثها بما يدور في رأسي ففرحت
فرحًا عظيمًا.

- ترى هل ستقبل بي؟

- وما يعيبك؟ وهل تحلم هي بالزواج من دكتور وابن
ناس أكابر مثلك.

يبدو أنها لا تعرف أم إسلام فهي متوحشة وتكره
المستهترين، ما زال أثر صفعتها باديًا على خدي الأيسر
لم تمحه الأيام.

- دع الأمر لي فللنساء سبل ودروب لا تفهمها سوى
النساء.

دخلتُ غرفتي، اهتممت بكل شيء فيها ونظفتها جيدًا، ثم دخلت إلى الحمام ناويًا ألا أترك جلدي حتى يعود إلى حاله الأصلي، الليفة الخشنة والصابونة ستقومان بالمطلوب، لا بد أن أعيد صورة الدكتور صالح بأي طريقة حتى لو بدا الأمر مستحيلًا.

أذن لصلاة العشاء فقمْتُ وفتحت الباب وقلت أصلي لعلها تراني على هذا الحال فيرقّ قلبها، كانت قد اعتادت كنس مساحة مناسبة أمام غرفتي، ألقيت بطرف عيني فإذا بها تتعجب لرؤيتي أصلي، غضضت النظر واصطنعت الخشوع وأنا أفكر هل رأيت صورتي بعدما حلقت رأسي ولحيتي؟ انتهيت من الصلاة وألقيت نظرة من خلال النافذة فإذا هي جالسة مع أم زينب وكلما تكلمت العجوز تنظر أم إسلام صوب غرفتي، وبعد برهة قامت ودخلت غرفتها وأغلقت على نفسها الباب تاركة ولديها يلعبان على السطح، نظرت أم زينب إليّ وأشارت بيدها، فذهبت إليها مضطربًا أفتقر إلى الثقة، نظرت صوب غرفة أم إسلام وهي تحدثني:

- كانت رافضة فكرة الزواج تمامًا، وخصوصًا أنت، تقول إنك سكير حشاش، لكني أقنعتها بأنها ستكون سببًا في هدايتك، وما أعظم ثواب أن تهدي رجلًا عاصيًا! وفي النهاية طلبت مني أن أعطيها مهلة للتفكير.

- يخالجنى الشعور بأنها سترفضني!

- ستوافق يا ولدي لا تقلق أنا خبيرة بنفوس النساء.

(14)

عدت إلى غرفتي يعتريني القلق وكأني مراهق عاشق
ينتظر اعتراف حبيبته بمشاعرها تجاهه، لم أمرّ
بتجربة كهذه من قبل حتى في علاقتي بسماح، فالأمر
معهما كان كالسحر، فقد عانقتها في الشتاء الأول من
دراستنا الجامعية، كنا جالسين ملتصقين على أحد
أرصفة الجامعة، يوارينا جذع شجرة عملاقة، كانت
الحياة حينها بسيطة سلسة وسخية وكأنها عاهدتنا
على أن تعطينا ما نريد، انتهت المحاضرات وانصرف
أغلب الطلاب إلا العشاق مثلنا، جلسنا يحيط بنا جو
قارس وريح تمر بأروقة الجامعة تصفر وتكنس أوراق
الشجر، التصقنا لننعم بالدفء الأول من هذا النوع، كان
كل شيء يدعونا للانصهار، بلا مقدمات وضعت ذراعي
على كتفها وهي بحميمية لفت ذراعها حول خصري،
قبلت خدها، ذابت، شردت، أغمضت عينيها، اضطربت
أنفاسها، كشفت أذننها من تحت الحجاب ليظهر شعرها
الأسود الناعم فهمست في أذننها "أحبك، أحبك، أحبك"

ولد حبنا في غفوة ونشأ حلمًا استمر بقية سنوات الدراسة.

العجيب الذي لم أعرف له سببًا هو كيف شغلتني أم إسلام! هذه المرأة التي لا أعرف شكلها حتى الآن! هل النقاب ذاته هو السر؟ أن أجد شيئًا مستورًا في هذا الحضيض الفاضح، أو ربما ذلك الغموض الذي يستفز الطفل الشغوف المشاكس، استغرقت في أفكاري ومر الوقت ولم يأت الشيخ نعمان كعادته لنبدأ سهرتنا اليومية، الحقيقة أن هذا بالضبط ما كنت أتمناه فقد خشيت أن يستفزها ذهابي إليهم، قمت أشغل نفسي بعمل فنجان قهوة، وقبل أن أنتهي من تحضيرها سمعتُ طرقًا رقيقًا مترددًا على الباب، نظرت فإذا هي واقفة بعيدًا عن الباب بمقدار خطوتين، أدت المقبض مغلقًا الغاز وخرجت لها على عجل وقلبي ينتفض، نظرت إلى شعري ثم إلى هيئتي في عجل ثم تحدثت وصوتها يرتعش كأعصابي:

- حدثتني أم زينب برغبتك في الزواج بي.

- نعم، أتمنى ألا أكون قد ضايقتك.

- أنا يا دكتور أخاف الله ولا أترك فرضاً ولا نافلة،
أخشى إن تزوجتك ألا تعينني على طاعته، ثم إنك
صاحب كأس وأخاف على ولدي منك.

- إن قبلت الزواج بي فسأقلع عن كل شيء قد
يضايقك.

- كل شيء يغضب الله؟

- نعم، كل شيء يغضب الله.

- هل هذا وعد؟

- أعدك، أقسم بالله.

صمت لبرهة وأسبلت أهدابها ثم رفعت النقاب عن
وجهها، لأراه للمرة الأولى، قمحية الجبين خمرية
الوجنتين نبيذية الشفتين، جمال شرقي عربي فاتن.

- لقد رأيت وجهي وهذا حقك بشرع الله، سأتواري عنك حتى يُكْتَب الكتاب بما سن رسول الله.

- سبحان الله كم تواري الثُّقب من جمال.

- جمال المرأة الجسدي يثير الشهوة، والإنسان إذا ما ثارت شهوته ينقلب إلى حيوان لا يفكر سوى بغريزته ولا يهدأ إلا بإشباعها.

- رغم أنني لست من محبي النقاب لكن لك مطلق الحرية على أي حال.

جالت بنظرها مرة أخرى تتأمل ملامحي وكأنها تراني للمرة الأولى.

- كان شعرك ملبدًا مهملاً أراه الآن ناعمًا لامعًا، وعيناك جميلتان رائقتان، لم أرهما هكذا من قبل.

رأيتها مقبلة على الفكرة بقلبها وعقلها وتسعى بجرأة لهدم الحواجز وتضييق المسافات، كانت فكرة الزواج بها إلهام من الله، سأحظى بزوجة ترعاني وسأتكمن

من طرد وساوس الشياطين المتربصين بها من ناحية أخرى.

عادت لغرفتها والسعادة تملأ عينيها وأنا ذهبت فتحدثت مع الشيخ نعمان والأمين سعيد حتى يكونا معي شاهدين على العقد بزعم أنني أوقرهما وأنهما أهلي، وصديقي الوحيدان الآن.

"كان تصرفًا ذكيًا بلا شك، ربما لو أسأت التصرف لانقلبنا عليك ولن تأمن العواقب حينها".

"دعنا نأخذ راحة قصيرة، أرى الإرهاق باديًا عليك".

لا داعي، أنا بخير، أريد أن أستمّر.

"خذ نفسًا عميقًا أولاً ثم كأسًا من العصير، أنت منهمك، دعني أجفف العرق عن جبينك ووجهك".

أشكر سيدي...

جاء يوم الخميس بثلاثة ضيوف ملتحين وسيدتين منتقبتين وعدة بنات صغيرات ذوات أخمرة، دخلت

الإناث **مسرعات** كل واحدة تتوارى في الأخرى، يحاولن كتم الضحكات التي تنفلت منهن، أما الشيوخ مصطفى ومعاذ وعبد الرحمن فقد جلسوا معنا أمام غرفتي بعدما أخرجتُ الكليم وفرشته بالخارج، الشيخ مصطفى هو أخو أم إسلام الصغير أما الآخران فزَوْجا أختيها، تجاذبنا أطراف الحديث وكنا نختار أطفه، ونتجنب الأمور التي قد تثير الخلاف أو تعكر الصفو، ولمست من بعض المواضيع أنها اختبارات خفية لمعرفة عملي ووضعي المادي ومدى تديُّني، أظن أنني أجبتهم بإجابات مثالية ترضيهم، لم تكن جميعها صادقة.

جاء المأذون بعد صلاة العشاء بساعة وأتم المتفق عليه، زوّجنا على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان الذي لا أعرف عنه شيئًا، قلت لا ضير في ذلك ولن يمنعني على أي حال أن آتيها بكل المذاهب.

(15)

انغلق الباب علينا وانفتحت لنا عوالم الفرح والنشوة.

"بهذه السرعة؟!".

نعم بهذه السرعة، لم يكلفنا الأمر سوى مهر زهيد وخاتم ودبلة من الذهب، وفزت بالسيدة ذات النقاب الأبيض الحريري، المطرز بخيوط تلمع، تفوح منها رائحة كالمسك أو أكثر عبثًا، أهداياها مكحلة منسدلة، تهرب من نظراتي وتتحاشى لمساتي، كم كانت خجولة في بادئ الأمر!

- كفاكِ انفلاتًا مني يا سيدة الغنج والدلال.

تركت لي يدها اليمنى أخيرًا، بدوت كأني أصافحها ولست مصافحًا، فركتها فارتعشت، قبلتها فتندت أصابعها بالعرق، جلست بجوارها على الفراش ملتصقًا فطوقت خصرها بذراعي فالتصقنا، ضيقت الخناق عليها حتى ارتخت أعصابها واستسلمت عضلاتها

فأصبحت عجيبة لينة، توقفت تمامًا عن المقاومة
فعانقتها.

- آه آه، ما كل هذه الراحة وما هذا النعيم في حضنك
يا أميرة؟! ضمني بقوة يا حبيبتني.

استجابت لطلب العناق فضمتني بكل ما فيها من
شوق، كل شيء يمر على أكمل وجه، شيء عجيب أن
أدير الموقف بهذه الاحترافية كأني متمرس خبير، لكن
ما كان أكثر عجبًا هو أن أقتفي أثر الشهوة في جسدي
فلا أجد لها أثرًا، تسربت من بين أطرافي أو ربما
تبخرت، شرد عقلي وأخذت أفكر في الأمر، أين ذهبت
النيران التي كانت تلهبني كل مساء.

- ما أجمل اسمك، تخيلي.. هذه أول مرة أعرف أن
اسمك أميرة، اسم جميل حقًا.

ابتسمت ثم أشاحت وجهها تواري خجلها، ضممتها مرة
أخرى بذراعي وهي احتوتني بصدرها، انخلع خمارها
بلا قصد، وبلا عناء سقط فستانها، أصبحت نارًا تغلي

واللهيب يتصاعد من أنفاسها، زادت حيرتي مع قلة قدرتي على مجاراتها، ماذا بعد العناق والتقبيل أيها الأحمق؟ ماذا حدث لك؟! افعل شيئًا أي شيء.

- ماذا بك حبيبي؟

- لا شيء يا حبيبتي.

سكتت يكممها الخجل ولسان حالها يقول: نعم.. حقًا.. يبدو أنه لا شيء تمامًا.

ساعة وأنا ألقم النار بالحطب ولا فائدة تُرجى، توقفت لبرهة، وهي ترى أن همّها بي أكبر من همّي بها.

- ماذا بك يا صالح ألا أعجبك؟

- بلى يا أميرة، إنك والله أجمل مما تمنيت بكثيراً لكنها الرهبة، فقط الرهبة.

اعتلت وجهها بسمة امتنان لإطرائي، لكن بعد صمت لم يدُم إلا دقيقتين تكلمت برفق ولين:

- أي رهبة وقد كنت متزوجًا أكثر من عشرين عامًا
وعندك ولد كبير؟!

لا أعرف بماذا أرد عليها، لقد أفحمتني، أنا في الحقيقة
لم أمارس الزواج بالمعنى الذي تقصده فكلما تهيأت لي
زوجتي سهير أجد الارتخاء في عزمي والوهن في
قوتي والليونة في عضلاتي، لم يفلح طبيب بجعلي
أمارس معها كما أمارس في السر، حتى إن طبيبي
الأخير قال لي أغمض عينيك وتخيل أنها حبيبتك
الأولى التي حرمتك أمك إياها، لكن هذا لم يفلح فروح
سماح كانت كالنار مستعرة أما سهير فلا روح لها.

- لا أعرف ما حل بي، يبدو أنني اليوم لست بخير دعينا
نرتح الليلة وسيكون غدًا أفضل بإذن الله.

رأيت جذوة اللهب تخبو في عينيها وأزهار دوار
الشمس التي انتصبت لوهج اللحظة تنتكس.. تذبل،
اختلاجات وجهها الخجلة تقول لي: لِمَ لا تحاول مرة
أخرى؟ لكنني حسمت الأمر فالجواب يظهر من عنوانه،
أدارت لي ظهرها تحاول بجهد بالغ أن تكظم غيظها

لكن بلا فائدة، تقول: أفّ ثم أف وألف أف! ولم تنم،
أسترقّ النظر إلى جسدها العاري وشعرها الغافي على
الوسادة لكن بلا فائدة، أملس على جلدها الناعم بلا
فائدة، لعل الأمور تتحسن غدًا، نعم ستتحسن إن شاء
الله.

- هذه آخرة السكر والمخدرات!

قالتها بغیظ مكتوم ثم استسلمت ليأسها وذهبت في
نوم قلق متوتر.

"حقًا شيء مخيب للآمال، لكن لم التعجب أنت قلت
من قبل إن هذه الحالة مستمرة معك منذ زواجك
بالدكتورة سهير".

أرجوك يا سيدي لا أريد الخوض في هذا الموضوع
الآن.

"لا بأس كما تحب".

قامت من نومها بالصباح الباكر غاضبة حانقة
وتجاهلتني كأني حيوان لا خير فيه ولا فائدة من
اقتنائه، كانت تتعامل مع الأواني بعنف فيعلو الخبط
بين الحين والآخر، صنعت الإفطار وهي واجمة فكان
الطعام بلا طعم، جلست ووجهها مُسودّ مسدود كحائط
خرساني.

- أميرة.. الأمر لا يستحق كل هذا الغضب، سيتحسن
الحال الليلة أعدك فأنا كنت مرهقًا أمس.

لم تلتفت لحديثي ولم أسمع سوى زفيرها الغضوب
وخبطها للأواني.

- حبيبتي كلميني أرجوك.

- يا صالح، لم يمسنني رجل منذ ثلاث سنوات وهذا
شرع الله، لا ضرر ولا ضرار.

- سترين ما يرضيك الليلة بإذن الله.

استعنتُ بالشيخ نعمان فاستحضر خبراته الطويلة في هذا الأمر، نزل وغاب أكثر من ساعة ثم عاد ومعه الحل السحري "خلطة عشبية مضمونة الأثر غالية الثمن" شربت منقوعها بعد العشاء وعاودت المحاولة بكل تفاصيلها لكن المخيب للآمال أنه لم يحدث أي تغيير، كأن الليلة هي البارحة، أدارت ظهرها ونامت أو مثلت، كنت أشعر بالخيبة والعجز والانكسار أمامها لكن حاولت أن أطرح لها الأمر من خلال نظرية نصف الكوب المملآن.

- أميرة أنا آسف، صدقيني لا أعرف ماذا أقول لك، أعدك أن أذهب إلى الطبيب وأستشيره، على أي حال دعيني أكنُ لك سترًا من الطامعين والنفوس المريضة.

- يا فرحتي! ألسْتُ قادرة على حماية نفسي؟

كانت تشعر بأني خدعتها وأني عقيم لا فائدة مني، أفطرنا في اليوم التالي وهي ساكتة لا تنبس بكلمة، توجهت لغرفتها فارتدت عباؤها السوداء ثم استأذنت لتذهب إلى أختها وبعد ساعتين تقريبًا عادت بولديها.

رجعت أقل غضبًا وأكثر تسامحًا، واستأنفت عاداتها الأولى، النوم في غرفتها مساءً مع ولديها كسابق عهدها، ولم يجدَّ على علاقتنا قبل الزواج شيء سوى كشفها لوجهها أمامي، وإعدادها الطعام لي وغسل ثيابي بشكل منتظم، وأنا اقتسمت معها نفقات المعيشة.

في مساء لاحق جاء الشيخ عبد الرحمن زوج أختها وحدثني بلطف بالغ عن فضل الصلاة وأنها فريضة على كل مسلم بالغ عاقل وأن تاركها كافرٌ. وعندما انطلق أذان صلاة العشاء من المساجد المحيطة سحبني من يدي وأخذني لنصلي في المسجد، توضأت محاولاً إطفاء غضبي من تطفله وسحبي عنوة كما تسحب الخراف إلى المذبح، صلينا معًا صلاة الجماعة ثم النوافل.

"أرى الأمور تسير بك من سيئ إلى أسوأ، فشل في المعاشرة الزوجية ثم تورطك مع عائلة سلفية، ربما يَعدّونك كافرًا مرتدًا وقد يقيمون عليك الحد إن لم تتبع أفكارهم ومنهجهم".

(16)

نعم كالعاصي أخذني لأستتاب، إذا نظر إلى وجهي حاول افتعال اللين وإذا أعرض بدا متجهماً يلعن الفاسق في سره، يمسك يدي بقوة متشبثاً كمن يخشى فراري، لم يتركها إلا بعد دخولنا المسجد، تعجبت من ازدواجية هؤلاء الأشخاص الموكلين بهداية الناس عنوة "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ" وكأنني أسمع الله يذجرهم ويقول لهم: كل واحد حرياً أو غاد ألم أكن قادراً على هدايته؟ نظرت إليه وهو يتوضأ لعله يغتسل على مذهب لا أعرفه، قلدته مصطنعاً التآني وأناي حريص على الغسل أكثر منه ثم وقفت في ساحة المسجد خلفه حتى أراقبه ولا يراقبني، صليت خلفه ولم أعرف هل ما أصلي هو نافلة العشاء أم تحية المسجد، فقط تحركت مثله، انتهينا ثم بدأ مكبر الصوت يقيم الصلاة، قرأ الشيخ القرآن كله أو ربما معظمه، هذا ما شعرت به حتى سمعت ركبتيّ وكعبيّ يصرخان يحثانه على المُضيّ قدماً في الخطوات التالية "الله أكبر الله أكبر" ترى ماذا قالت له

أميرة كي يتصرف معي على هذا النحو ويجرني إلى المسجد جزًا.

"من الطبيعي أن تظن أن الخمر والحشيش داؤك، وأن الصلاة والبعد عن المنكرات دواؤك".

لكني لم أحب هذا السلوك، فأنا لست حيوانًا يساق لمرعاه ولا قريبًا للمذبح، خرجت من المسجد وأنا ضجر وركبتاي وكعباي تلعنهم جميعًا، تحاملت على نفسي كي لا يفسر سبب ألمي بعدم اعتيادي الصلاة.

تخطينا السياج الخشبي القصير أمام الباب، ارتديت حذائي متعجلًا واعتدلت استجدي العجلة من سلفي، نظرت إليه فإذ به يتلفت يمينًا ويسارًا يبحث عن نعله الأسود الجديد، سأل شحاذًا جالسًا أمام المسجد يرفع يده اليمنى بالسؤال أما اليسرى فكانت مبتورة يشمر عنها كفه، لم يُرح الشيخ بإجابة شافية ولم يرقّ الشيخ لمسألته، خرج يسب ويلعن السارق ابن الحرام الذي لم يره أحد، فأخذ قبقابًا خشبيًا من حمام المسجد وذهب ناسيًا أسيره وحيدًا لا يعرف طريق العودة "بارك الله

لك في غنيمتك يا سارق الأحذية فقد أعتقت بلا قصد
 رقبتني" سأسأل عن حارة الشيخ مرزوق وسأجد ألف
 من يدلني، سرت في حارات طويلة ضيقة ملتوية
 كأني أسير في أمعاء ثعبان بالغ الطول يلتف على
 فريسة يريد عصرها، فيها دكاكين تعلق مصابيح غاز
 تبت ضوءًا فسفوريًا باهرًا، تبيع السبح والبخور
 وسجادات الصلاة وقناني المسك، سمعت صوتًا يتردد
 في السماوات، صوت أعرفه جيدًا، سمعت رنينه من
 قبل، يسبح في ملكوت ذاكرتي السمعية.

سرت كالمجذوب يسحبني الطريق، كلما اقتربت من
 الصوت ازداد علوًا وخشوعًا، تتسع فرجة الباب، تتسع
 طاقة النور ويزداد الوهج، تتضح الكلمات أكثر:

"الله، الله، الله".

"يا سيدي مدد، يا سيدي مدد".

"الله الله".

كلمة "الله" تتكرر على صوت تصفيق منتظم، قناديل كهربية معلقة في عروق خشبية أفقية تمتد بين الأعمدة المستديرة فوقها سقف خشبي عالٍ تهيم فيه سحائب البخور، الرجال يطوحون رؤوسهم وأذرعهم شمالاً ويميناً ويرددون الله الله، وقفت على الباب ولا أعرف كيف الوصول، ماذا يفعل من أراد الخوض في بحورهم؟ كيف أطرق الباب وهو مشرع عن آخره، هل هنا من يسمع نداء قلبي والكل ينادي؟ من يسمعي؟ أريد أن أدخل وأقول مثلهم "الله، الله" وأتمايل مثل تمايلهم، الرجال ذوو العمام الخضراء والأذرع المرفوعة المتمايلة، منهمكون في عالم غير العالم، أشعر أنني رأيت هذا المشهد من قبل، التفت لي الرجل الذي يقف في مركز الحلقة، ممتلئ الجسد، مدور الوجه، مضيء كالبدر، يرتدي عباءة بيضاء كأنه طير يرفرف، اقترب مني رويداً وهو يتمايل كما يتمايلون، ألقى لي ذراعه كطوق نجاة فتلقفته، أخذني لقلب الحلقة وهو ينشد "مدد يا سيدي مدد يا سيدي" وهم يرددون "الله الله الله" كنت ذاهلاً، أنظر إليهم وهم لا ينظرون، الساحة بحر يلجّ والذاكرون قوارب تموج،

زادت اللجة والرجل ذو الوجه المضيء واللحية
الفضية يمرجح يدي ويذكر الله ويتمايل، شعرت بقوة
البحر تسحبني، كنت كمن يروم النجاة من الحياة
بالغرق في الذكر، ابتلعتني أمواج الذكر، رياح البخور،
بروق الأصوات التي أصبحت أكثر علوًا، رعود
التصفيق الحادة المتسارعة، الله، الله، الله.

"ضجرت من الصلاة في المسجد وهي الذكر المفروض
عليك وانجذبت إلى الذكر بالطرق الصوفية، الحقيقة
أني لا أرى مبررًا لهذا الميل الروحي للصوفية سوى
انجرافك الأخير لتحطيم جميع ثوابتك وبشكل
متطرف جدًا، فالأفكار الصوفية وممارساتها مليئة
بالخرافات والخزعبلات وهذا يناقض تمامًا عقليتك
العلمية التي تعتمد طرق البحث والتحليل بالمنطق".

كرهت سرًا ذلك الذكر من خلال الصلاة لأنني سقت إليه
سوقًا، جزًا وقهزًا، وجدت أنني أخضع لنوع جديد من
الوصاية، أما الذكر الصوفي لم يفرض عليّ، بل كنت
كطائر محلق في سماوات الضياع أغرد حزينًا
فوجدتهم كسرب يطيطون مغردون يجمعهم الهوى،

حب الله، خارج إطار الحركات النمطية الرتيبة التي تؤدي بالجسد لا بالروح، مع الأسف انتهت الحلقة سريعًا، وكأي شيء جميل في الوجود ينتهي سريعًا، كنت أتمنى أن أتحول إلى موجة أثير منفلة في ذلك الفضاء، بدأ الذاكرون يتسربون فرادى وجماعات، وأنا على حالي ماكث لا يمنعني الانفلات سوى يده المتشبثة بيدي، جلس على الأرض فرّيع رجليه ثم ضرب على البساط الأخضر قاصدًا أن أجلس، فجلست أمامه ثم نظر بعينين فرحتين ووجه بشوش وقال:

- أخوك الشيخ نور الدين.

(17)

مجنون يطارد الفراشات على سطح أورانوس، ينحت من الوهم الأبيض بيوتًا وقلوبًا وتماثيل وساحات، يرقص فيها على الجليد، يسمع موسيقى بيتهوفن على بيانو سمائي، تعزف عليه فتاة ذهبية الشعر لها جناحي ملاك ريشهما أبيض خفيف، ونصفها السفلي ذيل سمكة فضي يعكس النور ألوان طيف كعروس البحر، إنها حورية من حور الجنة، يفقد اتزانه وتفلته خيوط الجاذبية، يصبح خفيفًا يزن جرائم تشفته هوة بيضاء أنبوبية، ينزلق فيها إلى ما لا نهاية، لا يموت فيها ولا يحيا، مجنون رغم كل شيء.

"ما هذه؟ أهي لوحة من لوحاتك؟".

لا لا، ليست لوحة، هي ربما نشيد أو ترنيمة أو آيات من كتاب مقدس لدين ما، ترددت كلماته في أذني من شدة تأثري بلقاء الشيخ نور الدين، أثر كالسحر تمامًا، لقد رأيت كل شيء وشعرت ببرودة اللامكان واللازمان في الهوة الأنبوبية، حلقت عينا في سماء الغرفة

البيضاء، غلالة من ضباب تغشاها، تعلقَتْ فيها لفترة لا أعرف مداها، أرتشفُ نبيذ الوهم المعتقد على مهل، رأيت كيف حوّل الحق الذي أعيش فيه إلى متسع مضمخ بالسعادة والجمال، لم يحرمني لذة هذا النعيم إلا طرق الشيخ نعمان على باب الغرفة، انتفضت أشهق وأنظر حولي، دهشة محبطة اعترتني، قمت مترنحًا أتخبط في ضيق الأفق المعفر.

يقف أمام الباب كهل بائس يائس، عيناه حمراوان يعلق فيهما آثار بكاء وأسف على شيء ما، يرتدي جلبابًا بيتيًا خفيفًا مهملاً متسخًا، يفتح أزراره عن آخرها.

دخلت الحمام بينما وقف أمام الموقد فأشعله بعود كبريت ثم وضع عليه براد الشاي.

- كم الساعة يا نعمان؟

- العاشرة.

- خير، ماذا أيقظك مبكرًا؟

- لا شيء، فقط شعرت بالاختناق، أتشرب معي شاي؟
- شكرًا، لا أشرب الشاي على معدة خاوية، سأشرب بعد الإفطار إن شاء الله.
- خرجت من الحمام وهو يصب الماء المغلي في الكوب، كنت على وشك الانتهاء من تجفيف وجهي وشعري المبتلين، ألقيت المنشفة على الكرسي ثم جلست بجواره على السرير أستند إلى الحائط وأمد رجلي إلى الفراغ، ظل شاردًا تتراقص الدمعات في مقلتيه.
- قل لي يا نعمان، ما رأيك في الطرق الصوفية؟
- إنهم دراويش، يسكرون بالذكر، كما نسكر بالخمير.
- لم أفهم هذه الإجابة؟ هل هذا مدح أم ذم؟
- يا دكتور جميعنا مغيبون.

لكني لم أرَ الشيخ نور الدين مغيبًا، ولا أنسى كلماته الأخيرة قبل أن أنصرف "الكون متسع لا آخر له، مليارات المجرات، لا يحصي عددها إلا الله سبحانه

وتعالى، تخيّل في كل هذا الكون اللانهائي الإنسان فقط يملك العقل والحكمة والضمير والاختيار، الإنسان هو معجزة الله الكبرى، لا النجوم ولا المجرات، لا بد أن تستحضر عظمة الخالق وأنت تذكره وتسبحه وتكبره، اترك نفسك تصعد إليه، تطرق أبواب الوصول بالشوق واللهفة، حتى ترى الكون بقلبك وتنكشف لك الأسرار، وترفع عن بصيرتك الحجب والأستار".

- لماذا لم أركّ تصلي يومًا؟ إن هذا الأمر ليربكني؟!

- ليس كل الصلوات، عندما أفيق وأطمئن أنني لست على جنابة أصلي، غالبًا لست مطمئنًا، لا أطمئن أبدًا.

نعمان يتحدث شارد العينين صوته رقيق حزين مرتعش، شعرت بشيء يجذبني إليه هذه المرة أكثر من أي يوم مضى، لعله الصدق والشجن.

- لماذا لقبوك بالشيخ وأنت على ما أنت عليه؟

- لأنني أزهرى وكنت أعمل بالأوقاف، عيّنوني إمامًا لمسجد الشيخ مرزوق، لكن بعدما أدمنت الخمر

اعتزلت المساجد وتخلفت عن عملي، ثم طردوني، الحقيقة لا أعرف يقينًا هل طردوني أم لا، لا أعرف شيئًا، آخر جمعة صليتها إمامًا ألقيت خطبة أضحكت الناس جميعًا، أخذت أهذي بكلام لا يليق، وأخطأت في تلاوة الآيات وعدد الركعات، كانت فضيحة كبرى تنذر بها الشيوخ والعامّة عدة أشهر، من يومها وأنا خجل من الصلاة في المسجد.

- ما سرُّ هذا التغيير الذي طرأ على حياة شيخ مثلك؟
لماذا أدمنت المخدرات من البداية؟

وكأنما وقع السؤال على نفسه كذّر الملح على الجراح،
زاد وجومه واختنق صوته وهو يجيب:

- مات ابني آدم في ريعان شبابه، أميرًا تتمناه الحور.

- كيف مات؟

- أطلق لحيته وتوغل في الدين، رأى الدولة فاسدة كافرة، ورأته ورمًا سرطانًا يجب استئصاله قبل أن ينمو، التقطوه ذات ليل صيفي تُشرع له النوافذ،

خطفوه من بيننا ونحن نائمون، وبعد شهر أو يزيد ألقوه جثة هامدة في مدخل الحارة على عتبة دكان عم نبيل الحلاق، بدنا مشوهاً متورماً في معظمه من التعذيب، تغيرت ملامحه فأصبح مسخاً، عندما رآته أمه انفطر قلبها وتسرب اليأس لروحها وكرهت الحياة والأحياء، رقدت أسابيع لا تأكل ولا تتكلم ولا تكف عن البكاء حتى لحقته بحسرتها، أصبحت وحيداً تُغير البرودة على روحي، وكان لي بيت لا يغيب عنه الدفء.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- ملعونٌ دين دولةٍ تقتل أبناءها.

مسح الدمع المنهمر على وجنتيه بكم جلابه ثم غيّر لهجته ورسم بسمه مزعومة على شفتيه ووجنتيه، أدركت أنه يرغب في الهرب من الذكرى الأليمة بحديث آخر.

- قل لي كيف وجدت الزواج بأم إسلام؟

- إنها طيبة بنت حلال وتعرف الله.

- دعك يا دكتور من الطيبة، وقل لي كيف كانت ليلتك الأولى معها؟

- اسكت يا شيخ كي لا تسمعك فتطين عيشتنا.

- ها ها ها دعنا منها، وقل لي هل ستسهر معنا الليلة أم ستخافها؟

- الحقيقة إن السهر يغضبها فتصبح سليطة اللسان عنيفة الخصال، دعوني هذه الأيام، كفى الله المؤمنين شر القتال.

(18)

جاء بعد صلاة العشاء سلفي الشيخ عبد الرحمن الموكل بمهمة هدايتي إلى الطريق المستقيم وانتشالي من ظلمات الفسق لنور الإيمان، سأذهب معه ثم أعرج على ساحة الذاكرين وأتحدث مع الشيخ نور فالقلب مريض وكلامه دواء.

"تري كيف هربت منه هذه المرة؟ هل أرسل الله له سارقاً آخر ليشغله عنك؟".

لا طبعًا، لا تُسقط السماء الحلول كل مرة، لذلك تسلحت بالجرأة والعند، كررت الخطوات السابقة فتوضأت وصليت النوافل، وعندما أقاموا الصلاة قممت فاصطففت واتبعت الإمام حتى قال "الله أكبر" ليسجد السجدة الأولى، فسجد وهم من خلفه سجدوا، أما أنا فقممت وخرجت من المسجد وتركت الجميع خلفي وسرت أتبع بوصلة الفؤاد.

رأيت دكاكين السبح والبخور بمصاييحها الوهاجة من بعيد تنادي المحبين، إنها طرف خيط النور، أولى محطات رحلتي المقدسة لساحة الذاكرين، رأيت بائع الدكان الأول، كهلاً بشوش الوجه حسن السميت، نادتنى عيناه بلطف ابتسامتها فليث، نويت أن أشتري منه مهما غلا ثمن بضاعته.

- السلام عليكم.

- عليكم السلام يا صالح.

- صالح؟! هل تعرفني يا حاج؟!

- سيماهم في وجوههم يا ولدي، فالناس صنفان صالح وطالح، وأظنك بإذن الله من الصالحين، أصلح الله حالك وبالك، قل يا ولدي ماذا تريد؟

- أريد تلك السبحة، فوق إلى اليمين، الكهرمانية الحبات، آه أرجوك أحضرها، وتلك السبحة بلون العقيق، وهات تلك الخضراء التي تضيء إذا ما الدنيا أظلمت.

- إنها لا تضيء من الظلمة إنما من كثرة الذكر والتسبيح، تلك الحبات كواكب درية، ستدور في فلك سبابتك، سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، مدد يا رب، مدد يا سيدي!

تسوّرت بالكواكب حول معصمي ومررت خفيًا طائرًا كفراشة، لا أكاد ألمس الأرض، وجدت الشيخ نور جالسًا بمنتصف الساحة على هيئة أمس، المكان خالٍ، عرفت منه أنهم لا يأتون كل يوم، جلست أمامه فجعلني أربع رجلي كما يربع وألصق ركبتي بركبتيه، ثم أمسك يميني بكتا يديه، والسبح تتأرجح بيننا، شعرت بقشعريرة وموجة ناعمة تسري ببطني، زاد تالأؤ وجهه المستدير الثلجي البياض، أغمض عينيه البنيتين اللامعتين، حركت نسمة تتهادي كموجة سماوية لحيته الناعمة، استمر مغمضًا عينيه حتى ظننت أنه لن يفتحهما، شعرت أننا كُتلتا شمع يصهرنا النور، اندمجنا، تلاشت الحدود الفاصلة بيننا، أغمضت عيني طوعًا، بمجرد أن أطبقت جفني واختفت الجدران، بدت الساحة فسيحة ممتدة حتى أطراف السماوات، تحيط

بنا أجرامها وأبراجها، تكلم الرجل بصوت هادئ رصين،
غامض وعميق، كأنه يخرج من أعماق جب سحيق.

- أنت معجزة الله يا صالح، لا تنس أبداً هذه الحقيقة
الغائبة عنك وعنهم جميعاً، حتى وأنت مخطئ عاص،
تشرب الخمر، هل ترى مخلوقاً غير الإنسان يصنع
الخمر ويشربه؟ تفكر يا بني، أبصر، البصر ليس رؤية
العين، لكنها رؤية العقل والروح، حيث تتحول الأفكار
والآيات إلى كائنات مرئية تتحرك وتتكلم وتبتسم
وتربت وتطير بك لأي سماء تشاء.

لمس شغفي وولعي، أخذ فضائي وأنشأ فيه الملكوت،
بنى لي العوالم، فقه القلب الحديث وما زال عقلي
غارقاً في ضلال الحيرة والأسئلة:

- يقولون إن مذهبكم مليء بالخرافات والخزعبلات.

- الصوفية يا حبيبي طريق من طرق الوصل
والوصول، والصوفيون أناس جالسوا الله فكانت
المناجاة حديثهم والوجد شعورهم، قرّبوا فصعدوا

وارتقوا حتى وصلوا، لم تعد تستوعبهم الحركات ولا
المواقيت ولا الأزمنة ولا الأمكنة، تلاشت الحدود
وذابت الحجب، فرأوا ورأوا ورأوا، الله الله الله مدد يا
سيدي وحببي، الله الله الله!

نظر الشيخ لسبحاتي وهن ينبضن بالنور بين أصابعي،
يسحب الإبهام رؤوسهن برفق، برقت عيناه تتلأأ
بالإعجاب.

- ما أجمل سبحاتك! لم أر مثلهن من قبل!

- لقد ابتعتن من رجل طيب بالحارة.

- لا يا صالح إنها منحة من العاطي الوهاب، لا سبح
تشبه هذه السبح، لا شيء متروك للصدفة، هل تظن أن
الله خلق الكون وتركه للعبث؟ هل المواقيت والأقدار
عبث؟ هل سرقة السارق لنعل صاحبك عبث؟ أطريق
النور الذي اتبعته إلى هنا عبث؟

- كيف عرفت بأمر سرقة النعل؟!

نظر إلي ولم ينبس، كأنه معاتبٌ، يبدو أن سؤالي غير منطقي!

"آه، أعرف أولئك الدراويش يوحون لك أن الحجب قد رفعت لهم وأنهم يرون الغيب، ويستطيعون أن يعالجوا المرضى ويحيوا الموتى، ومنهم من يقول لك إن الكعبة تطوف حوله وليس هو الذي طاف حولها، ومنهم من يدخل غرفته ويغرق في نوم عميق ويترك الصلاة بالمسجد ثم يقول لمريديه لقد كنت أصلي في الحرم وهو مضجع على سريريه هاهاها، لي صديق منهم أستفزه بالمنطق ويجنني بالخرافات".

أرجوك سيدي لا أسمح لك بالتهكم على شيخي الجليل، لا يليق بسيرته أن يمزج بها في أحاديث الهزل.

"حسنًا يا دكتور العزیز، لا تغضب، أرى أنك قد تأثرت به تأثرًا عظيمًا وآمنت بما يدّعي".

نعم بلا شك، لقد صدقته وتأثرت به وآمنت حد اليقين، دائمًا أنا عاصٍ في عيون الناس، إلا الشيخ نور الدين،

حتى زوجتي السورية أميرة ترى أن سبيلي إلى الصوفية ضلال، اتبعني زوج أختها مراقبًا، وعلم بحالي وشاهد تحليقي في ساحة الذكر بعينيه الحادثتين اللتين لم تُبصرا سوى الظنون المنافية للحقيقة، قالت لي ذات مرة وهي منهمكة في سلق دجاجة الغداء:

- لا تعرف قدماءك إلا سبل الضلال، كنت سكيّرًا وأصبحت درويشًا، الهذيان دينك والتجرؤ على الله صلاتك.

أصبحت تلك الكلمات هي أوراها التي تسمم بها بدني في الصباح والمساء، وهي تطبخ أو تكنس أو تغير ملأة السرير بل أحيانًا وهي في الحمام، لكن هذا ليس تجرؤًا ومن يملك الجرأة؟

- إن الله هو الزمان والمكان يتخللنا يحتوينا ونحتوي بعضًا منه، وهو كل، والكل مطلق، والبعض منه كل، ونحن آلهة تخطئ وتتغير وتتبدل، آلهة من رمال، أما هو فإله النور العظيم، الثابت الراسخ المطلق الكمال، لا

يعرفه الخطأ، وكلُّ فعله صواب، فلا ندَّ له ولا مثيل
نقيس عليه.

أنا.. إله من رمل! نعم حقًا، أنا إله السراب اللانهائي، إله
التحلل والتلاشي، هذا يليق بي تمامًا ويروقني جدًّا،
هاه قل لي يا سيدي ما رأيك في كلماته؟ ألا ترى كيف
تنفذ إلى القلب بكل يسر ويقبلها العقل.

"أي عقل؟!".

عقلي أنا على الأقل، وأين التجروُّ فيها بالله عليك قل
لي؟ أميرة لا تريد استيعاب تلك الكلمات والأفكار فهي
وعائلتها ينتمون إلى الفكر السلفي وهم في عدااء أزلي
مع الصوفية، لذلك فهي لا تريد نقاشًا واعيًّا ولا أن
تسمع وجهة نظري، إنها فقط.. تصدر الأحكام وتلوح
بالعقوبات.

- والله إنني لأتحمك سكيّرًا ولا أتحمك درويشًا ولئن
تماديت في ضلالك لأفارقنك وتفارقني.

(19)

في لقاء لاحق احتوى يدي بكفيه، ثبّت عينيه في
عيني لبرهة ثم أفاق من شروده وهمس:

- أغمض عينيك.

منصاعًا لأمره أغمضت بلا تردد.

- شَف بقلبك يا صالح وانس الدنيا وشغلها، تنفس
بملء رئتيك كما تتنفس الأصباح.

أغلقت جفني دون الشمعة التي يتراقص لهبها في
عيني، أظلمت الدنيا للحظة ثم بدأت دفقات النور
تتهادى، مدد تلو مدد حتى صارت أمدادًا، رأيت رمالًا
بيضاء ممتدة لا يوقف زحفها حائل، يدي اليمنى
مدفونة فيها، ناعمة دافئة، استنشقت الهواء الذي لا
يشوب نقاءه شائبة، الله، سبحان الله، حضن الصحراء
حنون، حضن الصحراء دافئ.

- تحرر يا صالح من جسدك، عندما تتحرر الأرواح تقطع المسافات بكل يسر، تمتطي البراق، تصل إلى الله.

بدأت أشعر بشيء من الهشاشة والخفة يزدادان، وأن كل صلب في جسدي بدأ يتحول إلى رمال، رمال بيضاء ناعمة، بنياني العتيق بدأ يتهدم، تتساقط الرمال من أعلى ومن الجوانب، الرمال الناعمة تتحرك في مجارٍ لها كما تذوب المياه وتسيل من كتل الثلج القطبية، الأفكار والذكريات والثوابت تتحول إلى رمال بيضاء ناعمة، حالة عجيبة من الانصهار أو التحلل، الرمال ناعمة جدًا وخفيفة حد اللاوزن، كتلة صفرية، شعرت بحالة انعدام الجاذبية لأول مرة، وتوحدت أفكاري وروحي وجسدي كطيف من نور يطير في الاتجاه والسرعة التي أريدها، أصبحت أملك أن أقول لنفسي كوني فتكون، أصبحت نصف إله، الآن.

- أنت الآن بين يدي الله، سيمنحك الأمانة، قل لي.. ماذا يبصر فؤادك؟

- أرى الأفكار كائنات والكائنات رموزًا ومعاني.

- وماذا يستنبط عقلك؟

- أن أعظم منحة هي الاختيار والإرادة، وأن أكبر جريمة هي تعطيل هذه العطية الربانية عندما يسلبونه حق الاختيار، فالمعجزة أن الإنسان يختار. حقًا.. ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، الأمرون بالمعروف يذكرون الناس، إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر، يذكرون البشر بالاختيارات الفجور والتقوى، ويتركون لهم حق الاختيار، حتى لا يتمادوا في الضلال وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، لا إكراه في الدين، إن ربك يريد أن تسير الأمور بحرية مطلقة، أن يجرب الإنسان، أن يصل بقلبه ويؤمن بعقله لا بالإكراه والإجبار، الإكراه والإجبار سيخرج أجيالًا من المنافقين.

كل هذه الأفكار انتقلت من عقله إلى عقلي، أو ربما رأيته جلية بعد انقشاع غيوم الزيف وزحام الأفكار، تضاءلت الدنيا في عقلي وقلبي حتى أصبحت ذرة

رمل تائهة في الكون الفسيح، وما زالت كلماته تدور برأسي، أسمع رنينها تسبيحًا يخاطب الإدراك والوعي وتنفذ إلى حشاشة النفس، كنت أستمد منه براق التحرر لرؤاي.

لكني كنت أنتكس سريعًا كلما غبت عنه أو غاب عني، عاد العقل أسيرًا لتلك الجدران الأزلية التي شيدتها أمي، أناطحها بكل ما أدركت من وعي لكنها كسد قوم يأجوج ومأجوج يعود فينتصب.

"إنه النكوص والارتداد للعادات".

نعم إنه الارتداد الأحمق، سأقول لك سرًا لا يعرفه مخلوق، ولن تصدق ما فعلته انتقامًا وتنكيلاً، وكلما تذكرت ما فعلته بها في نومها الأخير بالمشفى امتلأت روعي بالفرح والتشفي وسقط بعض همومي وأثقالتي.

"فعلت بمن؟".

بانسراح هانم.

"أملك؟".

نعم من غيرها.

"ماذا فعلت؟!".

دخلت عليها وكان أنبوب الأكسجين مثبت فوق أنفها، لم أشعر بالشفقة عليها لحظة، حتى وجودي بجوارها في ساعاتها الأخيرة كان اضطراريًا، كنت أنظر إليها شامئًا سعيدًا، أنتظر لحظة سقوط أكبر الجدران الجاثمة على صدري، كانت كآلة عملاقة معدة لتشيد الحوائل، كلما هدمت واحدًا من جدرانها سرًا بنت ألفًا غيره علنًا، تراقبني، ترسم لأقدامي الطريق فلا تحيد عنه، تبني مستقبلي وفق تصوراتها وطموحاتها وقناعاتها وتدعوني للسكنى، تفكر وتقرر بالنيابة عني.

فتحت جفنيها فرمقتني بعين يترنح بريقها، كانت تتمنى لو تخلد في الأرض، وأنا ظننت زمنًا أن مثلها لن يموت، اقتربت منها حاملاً كل ذكرياتي السيئة، كل أسباب الكراهية ومبرراتها، كل براكين الغضب

المكظومة، دنوت منها، رفعت ذراعها شبرًا، فتحت كفها تستجدي كفا حانية، وقفت أمامها كلوح ثلج مزدحم بالبرود والجحود ورغبة الانتقام، ملث على أذننها اليسرى فقلت لها وأنا عالم أن سلطانها الغابر لن يعود:

- سيدتي الحديدية، كم أنا سعيد بهلاكك، وأتمنى لو أراك تهلكين كل يوم، وأبشرك بكرسي من نار ينتظرك في قاع الجحيم.

"هل فعلت هذا حقًا؟!"

نعم فعلت.

"لا أصدق هذا... أنت مجنون".

ولم أشعر يومًا بالندم فبفضلهم تحولت لآلة باردة تؤدي برامجهم اللعينة، حتى وأنا في قمة بغضي لهم ورفضي لما جعلوني عليه، أكرر العادات المقيتة كآلة، إنه اللاوعي يا سيدي، اللاوعي، أنا أكرههم، أكره اختياراتهم، دراستي، ثيابي، قصة شعري، زوجتي، حتى كريم الذي يظن أنني قتلت أمه واهمًا لم أشعر

بعاطفة تربطني به يومًا، من لحظة زفافي بسهير وأنا
أرى دماء أُمِّي تسيل في عروقها، نفس البرود الأزرق،
نفس المحرك الذي يضخ الدماء، نفس العقل
الإلكتروني الذي يرسل الإشارات للجسد ليتحرك
بالطريقة النمطية المثالية، عندما خلعت فستانها،
شعرت بأن عروقها الزرقاء خراطيم توصل الزيت
للأعضاء كي تحركها، حتى ممارسة الجنس كانت
عملية عضوية هدفها صناعة جيل جديد من الآلات، لم
تتحرك شهوتي عليها يومًا ولم أطلب منها أن تمثل
دور الحبيبة.

لم أقتل زوجتي يقيئًا، لكن ما أثق به أنني وضعت نقطة
كبيرة في آخر السطر من حياة أُمِّي، فبعد أن لقنتها
كلماتي الأخيرة توقفت حركة عينيها المذعورتين كفأر،
أدرك سقوطه في المصيدة تَوًّا، تحجرت، سقط فكها
السفلي وارتخى اللسان على شدقها الأيسر، صفرت
الأجهزة وأنا ساكن، سمعت الصغير زغاريد طرب قلبي
بها كنت أريد أن أرقص، جاء الطبيب وكثير من
الممرضات.

جهاز الصدمة الكهربائية يعذبها العذابات الأخيرة، ينظر إلي ويقول: ها هل يعجبك هذا؟ هل يرضيك؟ فأقول له: نعم بكل سرور يا عزيزي، أشكرك، ممتن لك.

دائمًا أتذكرها عقب كل لقاء مع الشيخ نور، ربما كان هذا اختبارًا لنفسي لأعرف من خلاله ما طرأ على قلبي من محبة وتسامح وتصالح، لكن الحقيقة لم يحدث من هذه الناحية أي تغيير، فأنا أتصالح مع العالم كله تدريجيًا وأكاد أتسامح مع الشيطان نفسه، لكنني ما زلت فرحًا بتوصيل رسالة مقتي لها قبل أن ترحل.

(20)

لم يعد خبط زينب في الأصباح يزعجني، بل أشعر بالراحة كلما تقتحم نقراتها أحلامي أو سمعي الغافي، فخطها لغة خاصة تعبر به عن تخطها وارتباكها، عن تورطها في حياة غير عادلة، لقد أصبح خطها صباحًا وطرق أمها ظهرًا مواقيت أستطيع أن أضبط ساعتني عليها، لم تفكر أميرة يومًا أن تنازع أم زينب في حقها الحصري في إفطاري، نفس الطبق ورغيفي الخبز وأقراص الطعمية وشرائح الباذنجان المقلي وبيضة زينب، أفطرت في ذلك اليوم وكانت الشمس حنونًا والجو لطيفًا، السحابات تتحرك بنعومة، نسمة جميلة مرت فجعلت الصفائح الصدئة تهتز وشعر زينب المجعد يرتعش. خرج الشاب السوهاجي يحمل كوب شاي غامق واتجه صوب سور السطح فاتكأ عليه بمرفقيه، لم يلتفت لنا ولم يُلْقِ علينا السلام كعادته، ما لبث دقيقة واحدة حتى عاد إلى غرفته مهرولًا فارتدى ثيابه في زمن قياسي ونزل متعجلًا.

ذهبت أميرة لترتب الغرفتين وتكنسهما، وغفت أم زينب في مكانها، أما زينب فمكثت قريبة من إسلام وحبيبة تشاركهما اللعب بعينيها وقلبها، تبرق عيناها حينًا وتخبي ضحكة طفولية حينًا، وجهها لا يبتسم أبدًا ولا يبكي، فقط عاقدة الحاجبين كأنها عابسة، أما عيناها ففيهما الحياة كلها، تضحك وتبتئس وتلهو وتدنو وتناي، تشير إلى مكان المختبئ ليراها الباحث منهما في لعبة الغمضة.

هذا اليوم جميل بصورة استثنائية وتحمل نسماته سلامًا وطمانينة تريح النفس وتبث فيها نفحات السعادة، مرت ساعتان وأنا مستغرق في تأمل السحابات القطنية الهشة وهي تسير، أتخيل الكون كيف يكون، أناجي الله بلا علم ولا خبرة بأصول المناجاة والوصول لكني مدرك تمامًا أنني معجزته الكبرى، وأنه ينتظرني كأنما لا يوجد بالكون كله إنسان غيري.

صعدت هرة بيضاء اللون السور بقفزة واحدة رشيقة، وقفت عليه مستقرة مطمئنة، ما أجمل الهررة، لا

أتصور شكل الحياة دونها، في زمن بعيد خرج البابا للناس، عنده فوبيا الهررة -ربما- أو يكرهها لسبب ما لا أحد يعرفه، قال والرعايا تحت قبضته جالسون: "إن الهررة تجسد الشيطان"، وسقاهم دم المسيح نبیذاً، فخرجوا سكارى بأمر نائب الرب يجتثون رقاب التوازن أينما وجدوها.

اتبعث حركة رأسها وعينيها، تساءلت: فيما تفكر وإلى ماذا تنظر؟ انتابتها حركة مباغته ثم سكون، ترى هل تسمع دبيب المؤمنين القادمين لقتلها؟ في ذلك الزمن البعيد تمت عملية الذبح الجماعي، وفي كل زمان دائماً ترتكب المذابح باسم الرب، انتشرت حينها الفئران بصورة رهيبة، في الحقول والطرق والمجاري والبيوت وفي كل شق وجحر وثقب، توصل الطاعون الأسود لكل إنسان، من آمن بأن عبثية مزاج الرب وعدم جدوى أحكامه حق والصامتون الساخرون سرّاً، فحصد الطاعون أرواح الجميع.

الجميع إلا قليلاً...

سكنت الهرة البيضاء تمامًا كأنما تحولت إلى تمثال، انتصبت أذناها بانتباه ثم بدأت تتابع شيئًا ما يحدث بالحارة، ولم تمر إلا برهة حتى سمعت النساء يصرخن صراخًا متتابعًا متقطعًا متوحدًا متصاعدًا، تلا الصراخ حركة كالزلازل هزت البيت بسبب جري السكان ليستطلعوا الأمر، خرجت أميرة هلعة، جرت وابنيها اتجاه السور، انتفضت أم زينب الراقدة تريدني أن أساعدها على النهوض، أنهضتها ثم هرولت لما سمعت أميرة تولول كما تولول النساء وتقول:

- علام يا صالح! سيقتلون علام!

ماذا به يا ترى؟ نظرت من خلال السور فإذا بالمسكين محاط بجعفر الإبلis وثلته يضربونه بالعصي الغليظة وجعفر يمسك بيمينه مطواة يلوح بها في وجه علام لكنه لم يستخدمها، أخذت أناديه وهو يسب دين علام وأمه ويصفعه بقسوة مفرطة مهينة، نزلت جريًا وقفزًا كأني ابن عشر سنوات، حتى صرت واقفًا بينهم وأخذت أستجديه:

- جعفر.. بالله عليك اتركه!

- ابتعد يا دكتور، دعني أربي الكلب ابن الزانية.

- جعفر أرجوك، جعفاارا!

لم ينتظر اللعين وإذ بعرق خشب مربع الحواف ينزل على رأس علام بسن مدبب، انشج الرأس وانبجست منه دماء غزيرة، هجمت أحول بينهم، لكن المجرمين عرقلوني، رفع جعفر وجه الفتى بيده ثم بصق عليه وصرخ بصوت عالٍ:

- لا بد أن أكسر عينك وأن أعلم وجهك بعلامة، لا تنساني بعدها أبدًا يا ابن الوسخة.

كان السكين يقترب من وجه الغلام، والمجرمون واضعون أرجلهم على ظهري وأنا أتوسل إلى جعفر ماذًا يدي، اخترق النصل خد الغلام وتحرك من أسفل العين متجهًا لشدقه، فغمرت الدماء كل وجه الفتى وثيابه، حتى أرسل الله النجدة، إذ بسعيد قادم، يجري حافي القدمين مرتديًا ثيابه الداخلية البيضاء، وكثور

هائج ضرب ظهر جعفر بكفيه ضربةً طرحته على وجهه أرضًا.

- ماذا بكم يا أولاد الكلاب؟ ألا كبير لكم في هذه الحارة؟!

صرخ فيه اللعين:

- تضربني من أجل هذا الكلب؟ لقد رأيناها يسير في الميدان مع البنت نسرين بنت نبيل الحلاق، نحن لسنا قراطيس هنا في الحارة، لا بد أن نربيها ونعلمه الأدب!

لم تغيّر كلمة جعفر من الأمر شيئًا، فجريمته ليست ضرب علام، لكن أن يضربه دون إذن منه، ربما.

- أنا من يقول من مخطئ ومن مصيب، أنا من يقول من يستحق العقاب وكيف يعاقب يا كلاب!

انسحب جعفر بعدما زحف على بطنه لمسافة مترين، ثم فرت عقبه ثلثه الأشقياء، جاءت إحدى السيدات بقطعة قماش وفي يدها اليمنى قبضة بُن، كبست بها

جراح عَلام ثم حملة شباب الحارة الطيبون وهو فاقد الوعي تمامًا وجروا به صوب المشفى العام، ونحن هرولنا نلحقهم.

كانت كراهِيتي لجعفر جلية من أول يوم رأيتَه فيه، كنت أوارِيها قدر المستطاع، لكنها زادت وطفَت حتى شغلتني، كنت أضبط عقلي يتخيل مشاهد مختلفة لنهاية ذلك الشقي التعيس، أتخيل أني أضربه وأعذبه بل وصل بي الخيال الجميل أني أذبحه وأمثل بجثته، حلمت ذات يوم بأنني أقذفه من فوق السطح، كم كان حلمًا جميلًا وقمت منه هادئ النفس مسرور القلب رائق البال، لكن مع الأسف اكتشفت أنه كان مجرد حلم، الآن وبعد ما صنعه بعلام فقد زادت كراهِيتي له أضعافًا مضاعفة.

"من فضلك يا دكتور انتظر دقيقة واحدة لو سمحت أريد أن أدون شيئًا".

ماذا تكتب سيدي؟

"هنا نقطتان هامتان يجب أن أدونهما حتى لا أنساهما".

أي نقطتين؟

"مشاجرة جعفر مع علام وحلمك بدفعه من فوق السطح، إنك تزيد الأمر عليّ تعقيدًا والتباسًا".

أعلم أن كل كلمة أنطق بها خطيرة وقد تسبب لي متاعب كثيرة لكني ملتزم بما اتفقنا عليه، الصراحة والدقة، هل انتهيت من تدوين ملاحظاتك؟

"نعم انتهيت، لنعد مرة أخرى إلى ما جرى بالحارة".

عاد علام لغرفته بعد يومين من العلاج بالمشفى، قال سعيد في محضر نقطة الشرطة الملحقة بالمشفى: إنها كانت حادثة اصطدام بسيارة. لم أفهم حينها لماذا لم يقل الحقيقة ويخلص الحارة من شر ذلك المجرم وبلاياه؟

قمنا على المسكين أنا وأميرة ساهرين، نواليه بالرعاية
والاهتمام أيامًا عديدة، ظهر عليه التأثير لجرح كرامته
وكبريائه وتشوه وجهه، وعبر عن رغبته في التآرقائلا:

- لا كرامة لصعيدي يترك تأره!

لكننا نهيناه كي لا يضيع مستقبله، فهو شاب جامعي
نابه ومتفوق وينتظره مستقبل مشرق، أما جعفر
فمجرم لا قيمة له، شعر الولد بالهزيمة والانكسار كما
بدا في نظراته الامتنان لوقفتي معه يوم المشاجرة
وبعده، استغل حالة الصفاء بيننا واندفع يقتنص مني
الحكاية.

(21)

كانت لوحاتي المعلقة على جدران غرفتي الأربعة تثير أعصابها، لم أستطع تفسير الأمر، كيف لسيدة تهتم بالأثاث أكثر من ابنيها وزوجها أن تكره لوحات فنية أجمع كل من رآها على روعتها، حتى أبي قد أبدى إعجابه بها أكثر من مرة، لكن تغير موقفه فجأة ودون سبب معقول فأصبح يعبر عن استيائه مثلها تمامًا، لكن ذلك الاستياء لم يصل بعد إلى درجة المقاومة الصريحة لموهبتي، حتى حدث الصدام الأول عندما حصلت على درجات متوسطة في الثانوية العامة، وقع الخبر على أسماعهم كدوي انفجار قنبلة، فكروا حينها أن الكلية المناسبة بعد فشلي الذريع هي كلية الحقوق لأن لهم علاقات وأقارب مستشارين وقضاة يستطيعون تعيني في النيابة بكل يسر بعد التخرج، لكنني رفضت بقوة وأقسمت على أن أنتحر ولا أدخلها، لم يكن فشلي في الحصول على درجات كبيرة هو جرمي الأكبر، وإن كانت جريمة كبيرة بلا شك ولا يوجد عقاب مكافئ لها عندهم، لكن الجريمة الكبرى

كانت عندما مارست حق الاختيار، جريمة عظيمة تستحق أقسى أنواع العقاب.

- قررت أن أدخل كلية تربية فنية أريد أن أصقل موهبتي بالدراسة.

وكأني حينها قررت أن ألد أو أن أقوم بعملية تغيير النوع من ذكر لأنثى، فقال لي أبي وهو يؤدي دور الحكيم:

- تخيل يا صالح ماذا يحدث إن قرر كوكب الأرض الرحيل عن النظام الشمسي؟ سيضل ويهلك حتمًا، نحن أكبر منك وأكثر خبرة ولا بد أن تثق باختياراتنا وبأننا لا نريد إلا مصلحتك؟

نعم نعم، كوكب الأرض حتمًا لا يعرف مصلحته، أنا من وجهة نظرهم كوكب الأرض أما هم فالنظام الشمسي، لكن اسمح لي يا أبي باختيار مصيري حتى لو اعتبرتنى كوكبًا عاقًا مارقًا.

- سأختار ما أحب ومتأهب للهلاك من أجل اختياراتاتي

بدأت حرب ضروس وكلما تمسكت برغبتني، أصبح رد فعلها أكثر عنفاً وقسوة وانتهى الأمر في ذلك الصباح البعيد، شممت رائحة شيء يحترق، شعرت بالاختناق وظننت أن ما هذا إلا وهم، قمت متحرّكاً أقصد الثلاجة لأروي ذلك الظماً الذي باغتني، وجدتها واقفة في وسط المطبخ، تضع حلة على الأرض وتحرق فيها بعض الأشياء التي لم أميزها بادئ الأمر، رأيت نظرة التحدي في عيني من الحجر، أصبح المطبخ ساحة عراق اصطكت فيه نظراتنا رغم إنني لم أعرف بعد ما هو الشيء المحترق، تذكرت حائط الغرفة، كيف لم أنتبه لعدم وجود اللوحات، هل هذا من أثر الظلام بالغرفة المحكمة التعقيم أم بسبب الاختناق من الدخان، لمحت بعيني ذلك الجزء الذي لم تصل إليه النار بعد، كان لنهدٍ يمدُّ طفلاً جميلاً باللبن، أحرقت جميع لوحاتي وحطمت أدواتي.

ثرت وكلي حقد وكراهية وبت أحلم بموتها كل يوم، وصلت بي الأمور للاكتئاب ورغبة صادقة في الانتحار، لكن أبي نجح بإقناعي بعد عدة جولات من الشجار

والمجادلات على اختيار كلية غير كلية التربية الفنية، فوصلنا لاختيار كلية الآداب، فلهم أيضًا علاقات تستطيع تعييني معيدًا بها، وذلك بعد الانتهاء من سنوات الدراسة الجامعية وكالعادة أنهزم وأرضخ بعد ثورة غضب عارمة، لكن بذرة الكراهية ساعتها نمت فأصبحت شجرة، ثم غابة، انعزلت عنهم وقررت أن أنتقم منهم بممارسة الرسوب المتكرر، لكن ظهور سماح في المشهد غير الأمر برمته وجعلني أعدل عن نيتي ولولا ظهورها لأحرقتهم جميعًا وانتحرت، حتى إنني عدت للرسم لأخلد وجهها، فرسمتها سرًا فكانت أجمل لوحة في التاريخ، كم كنت أحبها، أحببتها سرًا وكذلك رسمتها سرًا كي لا يحاربوا مروقي من جديد ويرجموا عصياني المتكرر بارتكاب إثم الاختيار.

"دكتور صالح اسمح لي أن أستوقفك هنا".

تفضل.

"الحقيقة.. لا أستطيع أن أخفي عليك ريبتي بخصوص ما تنقل من كراهية انشراح هانم لفنك، وإصرارها

الدائم على تحطيمك، لا أجد مبررًا لهذا، إنها أمك وهي سيدة من سيدات المجتمع الفضليات ولها نشاط خيري يثني عليه الجميع".

لا بد أن تصدق كل كلمة مني، إنها حياة عشتها أكثر من أربعة عقود وليس يومًا أو يومين، والأمر لا يتوقف عندها بل كان أخي عفيفي متضامنًا معها دومًا كأنهما اتفقا على شيء ما، فهو دائمًا ما يقف أمامي كلاعب تنس في أرض أخرى بيننا حاجز عالٍ، يسد لي الضربات من بعيد معتمدًا على قوة الأنانية والرغبة الجامحة في أن يستأثر بكل شيء على حسابي.

"هذا الأمر واضح وبسيط من وجهة نظري، فهو كان دائم التفوق ولا يخذلهما أبدًا".

ليس التفوق، فكما ذكرت لك سابقًا.. التفوق عندنا ليس بميزة.

"ما تفسيرك إذا؟".

الأمر ببساطة أنه وكلّهما بالاختيار نيابة عنه، ألقى شخصيته وعقله إلى درجة أنه حصل على درجات ممتازة يستطيع بها أن يصبح طبيبًا أو مهندسًا، لكنه رضى لرغبتهما في إلحاقه بكلية الحقوق بعدما بدا لهما منصب القاضي مغريًا ومتناسبًا مع المرحلة، وهو لم يقاوم فهو يعلم طبيعتهما الوصولية التي تروقه، وبالفعل بعدما تخرج استطاعا بما لديهما من معارف إلحاقه في سلك النيابة العامة.

"القضاء رسالة عظيمة، لم لا تنظر للأمور من منظور آخر؟".

قل لي يا سيدي لو أن هناك عدة أشخاص ساعدوك في الوصول إلى منصة القضاء، وأصبحوا ذوي فضل عظيم عليك، ثم ساقهم القدر إليك يومًا متهمين في جرم ما ارتكبوه، هل ستكون محايدًا متجردًا في الحكم عليهم؟

(22)

في نهار اليوم السابع من المشاجرة جاء سعيد يزوره،
 بدت زيارته في نظري لفتة إنسانية عظيمة حتى تكلم
 وأفصح عما يضره، فجعلني متحيرًا لا أعرف يقينًا
 هل يستحق أن أكرهه أكثر من أن أحترمه، فرأيت
 لأول وهلة أن حكمه كان جائرًا، لكن بعد تفكير متأن
 غيرت رأيي.

- قل لي يا علام، واصلني القول ولك مني الأمان، هل
 حقًا كنت تسير مع نسرين بنت أم عريان كما ادعى
 جعفر؟

سكت علام وعرفنا جميعًا الإجابة قبل أن ينطقها
 متلعثمًا:

- نعم.

- لو كنت رأيته معها لكنت قتلتك، هل تأتي من أقصى
 الصعيد لتستحل بنات الحارة، ماذا ستفعلون بالصعيد

إن سكن أحد أبناء القاهرة عندكم واستحل بناتكم ماذا ستصنعون به؟

تقمص سعيد دور القاضي بعد حديث مقتضب مع علام، وأصدر حكمًا باتًا قاطعًا لا استئناف ولا نقض له بأن يرحل الفتى عن المنطقة كلها بلا رجعة، وقد امتثل علام وهو عالم أنه مخطئ ولا أحد سيقف في صفه وأن دمه -بعد حكم سعيد- سيصبح مُهدرًا.

"جريمة تافهة بالنسبة إلى ما يحدث في الحارة من آثام، كما أرى أن العقاب قاسٍ جدًا لا يتناسب معها".

جائز أن تتعاطى المخدرات بالحارة متواريًا أو تبيعها جهزًا، وجائز أن تسكر وتسير مترنحًا تحاور الكلاب الضالة وتحاورك، وجائز أن تراقب النساء من خلف النافذة، لكن ما لا يجوز مطلقًا هو أن يأتي غريب ويفعل هذا بنساء الحارة، تلك هي الجريمة الحقيقية من وجهة نظر سعيد وغيره من رجال الحارة، شيء من النخوة صامد في غياب المنطق، ولنفس السبب لم يتدخل سعيد عندما ضرب إبراهيم صاحب غية

الحمام وإخوته الساكنون بالحارة المجاورة جعفر وثلثه، لقد طحنوا عظامهم طحناً، ولعبوا بكرامتهم لعباً بسبب تصدي جعفر لإحدى بنات حارتهم وتعديه عليها في الشارع الرئيس بكلام خادش للحياء.

"يبدو أن جعفر هذا شيطان حقاً كما يلقبونه، فلا مصيبة تذكر إلا واسمه مقترن بها"

جعفر أتفه من أن يكون شيطاناً، فالشيطان هو حكيم الشر الأعظم، القادر على الإغواء والوسوسة، له هدف محدد ومهمة واضحة، ناجح عبقرى استطاع هزيمة الإنسان في أغلب معارك حربه الأبديّة الضروس، أما جعفر فهو هش تافه حقير، قبضة من تراب مرّ من فوقها الخنزير فنجسها، ليس لديه التأثير ولا القوة ولا حتى القدرة على إقناع مخلوق بأن للخطيئة دائماً وجهًا حلواً يستحق المجازفة، كما أنه ليس قوياً بدنياً فما أكثر المرات التي ضُربَ فيها، أو سبق الريح هرباً من كمين صنعه له أحد الأشقياء الكارهين له، إنه مجرد شخص مقرّف ومزعج، ربما أخذ هذا اللقب من كثرة المشكلات التي يثيرها مع الجميع وفي كل حين.

"دعنا من جعفر وحدثني قليلاً عن مسار علاقتك بأم إسلام وتطورها خصوصاً بعد موقفك البطولي في حادث علام؟".

الحقيقة أنني اكتسبت احترامها وتقديرها وتغيرت معاملتها معي تمامًا، فقد رأيتني بعد سلوكي يوم المعركة رجلاً شجاعاً ذا شهامة لأنني عرضت نفسي للخطر من أجل علام، وامتد تأثير شهامتي يوم المشاجرة للأمين سعيد كذلك، فانفتحت بيننا صفحة جديدة بها قدر كبير من الاحترام المتبادل وشيء من المودة، وقد طلب مني أن أسهر معهم وألا يضغط عليّ أحدهم للتدخين أو الشراب، لكنني رفضت بتأدب فبعث لي بشريط برشام مع الشيخ نعمان كهدية وقال:

- جرّبها في جلساتك مع الدراويش، وشُف تأثيرها.

أخذتها ونويت أن أرميها فعلاقتي بالشيخ نور والذكر هي علاقة وعي.

"لا تغير دفة الحديث لسعيد وأكمل الحديث عن أم إسلام".

آه، علاقتي بها أصبحت تشبه الصداقة، نتكلم كثيرًا، نفتح قلوبنا في أحايين كثيرة، حكّت لي عن حياتها وزوجها الأول الذي سقط من الطابق الخامس من فوق سقالة، وأنا حكيت لها عن حياتي ولم تخف دهشتها لما عرفت عن مكانتي الأدبية والاجتماعية التي خسرتها دون مبرر منطقي، لكن علاقتنا خلت من أي مشاعر عاطفية قد تكون بين رجل وامرأة، حتى المصافحة تتم بطريقة اعتيادية تخلو من ضمة الشغف أو الرغبة، وبالطبع خرجت فكرة العناق تمامًا من قاموس علاقتنا.

"وهل تغاضت عن تهريبك من الصلاة بهذه السهولة؟".

لا طبعًا، فمسألة الصلاة نقطة الخلاف الوحيدة التي لا تسامح فيها، ودائمًا ما تكون سبب شجاراتنا، لكنها لا تنكر جميل صنعي وعرفانها بمحاولتي الدائمة لشرح المناهج الدراسية لولديها، أحاول أن أجعل لنفسي أي

قيمة مضافة في حياتها في مقابل اهتمامها بي،
يكفيني أني ضيّعت حقها في زوج يروي ظمأها.

(23)

جاء علام لغرفتي عصرًا قبل الرحيل وطرق الباب، لم أتوقع أن يودعني فقد توقعت أن أخرج من الغرفة في وقت ما فأجده قد رحل وقد ترك لي ذكرى باهتة سأنساها سريعًا، عانقني والدموع تملأ عينيه وبدأ عليه التأثر، أهدى إلي كراسة الرسم وأقلامه.

مرت الأيام اللاحقة على رحيله متسمة بالهدوء النسبي وكنت قد بدأت في الانسجام مع حياتي الجديدة ولم أعد أشعر بمرارتها أو الاستياء من اضمحلالها، خصوصًا بعدما أظهر لي الجميع مشاعر الاحترام والتبجيل بسبب تصرفي مع علام، حتى جاء ذاك الصباح، كان ساكنًا يتقدم خلال الزمن في صمت، نعم مَرَّ مربكًا مقلقًا بلا خطبها، عدة أشهر لم أعد أحصيها مرت وأنا أسمع خطبها كل يوم، ساورني القلق، كآبة كونية أتوقع حدوثها بلا اكترات، الشمس تسطع بالنهار كل يوم والدنيا تضيء، الظلام يسود كل مساء وتظهر النجوم، تضرب الفتاة علبتها الصدئة الساعة السادسة كل شروق، من يكثر بالظواهر الكونية الاعتيادية؟ أفقت

في موعد خبطها اليومي لكن لم يحدث أي خبط،
عجيب جدًا أن يأتي الموعد بلا خبط.

قلقًا كأن النهار لم يأت في مواعده واستمر الليل
سرمديًا، انتفضت، استغفرت الله، تمتمت بـ"اللهم
اجعله خير".. أين زينب؟ نظرت في ساعتني لأتأكد من
الموعد، بالفعل الوقت قد تأخر والبنت لا حس لها ولا
خبر، نظرت من خلال النافذة ولم أرَ مخلوقًا يتحرك،
حتى الدجاجات ثارت بعدما تأخر إفطارها ساعة،
فأخذت تصيح غاضبة منددة منادية، قلت: لعلها
متكاسلة أو تعاني من مرض البرد وستكون بخير لا
داعي للقلق، أعرف أين تضع العلف، قمت وكان الجوال
معلقًا على مسمار مثبت بالحائط، حملته على ذراعي
كما تحمل الأم مولودها لترضعه، أزحت قفصًا يسد
العشة فخرجت الفراخ تجري اتجاه الغرفة تنادي
صاحبتهن، فأخذت قبضةً من العلف ورميتها في الهواء
وصفقت محاولاً تقليد الفتاة، التفت الطيور حولي
وبعضها يرفرف ويقفز يريد أن يصل إلى الجوال،
فأخذت أرمي حفئات متتالية في كل اتجاه حتى

انشغل كل طائر بطعامه، رفعت الجوال وعلقته في مكانه بعدما ربطته جيدًا، ثم توجهت لباب أم زينب فطرقته، سمعت صوت زحف ثم سحب للعصا واقتربت الخطى حتى انفتح الباب، يبدو أن العجوز كانت مستغرقة في النوم.

- خير يا ولدي؟

- خير إن شاء الله يا أم زينب، قل لي لماذا لم تستيقظ زينب لتطعم الفراخ؟

- كم الساعة يا ولدي؟

- لقد تخطت الساعة.

- هذا غريب حقًا استر يا رب.

دخلت توقظها وأنا مكثت مكاني مترقبًا، الفتاة نائمة لا تتحرك ولا تستجيب لهز أمها، زاد شعوري بالقلق لكني لم أحرك ساكنًا منتظرًا أي إشارة من العجوز.

- الحقني يا بني، زينب لا ترد عليّ، انجدني إنها باردة كالثلج.

دفعت الباب وهولت متلهفًا فإذ بالفتاة مرسلّة ذراعيها مستسلمة، باردة بطيئة التنفس، مرتخية الأعصاب، مفتوحة الفم يتجمع الزبد على شذقيها، حملتها وكانت كالوسادة الإسفنجية لا وزن لها، تترنح فوق ذراعي، نزلت أجري ولم أشعر بآلام ركبتي إلا بعدما وصلت إلى المشفى العام.

من بضعة وثلاثين عامًا في استقبال المشفى العام القريب من بيتي القديم، أجلسوني على الكرسي المتحرك، استقبالها يختلف تمامًا عن هذا المكان، كان إنسانيًا مهيئاً لعلاج البشر، أما هذا فلا، صرختُ من شدة الألم وقد تورم رسغي، وقدمي تنضح سخونة وزاد حجمها من التورم، كلما حاول الطبيب لمسها صرختُ وتوسلت إليه، عم حمدان يطمني ويربت على ظهري والقلق يغتال فؤاده، الدموع تسيل من عينيه ولم تتوقف عن انهمارها حتى أكدت الإشاعة صدق النبوءة وبدأ الطبيب في صنع الجبيرة، الأمر ليس خطيرًا جدًّا.

دموعي الآن هي الدموع ذاتها، وكأن روح عم حمدان
لبستني، القلق نفس القلق، لكن زينب ساكنة سكون
الموتى في حين كان صراخي قادراً على أن يوقظهم،
الطبيب الموجود ممارساً عامّاً، مصادفة يسير في
الاستقبال بخطى متعجلة يرتدي نعلًا من المطاط
الأبيض وسترة بيضاء، عندما رأنا غير وجهته وجاء
بنفس الحماس، تعامل معنا بلطف واهتمام، تناولها
مني ثم وضعها برفق على سرير جلدي في حجرة
قريبة بالطابق الأرضي وبدأ الكشف عليها، في غضون
دقائق قليلة رأيت بسمة الطمأنينة التي كانت تعلو
شفتيه تتبدد، ثم كسا أساريه الوجوه والقلق، طلب
نقلها فوراً للعناية الفائقة ولحسن حظنا أن سريرًا في
الغرفة قد أصبح شاغراً بعدما مات شاغله، كان فلاحاً
يعاني سرطان الرئة بعد سبعين عاماً من تدخين
الجوزة، مات في الوقت المناسب تماماً، مر الوقت
والدنيا حولي تدور في دوائر متداخلة، امتلأ قلبي
حناناً على الصغيرة، وتأكدت من حبي العظيم لها، بدت
في مرقدتها بريئة مسكينة، عروس بحر لفظتها
الأمواج، شعرت بأنها ابنتي التي لم أنجبها، انفطر قلبي

حسرة عليها، لحقتنا أميرة مسرعة ثم أم زينب التي أنهكتها المسافات، سقطت أرضًا وبدأت تحبو، لكن الناس أنهضوها، وبعد ساعة حضر الشيخ نعمان، سلم علينا وسأل عن الفتاة، لكن لا أحد يعلم شيء فمنطقة الرعاية منعزلة ولا أحد يدخلها سوى الأطباء والممرضين، الطبيب الذي كشف عليها رافقها ولم يخرج منذ ساعتين، السيدتان تكيان ونحن لا نعرف حتى هذه اللحظة حقيقة مرضها، استمر هذا الأمر ساعة أخرى حتى خرج الطبيب والإجهااد باديًا عليه:

- الحمد لله حالتها مستقرة الآن.

- ما بها يا دكتور؟ أرجوك اصدقني القول!

- أشك أنها مصابة بورم في المخ، لكن لن نستبق الأمور، حتى نرى الأشعة الخاصة بها، خير إن شاء الله، دعوا كل شيء لله.

ضربة كالصاعقة ورجفة كالزلال، حاول الشيخ مرارًا تهدئتنا لكن لا حياة لمن تنادي، وقبيل أذان العصر جاء

الأمين سعيد فسأل عنها ثم جلس بجوار الشيخ نعمان،
وبعدها بساعتين تقريبًا ناداني الطبيب:

- مع الأسف يا أستاذ لقد أكدت الأشعة ما كنت أشك فيه.

لم أُمِرَّ بمثل هذا الموقف من قبل، حتى هذا الشعور
بالمسؤولية لم أجربه.

- ما المطلوب؟ أرجوك يا دكتور أنا مستعد لأي نفقات
المهم أن تعود لنا سالمة.

ألقي نظرة أخرى على الأشعة، وقال:

- ستحتاج إلى عملية ضرورية لكن هذا المشفى غير
مهيأ لمثل هذا النوع من العمليات.

- لا مشكلة فلننقلها الآن إلى المشفى المهيأ.

دارت عيني الطبيب الشاب المشفق ثم قال بأسف:

- الأمر قد يكلفكم أكثر من مئة ألف جنيه.

كان الرقم كبيرًا جدًا وغير متوقع، هل أنفق على الفتاة كل ما تبقى لي من ميراث أمي، لقد اتخذت الكثير من القرارات المجنونة من قبل، كخوضي تجربة التدخين وشرب الخمر، أو كانتقالي إلى الحارة وتركى لشقة المهندسين، وضربي عرض الحائط كل نصائح وتهديدات أبي وأخي حتى خسرت الجميع، لو سحبت هذا المبلغ فلن يتبقى لي سوى مبلغ صغير بدفتر التوفير وأنا لا عمل لي ولا مصدر دخل آخر.

وكعاداتي الأخيرة فقد اخترت التهور والجنون، وجاء ردّي قاطعًا وقبل أن أتمادى في التفكير في العواقب:

- موافق، أرجوك ابدأ في إجراءات نقلها وأنا سأذهب في صباح الغد إلى المصرف وأحضر المبلغ كله.

عندما شرحت الأمر على المنتظرين بالخارج ذهلوا وأصبحت الصدمة مضاعفة، إنهم فقراء ومثل هذا المبلغ قد يغير حياتهم جميعًا بل قد يغير حياة الحارة كلها، لا يتقبلون فكرة اعتبار أن هذا التصرف من قبيل الشهامة والكرم، الشيخ نعمان قال: الفتاة لا أهل لها ولا

مستقبل ينتظرها، لماذا تضيع من أجلها كل مالك؟ أما أم إسلام فأولت الآية القرآنية {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} وقالت: ذكر الله المال قبل البنين، صدق الله العظيم، وزينب ليست ابنتك ولا قريبتك، أحياناً يكون الدين زادَ مَنْ لا زادَ له، لسبب خفي ربما ظلم الحياة وضيق الحال جعلاً أميرة تتناسى تكملة الآية {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً} طلبوا مني الصبر والدعاء فهذا قدر الله، لكنني أطلعتهم على قراري النهائي ولا رجعة فيه، صمتوا جميعاً، كانت نظرات عيونهم تقول: مجنون، هل هو منتبه لكلامه أم سكران؟ لكن نظرة أم زينب البائسة تقول: رجل طيب وابن حلال.

- أحبائي الحياة مواقف والمحن تختبر القيم.

لا يفهموني أو بمعنى أدق يرفضون أن يفهموني أما أم زينب فهي مثنية مقرفة في ركنها ولا تتوقف عن النحيب، وقبل أن تولي الشمس ظهرها كانت أميرة تصافح أم زينب وتواسيها في مصيبتها ثم عادت من أجل ابنيها الماكثين بالغرفة من الصباح بلا طعام، أما

أم زينب فحسمت أمرها من البداية وقررت أن تبیت بالمشفى ولم يفلح معها أي إقناع لتعدل عن قرارها، ذهبوا جميعًا وذهبت أحضر بعض الطعام والعصائر من أجل العجوز، وبتنا معًا على كراسي المشفى، ولم ترحمنا برودة الجو في تلك الليلة حتى كادت تجمد أطرافنا وتكسر عظامنا.

بالصباح طلبني الطبيب وقال إن بالإمكان رؤية الفتاة الآن، سرت اتبعه حتى وصلت إليها وهي محاطة بالأجهزة والأسلاك، المسكينة نائمة لا حول لها ولا قوة، فتحت عينيها العسليتين بكسل لوقع خطانا وكانت هذه أول مرة ألاحظ فيها لون عينيها، نظرت إلي نظرة غير التي اعتدتها، نظرة بنت إلى أبيها، مدت إلي ذراعها اقتربت منها فمسكت يدها وقبلتها، قبضت على يدي بقوة متشبثة جعلت قلبي يكاد ينفطر فانهمرت دموعي.

- لا تخافي يا حبيبتى ستكونين بخير إن شاء الله.

هل تسمعني أو حتى تفهم حركة شفتي؟ لعلها تشعر
بالطمأنينة، على أي حال ساعة وسيفتح المصرف
أبوابه وأحضر من أجلها النقود.

(24)

إلهي أنا لم أدعك يومًا، ولم أطلب شيئًا لنفسي، والآن أرجوك بكل خير صنعته في حياتي أن تشفي زينب، أنت قلت ادعوني استجب لكم، أرجوك أريدك أن تجيب دعوتي كما وعدت، الآن، لا أريد إجابة تأتي على هيئة مال أو صحة أو أي شيء آخر بل أريدها شفاءً لهذه المسكينة، إنها لم تفعل شيئًا واحدًا يستحق العقاب، وليست مهياةً للابتلاء، أرجوك اشفها لي ولا تؤجل الإجابة ليوم الغيب العظيم، يوم القيامة، إن كان وجودك غيبًا.. فأرجو أن أرى أثرك حاضرًا أمامي ولو مرة واحدة على الأقل، الآن وليس لاحقًا، أرجوك.

كان هذا أطول ليلٍ مرَّ عليَّ في حياتي، ليالي المشافي موحشة وطويلة، لم أتوقف فيه عن الابتهاال والتضرع إلى الله، أنظر إلى الساعة كل برهة لأجد أن الوقت لم يمرَّ منه إلا دقيقة أو اثنتان، حتى ظننت أن الموت أقرب من الصباح، بعدما انتهيت من زيارتي لزينب شكرت الطبيب ووعدته بالذهاب إلى المصرف وأن أعود إليه بالمال قبل الظهر.

وصلت إلى غرفتي فاغتسلت وبدلت ثيابي، فإذ بأميرة تلحقني قبل الذهاب إلى المصرف، تدعوني إلى الثاني، فليس من الحكمة أن أنفق كل نقودي من أجل فتاة لا تربطني بها أي صلة، لكن الأمر كان محسومًا بالنسبة إلي وخصوصًا بعدما قبضت الفتاة على يدي، رأيتها جميلة طيبة، غير متوحشة ولا متوجسة كعاداتها، عيناها العسليتان رائقتان، لون بشرتها قمحي ذهبي، فمها يشبه القلب، كيف لم ألحظ كل هذا الجمال من قبل؟

توقفت سيارة الأجرة أمام المصرف، فُتِحَت الأبواب لاستقبال الجمهور تَوًّا، هذا جيد يجب أن أنهي ذلك الأمر سريعًا وأعود للمشفى بالمال لعلها تنتقل اليوم لمكانها الجديد، أعرف مدير هذا الفرع فهو قريب لنا، لكنني سأتحاشى رؤيته فلا أريد أن يعرف مخلوق عن الأمر شيئًا.

بعد المقدمات الروتينية قال الموظف الأنيق إن الحساب ليس به أي رصيد، مما أثار دهشتي ثم غضبي، كدت أتشاجر لولا أن تمالكت أعصابي وفي

نهاية الأمر وجدت أنه لا مناص من مقابلة المدير، دخلت إليه فقام لي مرحبًا فصافحني وعانقني، وبعد التحية والسؤال عن الأحوال استفسرت منه عن الرصيد، حاول الهرب من عيني وكأنه يعرف كثيرًا من التفاصيل، وكنت أظن أن هناك خطأ ما في جهاز الحاسوب فقال:

- لقد مرت علاقتك بأسرتك بمحنة عظيمة حقًا.

- مع الأسف، لكن ما دخل هذا بالموضوع أرجوك قل لي؟

- لقد سحب كريم الرصيد كله بالتوكيل.

- كريم؟ متى؟ لم يخبرني أحد!

- مع الأسف كان هذا منذ أيام.

خرجت من عنده أركض كالمجنون أضرب الأرض بقدمي، توجهت فورًا إلى مكتب محامي العائلة فوجدته مغلقًا، سجلت رقم هاتفه المنزلي المكتوب

على لوحة بأعلى الباب، ونزلت إلى الشارع وحدثته من هاتف بأحد دكاكين البقالة وطلبت مقابلته فورًا فضرب لي موعدًا بعد ساعتين حتى ينتهي من أشغاله.

كانت نظراته كنظرات قريبي مدير المصرف، أشعر أنهما متواطئان بشكلٍ ما، سألته عن أمر حسابي بالمصرف فحكى لي أن كريم حضر إلى مصر من عدة أسابيع وقد علم بانتقالي إلى الحارة وأرسل من يلتقط لي الصور بشعري الكث ولحيتي الطويلة وملابسي الرثة وأرسلهم إلى أبي وأخي وسحب المبلغ كله بمباركة منهما.

- وما العمل يا أستاذ فؤاد؟

- لا تلومنَّ إلا نفسك، فأنت من أعطيته الحق في التعامل البنكي بالنيابة عنك.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا هائج أودُّ أن أحطم المكتب على رأس صاحبه، فقام يعانقني ويهدأ من روعي وأنا أسب الجميع وأكيل التهديدات.

- لقد سحب كريم كل رصيدي، أتعرف أن كريم ليس ابني من صليبي إنما بالتبني.

- أعرف، ولكن معه التوكيل، أنت من صنعت له التوكيل بكامل إرادتك ووعيك!

- كنت أريد أن يسحب به المصاريف قدر حاجته لم أعرف أنه سيكون نذلاً.

اقترح علي أن يرشح لي محامياً حاذقاً ليرفع قضية، وترجاني أن يكون هذا الحديث سرّاً، سرت هائماً في الطرقات، أحدث نفسي كالمجاذيب، وهل ستنتظر الفتاة نزاعاتي والقضايا والمحاكم، عدت إليهم أحمل خيبتني، ترى هل سيصدقونني؟ هل سأحتمل نظراتها؟ ماذا سأقول للطبيب إن كان قد سعى في إجراءاته، يا إلهي كيف يحتمل القلب جبال كراهيتي لتلك العائلة، دخلت المشفى فإذ بأم زينب تولول بصوت مبحوح وأميرة تبكي وتلطم خديها.

- ماذا حدث يا أميرة؟ خيراً!

- زينب ماتت يا صالح، زينب ماتت!

- أبهذه السرعة؟ مستحيل! لِمَ العجلة يا صغيرتي لِمَ؟

ذقت حسرة الفراق لأول مرة، كم هي مُرّة! لم أكن أعرفها، جلستُ على الكرسي أجهش بالبكاء، فيضًا قد طغى وكسر كل ما بُني من سدود وجدران في صدري، بكيت كثيرًا حتى سكت الجميع شفقةً ودهشة، جاؤوا يواسونني، وظنّ بعض الناس بالمشفى أن المتوفاة ابنتي.

موتها أربكني أكثر وأفسح مساحات للتيه كي يغزو عقلي، الحياة مربكة والموت مربك، جريت متخبّطًا في أروقة المشفى وهم ينادون المجنون الذي فقد رشده، ماذا كان حظها من هذه الدنيا؟ قطعة تربت في أحراش الحياة، لم تسمع صوتًا ولم تنطق حرفًا، ترى الناس كائنات غريبة، تخاف الاقتراب، تخشى الاختلاط، كيف أفسر وجودها في الحياة وأي رمز قد تعنيه للمحيطين، رأيت الشيخ نور باديًا من خلف غيوم الحزن بازغًا مضيئًا يقول لي:

- هل تظن أن قدوم زينب إلى الحياة عبث، موتها عبث؟! لا شيء في الحياة عبث!

عدنا إلى الغرف الحزينة التي اتشحت بالقتامة، جثم ظلامها الموحش على قلبي، أشعر بالاختناق، كأنما وُضِعَ الغطاء على رأسي وضيق الحبل على عنقي، متى يسحب الذراع كي أرى النور، متى يسحب لأستنشق الهواء؟

لن أرى زينب بعد الآن واقفة خلف الأشياء تراقبنا في قلق وتوجس، لن أراها تراقب إسلام وحبوبة ولسان حالها يقول، كيف تهدم الأسوار المنيعة فأفهمكما وتفهماني؟

- عدنا إلى السطح ولم تعد زينب يا أميرة!

تنظر إليّ بعين الدهشة، تراني مبالغاً في حزني، لكن ما ليس فيه شك أن صدرها صار يقول لي: أهلاً وسهلاً بك، مرحباً، أصبحت أتلمس بقع الظلام فألجأ إليها، ارتحت إلى الظلام وصاحبت الوحدة، تستيقظ أميرة

على نشيجي وتأسى لشجني، فتخرج وكلها شفقة،
فتجلس بجواري على الأرض ولا تبالي بالأتربة،
تضمني بذراعي الحنان وصدر الاحتواء.

- ما بك يا صالح، لقد طال حزنك وجزعك؟!

هل أبكي على زينب أم على حالي؟ الدنيا كلها قاحلة
في عيني، لا مال ولا عمل ولا أهل، ربما رجوعي إليهم
لن يزيدهم إلا شماتةً وتنكيلاً.

- لا حول ولا قوة إلا بالله من لي غيرك يا رب يخلصني
من الحياة.

- استغفر ربك يا صالح، ارم حملك على الله، ولا تكن
من القانطين.

(25)

زرت أم زينب وقد زادت عليها حمى الأئين، راقدة وما
زالت توسع لابنتها في الفراش.

- ما بك يا أم زينب؟ وحّدي الله، كلنا أبناءك.

- كانت تعانقني يا صالح أثناء نومها، تبت في نفسي
الطمأنينة، تدفئني في ليالي الشتاء القاسية، الحياة يا
ولدي شتاء، الناس شتاء، مَنْ لي بدفئها؟

الناس شتاء حقًا، برود وقسوة، رعد وبرق وغيوم
ملبدة، ليست كلمة العجوز عبثًا، تناوبت أنا وأميرة
خدمتها حتى تحسنت حالتها وعادت لجلستها الأولى
تحت العرش أمام باب حجرتها، لكنها لم تعد كما كانت
فقد أصبحت هزيلة ذاهلة، وأنا أصبحت أستيقظ كل
صباح أرمي العلف للطيور.

صمت المحزونين هو منطقة مغلقة ينفرد فيها المهموم
بالذكريات، يسترجع كل أحزان السنين، حتى الذكريات
السعيدة تتعسه، الحسرة، ما الحسرة، وما أدراك ما

الحسرة، كنت أتعهد إحداث هدم في جدران الوحدة
المنيعه فأمد يدي إليها بالحديث واسترجاع الذكريات.

- قولي لي يا أم زينب، ما اسمك الحقيقي؟

نظرت إليّ برهة متعجبة وكأن لم يكن لها اسم من قبل
ثم نظرت للمدى تستحضر روح ماضيها البعيد.

- اسمي وجدان.

- ما بك؟ هل نسيت اسمك يا غالية؟

- آه يا ولدي كدت أنساه حقاً.

- الناس لا تناديك إلا بأم زينب.

- لا أحد يعرف اسمي يا ولدي، أنا هاربة من أهلي.

- ولم هربت؟

- اللعنة على الشيطان، اتبعت الشيطان وكأن عقلي لم
يكن برأسي وقتها، من المؤكد أن القبيلة كلها قد

عيرتهم بهربي، لقد جلبت العار لأهلي كلهم من أجل الهوى، لعن الله الهوى.

- لقد فات أوان الندم ومر على الأمر سنين.

- لقد مر عقود خمسة، ولكنني أشتاق إليهم كثيرًا، ولولا خوفي الانتقام لعدت سريعًا. لقد تركت روحي هناك يا صالح، وأعيش ببدنٍ لا حياة فيه!

بدت كأنها تحدث شخصًا يتحركون أمامها بالغرفة، وتلاحقهم بعينيهما.

- هل كان حبك للفلاح قويًا حتى تهربي وتخسري كل شيء من أجله؟

- كنت حمقاء متهورة يا ولدي، والله لو عاد بي الزمان لما فعلتها أبدًا، أذكر ذلك اليوم كأنه أمس.

- احكي لي أرجوك.

- كان عبد الصمد يخدم مع أخي سهيل في الجيش في أثناء حرب 48 في فلسطين، وكانا كالإخوة أو أكثر، يزورنا في فترات متباعدة ونحسن ضيافته، خرج معنا للرعي أكثر من مرة وحكى لي عن الحياة في القاهرة وجمالها وأضوائها الكهربائية، شغفني حبه وقررنا الهرب معًا في يوم عرس هارون ولد سلطان، نسلك طريقنا والناس منشغلون.

- وأين كان عبد الصمد حينها؟

- كان يجلس بجوار سهيل، وكنت كل بضع دقائق أخرج لأراقبهما وأتبادل النظرات معه، رأيت بمنتصف الساحة خمسة خيول مزينة، يمسك عنانها شبّان شداد محنكون تقف على سنابكها الخلفية وترقص على صوت الطبل والمزامير، قام سهيل مختالًا ومشى يشق تلاحم الأبدان، شقها جسورًا غير هيّاب، فأوسعوا له حتى أصبح في المنتصف تمامًا، أشهر سيفه وأخذ يرقص كما يرقص الشباب المختالون بحسنهم وبهائهم، بينما أوماً لي عبد الصمد أن هيّا قد واثت الفرصة، علا الغناء والتصفيق وسهيل يضحك رافعًا حاجبيه مختالًا

بطوله الفارع وعضلاته النافرة الصلبة، ازداد الزحام حوله حتى اختفى بينهم، قام عبد الصمد وتحرك وتبعته عند المكان المتفق عليه وسرنا يسترنا ظلام الليل حتى وصلنا إلى مدق السيارات.

- يا الله، والله إنها لقصة كما نسمع في السير الشعبية.

- السير الشعبية تحكي عن الأبطال الشجعان لا عن الأئذال، عبد الصمد خان صديقه وأنا خنت أعراف القبيلة وقوانينها وجلبت العار لأهلي، والله يا ولدي إن الرمال بالصحراء لتنادي البدن، أتمنى أن أدفن بالصحراء، لم أجد في بلادكم إلا الوحدة والوحشة وقسوة القلوب.

سبحان الله، ما أعجب هذه الدنيا وما أعجب المقادير، فتاة صغيرة ملقاة في مقابر الصدقة وسيدة عجوز تمارس الحياة أكثر من سبعين سنة ولم تملأها الحياة بعد.

(26)

- من الموت تنبلج الحياة.

- صدقت يا شيخي الجليل.

حتمًا لم يكن موتها عبث، عندما رأيت جثمانها مكنونًا
في كفته، تلاشت المسافات بيننا، اقتربت منها كأنها
تنادينني، قوة جذب عجيبة، تمسك بتلابيب اللاوعي
وتسحبني.

- دعوني أحملها أرجوكم.

لمست جثتها، توحدنا اندمجنا، نتسربل بالرهبة ووقار
الموت، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، سعدنا عربة
نقل الموتى، ذهبنا بنا إلى المقابر، الجثمان يأخذ من
روحي ويبث فيها البعث، وقف التربوي ماذًا يديه كي
أناوله الجثمان، لكنها على حالها متشبثة بي لا تفلتني.

- أين السلم يا قابر الموتى؟

هبوط الدرجات ثقيل، وطريق البرزخ طويل، والحياة
جوال مثقوب تتهاذى منه الأنفاس، الأكفان في ركن
الظلام بعضها متراص وبعضها متكوم، الهواء غير
الهواء، أتنفس الموت، الغياب، النهايات، هل سأتركك يا
صغيرتي في هذا المكان الموحش؟

الوداع.

أنظر إلى نفسي في المرأة الموشاة بالقدم متعجبًا، هل
هذا صالح؟! يبكي، يحمل الموت، يدخل القبر، أشتاق
كثيرًا إلى التحليق يا شيخ نور، خذني إليك وتقبل
رفاتي، لملم شتات الروح، اغزلها مرة أخرى في
جسدي.

الله حي!

الله!

الله حي!

الله!

مدد يا سيدي مدد!

- سكنتك المواجه يا ولدي!

- تائه يا شيخ، جدني!

- القلب بوصلة والحب خلاص!

- أين الطريق يا سيدي أنا ضير والحياة غابة مهلكة؟

ما زال وجهه مضيئًا والطمأنينة مرسومة على جبينه،
حضر الذاكرون تباغًا وبدأ عزف الخشوع، حلقة كالفلك
والناس فيها كواكب، ارتفعت الأصوات بالدعاء
والمناجاة وطلب المدد، فانهالت علينا زخات الوميض
العبق برائحة المسك، كل شيء حولي اختفى إلا
السماء والضياء المنبعث منهم ومني.

- تحتاج يا صالح إلى رحلة لأعماق نفسك، لتكتشف
الكون الخاص بك، رحلة التزكية.

- كيف تكون سيدي؟

- في بيتٍ مات صاحبه من ألف عام في قلب الصحراء الغربية، لكن روحه ما زالت تسكن فيه، يأتي إليه كل من طلب السكينة، كل من انغمس في الحياة حتى غرق ويبحث عن النجاة، كل من توقف عقله عن تفسير الأحجيات، ومن لم يعد يحتمل قلبه الآلام، كل من تضاءلت أحلامه وتكاثرت خيالاته، البيت كان لولي من أولياء الله الصالحين، فر من بطش المذاهب وتعصب الأصوليين، اتبع السماء وإشارتها، حتى وصل إلى الصحراء الغربية، بنى بيته من الصخور وعاش يذكر ربه، وربّه يرسل إليه رزقًا من تمرٍ، ويفجر له ينبوع ماء، كل من أراد تزكية نفسه ذهب لبيت العارف بالله سيدي عبد الله جابر.

يبدو أن طريقي القادم ممدود بين صحراويين: صحراء العارف وصحراء الست وجدان أو "أم زينب".

احكي يا أم زينب عن حياتك القديمة والقبيلة.

- كانت فرشتنا من البسط المغزولة من الصوف المزينة بنقوشنا ورسومنا، أو فراء الخراف والماعز، السماء

غطاؤنا والنجوم زينة ترصعها، الهواء نقي يجيء من
 نبع الهواء الرباني، لم يمسه تلوث، كانت أجسادنا
 صحيحة قوية لا يعرف لها المرض سبيلاً، نستيقظ
 بالصباح نسوق الماشية والنوق لمرعاها، نسرّح خلفها
 فلا نخشى عليها إلا الذئاب الضارية، لكن كلابنا كانت
 لها بالمرصاد، كنا نجري ونلعب ونضحك حتى نرجع.

- الله، والله يا أم زينب إن الشجن ليأسرك أسراً،
 والغياب يخطفك خطفاً، زيديني من الفضاء إن الزحام
 لخانق.

- كان لنا شراب من لبن الماعز وفاكهة من التمر والتين،
 وطعام من الخبز والجبن واللحم، والله يا ولدي إني
 لأشم رائحة الصحراء اليوم جليلة تملأ صدري، خذني
 يا ولدي إلى الصحراء، حقق لي حلم النوم الأبدي فيها.

وكأنها اشتمت رائحة الرمال في نياتي، فقد اتفقت مع
 الشيخ نور أن نسلم روحينا للهجرة قريباً.

ماذا بك يا سيدي؟ صامت واجم لا أسكت الله لك
حسًا!

"والله لقد انفطر قلبي، آه يا دكتور صالح، ما كل هذا
الحزن والبؤس؟ لم أشأ أن أقاطعك إجلالاً لحزنك
وشجنك، لا يدور في رأسي الآن أي أسئلة، ما رأيك لو
نأخذ استراحة قصيرة نلتقط فيها أنفاسنا، أرى الذكرى
قد أجهدتك، دعني أمسح لك العرق وأحضر كأس
عصير طازجة".

(27)

- أخاف على أم زينب يا صالح، أسمعها تهذي صاحبة ونائمة، تحدث زينب، تناجيها، تطلب منها قلة الماء يا حبة عيني، توقظها لتطعم الفراخ، وأحيانًا تتحدث إلى أناس من أهلها، تدعي أنهم يكلمونها ويطلبون مجيئها.

كنت في حيرة من أمري هل أخبر أميرة بأمر هجرتي لبيت العارف في الصحراء الغربية؟ أم أرحل في صمت بلا منغصات، إنها قوية وسليطة وربما تكون حجر عثرة في طريقي.

- صالح! أنا أتحدث إليك.

- آه أسمعك جيدًا لكن لا أعرف بمَ أرد عليك.

- لا، أنت شارد وتفكر في شيء ما، ماذا يشغلك؟ أرجوك قل لي.

هذه السيدة المسكينة التي لا تغفل عنها المصائب أبدًا، أياكون آخر صبرها ودعاؤها أن يرزقها الله بزواج مثلي

لا فائدة منه، وسيهرب في النهاية باحثًا عن نفسه في
المدى المترامي في الفراغ.

- أم إسلام...

لم أعرف لِمَ تلفظت باسمها القديم، ربما هذا ما سيكون
بعدها تسمع الخبر فإنها ستطلب الطلاق حتمًا فأنا لم
أعُد سندها ولا حتى حائظًا مائلاً، كانت تمط شفتيها
لترتشف رشفة من كوب شاي، فالتفت لي بوجهها
والدهشة تمتطي نظراتها:

- أم إسلام؟!

- لقد نويت الرحيل، سأسافر في رحلة ولا أعرف متى
سأعود.

تجمدت برهة ولولا مداعبة النسيب لجلاببها لظننت أن
الصورة قد ثبتت، احتقنت وجنتاها واسود وجهها، لقد
صعّبت علي الأمر كثيرًا، ماذا أقول لها؟ تجمعت
دمعات رقيقة في مآقيها، دمعات حيرى تترنح على
حافة الحزن، دعوت الله ألا تسقط فيستقر لهيبها في

قلبي وضميري، حتمًا ستطاردني ما تبقى من حياتي،
استجمعت حروفها واستلهمت قوتها بجهد مختنق.

- متى؟

- لا أعرف بعد، ربما بعد أسبوع وربما بعد شهر لم يقل
لي الشيخ.

- أي شيخ؟

- الشيخ نور.

- متى تحدث إليك؟

- أمس.

- أي أمس؟ أمس بعد صلاة العشاء.

- هل جننت يا صالح، إنك لم تغادر السطح منذ وفاة
زينب، هل تأثرك بموتها أفسد عقلك؟

يبدو أنها كانت مشغولة بابنيها وأنا بالخارج، لا بأس
فلن أسمح لقوة على وجه الأرض أن توقفني مهما

كلفني الأمر.

- صالح، بعد صلاة العشاء كنا نجلس مع أم زينب خارج غرفتها وحكت لك عن أهلها وواحتها.

- لا لا، ربما كنت في غرفتك وقت ذهابي لساحة الذاكرين.

- حبيبي أقسم لك أنت لم تغادر السطح دقيقة واحدة حتى إن الشيخ عبد الرحمن زوج أختي جاء ليصحبك لصلاة العشاء، وأنت قلت له إنك مريض لا تقوى على النزول.

- لا، أنت تكذبين، لقد قابلت الشيخ نور وتكلمنا وحثني على الهجرة ورحلة التزكية.

استمرت على كذبها وإصرارها، إنها مجنونة وتظن أنني سأقبل مرة أخرى أن أعود للسجن بين جدران وصاية أشخاص جدد، اليوم أنا في مفترق الطرق يا زوجتي العزيزة ولن أكرر الخطأ مرة أخرى، فسجل الندم ثقيل يجثم على قلبي ولن أحتمل مزيدًا.

"لا أخفي عليك سرًا يا دكتور لقد بدأ الشك يتسرب إلى نفسي، حديث زوجتك منطقي تمامًا، يبدو أن شخصية الشيخ نور الدين هي شخصية وهمية صنيعة خيالك، وإن صح هذا فسوف يحطم كل ما بنينا عليه وسنبحث عن بدايات أخرى بفرضيات جديدة".

لا يا سيدي ليس وهماً أقسم لك، إنها تتبع نفس طريقة أُمي لتتحكم في اختياراتي وتوجيه مسار حياتي ليوافق هواها، لا أنسى تلك الجلسة من بضعة وعشرين عامًا أمامها، التي توالى بعدها الهزائم، كالسقوط المتوالي لقطع الدومينو، حينها أفصحْتُ لقائدة جيوش القهر...

"تقصد من؟".

السيدة الموقرة الجنرال انشراح هانم، أفصحت لها عن رغبتني في الزواج من سماح، نعم لا غيرها فأنا أعشقها وأهيم بها منذ رأيته في اليوم الأول من الدراسة، نعم من أول يوم، لقد كان ظهورها مميزًا، كأن تظهر الشمس بعد يوم بارد تتأمر فيه الغيوم لحجبها

وطمسها، وأنا لفتُّ انتباهها بطريقة تصفيف شعري الكلاسيكية وثيابي الباهظة الثمن، رأيتني أميرًا أرستقراطيًا ورأيتها غجرية برية جامحة، تلاقت أرضها مع سمائي، تقاربنا تمازجنا توحدنا، تعاهدنا أن نكمل معًا مهما كلفنا الأمر.

لم تبالِ أُمِّي بكلامي، كالأصنام كانت لا تسمع ولا تفهم ولا تشعر، فقط تعرف كيف تتحدث، كيف تعطي الأوامر بملامح صارمة، كيف تقهر إنسانًا قلبه مليء بالحب والحياة، قالت وليس لخبرها علاقة بما قلتُ مبتدأً:

- سأزوجك بسهير بنت شاكر بيه وعلياء هانم، عمها اللواء سراج الدين الأسيوطي، عائلة مشرفة تليق بنا، والفتاة متفوقة، محترمة وجميلة، لن تجد فيها عيبًا واحدًا.

لا أعلم من تلك السهير، وما علاقتها بموضوعي مع سماح، رفضت اقتراحها وتحدثت، مُصرًّا على رغبتني، وهي صماء لا سمع لها ولا بصر، انتهت حديثنا، وبعد

أسبوع حدثني أبي مرة أخرى عن الكائن الغيبي المدعو سهير لكني تمسكت بحبيبتني كما عاهدتها، فتدخلت انشراح هانم بنبرة حادة وكلام جارح مهين:

- يحب زميلته بالجامعة يعمل أبوها بائع جرائد.

كانت هذه الكلمة رصاصة الرحمة لحب بالغ كاد يفرح أبويه بعرسه، أصبحت كوطواط يتخبط في جدران غرفة ضيقة لا نافذة فيها ولا حتى بحجم طاقة صغيرة، انتهى الأمر بخذلاني لحبيبة العمر، تزوجت بشاب يعمل مدرسًا في السعودية، أبوه موظف متوسط الحال، وأنا عزفت عن فكرة الزواج ثلاث سنوات وفي النهاية تزوجت سهير بعد ضغط وإلحاح الجميع.

(28)

كأن نيزكًا أو صاعقة ضربت رأسي فجأة، تخبّطت الصور والأفكار وذكرياتي معه وأصبح الشك واليقين ككرات بلياردو تتلاقى فتصطدم فتتفرق فتعود تصطدم، أميرة لا تعرف الكذب نعم لم أرها يومًا تكذب، وقفت أمامها وكلي ثقة وتحذّ، لكن بكهف العقل وطاويط تتدلى وتهمس في أذني "مجنون مجنون" ارتديت ثيابي وخذائي، هبطت يومها السلم لا أرى أمامي، رغم يقيني بأنني كنت في حضرة الشيخ أمس لكن ليطمئن قلبي، لم ألحظ يومًا أن اليقين ليس كافيًا لجلب الاطمئنان، فتذكرت سيدنا إبراهيم:

- رب أرني كيف تحي الموتى.

- أولم تؤمن؟

- بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

خرجت من باب البيت لا أرى أمامي، الصورة كلها رمادية في عيني، سمعت صوت العم نبيل الحلاق

يحدثني بصوت عالٍ:

- كيف حالك يا دكتور؟ تفضل الشاي.

لم ألتفت إلى شايه ولم أرد على سؤاله، فقط سألته عن الطريق إلى مسجد التوحيد، فدلني، ذهبت إلى المسجد ووقفت أمام بابه، نظرت إلى اليمين حيث الطريق الذي يوصل إلى ساحة الذاكرين، تحركت مهرولاً يحث قلبي الخطي، وجدت حارات كثيرة متشابهة ومتشعبة عجزت عن الوصول فسألت مرة أخرى عن مسجد التوحيد وعدت له مرة أخرى وكررت البحث ثلاث مرات حتى سألت عن حارة فيها دكاكين تبيع السبح والبخور وسجادات الصلاة، فقال لي أكثر من واحد إنها ناحية مسجد الحسين وإن هذه المنطقة ليس بها دكاكين بهذا الوصف، ثم سألت عن ساحة الذاكرين لكن لم أجد من يعرف طريقها.

سرت مكبلاً بالإخفاق والهزيمة، أجر أذيال القنوط، قبضت عساكر الأسر على رجل ارتكب الجرم الأعظم، لقد حاول التحليق.

"التحليق في سماوات الوهم؟ أم إسلام كانت على حق، لا حول ولا قوة إلا بالله".

فتشتُ غرفتي لربع ساعة حتى وجدت سيجارة منسية تختبئ خلف الملابس، وزجاجة خمر كانت قد تدحرجت يومًا لتستقر بجانب الحائط أسفل السرير، انسكب معظمها ولم يتبقَّ منها سوى مقدار رشقات ثلاث.

"أجبني يا دكتور لو سمحت، أم إسلام على حق؟".

أغلقتُ عليّ المزلاج الصديّ وأشعلت سيجارتي، لكنني لم أحتمل الوحدة وحصار الوسوس.

"أرجوك يا دكتور توقف، وأجب عن سُؤالي".

ليست الساحة وهمًا ولا الشيخ نور من صنع الخيال، وأنا لست مجنونًا، أنتم فقط تريدون رؤيتي كذلك.

"أنا لست طرفًا في حكايتك أنت تعاني عقدة اضطهاد".

أنت متورط بتعجلك في التأويل يا سيدي، عقلك الباطن أصدر حكمًا مسبقًا ويريد البرهان، ليس إلا.

"آه يبدو أنك الخضر وأنا موسى، تفضل أكمل سأصبر حتى النهاية، وللعلم أنا لم أكوّن أي أحكام بعد".

خرجت وقبلتي غرفة الكيف، كان بابها مواربًا والضوء الأصفر يخرج ممتطيًا سحب الدخان، كنت كلما اقتربت منها انفتح لي الباب أكثر.

- حضرت لكم يا أشقياء.

توهجت شياطين الفرحة في أعينهم ولسان حالهم يقول: لا أحد يعشق الكيف ويستطيع هجرانه، ألقى نعمان حكمته التي يؤمن بها ويردها كثيرًا:

- قد يهجر الإنسان زوجته، قد يهجر عائلته، قد يهجر عمله، قد يهجر دينه، لكن لا أحد يهجر الكيف.

قالها ونظرة الثقة راسخة في عينيه.

- اكتمل مربع المجون، ألم أقل لكم؟

- أهلاً يا دكتور نورت والله.

- أهلاً أهلاً يا غالٍ.

حتى جعفر فرح فرحة الشيطان برجوع العبد إلى المعصية ولذلك رأى هذه مناسبة تستحق احتفال من نوع خاص.

- غداً انتظروا الهدية التي وعدتكم بها، وسأشرك الدكتور فيها ولن آخذ منه مليماً.

(29)

جاء جعفر متأخرًا عن مواعده المعتاد أكثر من ساعة
ومعه أنثى تتوارى في نقاب أسود لا يبين إلا عيني
زرقاوين، دخلا فأغلق الباب خلفهما، وضع كفه على
كتفها وجذبها إلى صدره فالتصق بها:

- لقد جاء اليوم ووفيت بوعدى.

رفع النقاب عن الفتاة التي قال إنها بيضاء كالقشدة
طرية كالملبن، لقد صدق إبليس يومًا، هاتان العينان
الزرقاوان محيط تلج فيهما الأمواج، خلعت عباءتها
وكشفت عن نفسها، فتاة كالقمر أو أشد جمالًا، مدورة
الوجه، أنفها دقيق مرفوعٌ أرستقراطي، شفتاها
ورديتان لهما بريق الندى، شعرها ذهبي مموج بنعومة
ينسدل على كتفيها، ترتدي قميصًا بلا كمين، إنها بين
السادسة عشرة والسابعة عشرة، تميل إلى الطول،
جسمها فائر يسبق سنّها، لين ينأى عن النحافة ولا يدنو
من السمنة، لها نهذان أعجزا القميص عن إخفاء كبر

حجمهما، شعرتُ بفتنة لم أشعر بمثلها من سنوات، إنها فاتنة حقًا.

كانت البنت ذاهلة خائفة ترتجف، عيناها زائغتان، أراها ليست في وعيها كأنها مخدرة، هجم علينا الصمت فسلب منا حناجرنا وقيّد عقولنا، وجعفر الإبلّيس على وجهه علامات الفخر والزهو، اريدّ وجه الأمين حتى أصبح بلون الكبد ثم تلفظ الاسم بعرض حلقه وعمق حنجرتة وعيناه ترميان بالشرر ونفرت عروق رقبتة حتى كادت تنفجر.

- نسرين؟!

نسرين بنت العم نبيل؟! أم هناك نسرين أخرى؟!

- آه يا ابن الكلاب يا لعين!

هجم عليه سعيد فصفعه صفعةً أذهلتنا وخوفتنا، أسقطت جعفر أرضًا، ارتعدت الفتاة وانهمرت الدموع من عينيها، ثم هم بجعفر فأمسكه من ياقة قميصه بقبضة من حديد ثم دفعه من خلال الباب يطرده.

- اذهب يا ابن الكلاب وَارْجِعِ البنتَ لأمها.

نظر جعفر إلى نعمان يستجدي شهوته، لكن نعمان
أجهز عليه بكلمات أخيرة.

- هل هذه هي مفاجأتك يا ابن الحرام؟! يلعنك الله!
تحضر بنتًا صغيرة، وابنة جارنا يا مجنون؟! هل تريد
أن تفضحنا في الحارة وتجعل الناس تأكل وجوهنا.

كانت الصدمة مخيبة لآمالنا، حتى إن كنتُ من البداية
خارج المعادلة ولم يكن في نيتي المشاركة في
الوليمة، لكنها كانت كالزلازل هدمتنا بلا شك، هكذا
تنزلق النفوس إلى الخطيئة يومًا بعد يوم، هكذا قد
يذني رجل بمحارمه وهو مخدر أو سكران، هكذا قد
تقتل دون شعور، تصبح زانيًا أو لوطيًا أو سارقًا أو
خائنًا، وألف ألف وضع للسقوط، والسقوط واحد يهدم
الروح قبل البدن.

انتهت جلستنا وقد رأينا في مرآة نسرين قاعنا
المنتظر، سيطر علينا حزن ثقيل وخرجنا تاركين

ميراثنا من الكيف وحيدًا في الغرفة، هنيئًا للأشباح.

أسبوع كامل أذهب فيه إلى مسجد التوحيد وأنطلق منه لرحلة البحث عن الشيخ نور الدين، أجرب طرقًا أخرى وأسأل أناس مختلفين، هل كان وهما؟ لا أصدق فأنا أذكر وجهه وعباءته البنية الشفافة المقصبة، وجلبابه السمعي، وأذكر المكان بأحجاره وقناديله، الزخارف المنحوتة في مصراعي الباب، الرسوم الإسلامية الهندسية البالغة التعقيد على الجدران، خطوط متداخلة تصنع نجومًا ثمانية الأضلاع، وأذكر وجوه الذاكرين وكلماتهم، وأذكر بدقة كل كلمة قالها الشيخ وأثرت في قلبي، لكن لماذا اختفى كل شيء؟ لماذا تخلي عني؟

"نعم لماذا، أرجوك أجبني؟".

بحثت عن الإجابة وقلبي كسير وعقلي مشتت وكلما فشلت إحدى محاولات البحث.. عدتُ أكثر نهماً للغياب والهرب من الدنيا، كانت لي وديعة في دفتر توفير بعشرين ألف جنيه لم يعلموا بها أنفقت نصفها في شهر

واحد على الكيف، كل هذا وأم زينب على حالها ترنو
روحها إلى الصحراء.

- ألن تأخذني إلى الصحراء يا ولدي؟

ما زالت على شرودها وهذيانها وحديثها مع الغائبين
والموتى، تؤكد أنها تسير بسرعة نحو النهاية.

- لقد وعدتني هل نسيت؟

- لا لم أنس، لكن أنا لا أعرف كيف أصل لقبيلتك
وأهلك.

- يا ولدي لن أصل إليهم فليس كل مطرود من الجنة
يعود إليها، أنا فقط أريد أن أموت في الصحراء أدفن
في الرمال.

- وما الحل إن ذهبت بك إلى الصحراء ولم تموتي؟

- اتركني هناك يا ولدي وارحل.

- حاضر أعدك إن سافرت يومًا فساخذك معي.

لم تعد أميرة تتعامل مع طيشي وسكري بنفس العنف، ربما فقدت الأمل مع نمو شعورها بالتعاطف والشفقة، ربما أصبحت تحبني على نحو ما، أحضرت لي ولأم زينب الشاي، شربته وأنا أتابع إبراهيم وهو واقف فوق غيته يصفر لسربه ويلوح له بالعلم الأحمر، سمعت الناس يقولون إنه ماهر في ضم الحمامات الشاردة لسربه الذي يزيد يومًا بعد يوم، لقد أعجبتني شجاعته عندما سمعت قصة ضربه هو وإخوته لجعفر وثلته، شاب طويل قوي البنية يبدو ممن يهوون بناء العضلات في قاعات الحديد.

- أتعلمين يا أميرة؟ أظن أن أجمل شيء رأيته في هذه الحارة هو مشهد تحليق حمامات هذا الشاب، هي دائمًا تحرر نظراتي، تطلق عنانها للسماء، تصبح خيالاتي فراشات أو بالونات هيليوم، أنسى السطح والركام والناس البؤساء.

ابتسمت وقالت:

- قل ما شاء الله حتى لا تحسده.

- أقول ما شاء الله حتى لا أحسده! هاهاها ما هذا الهراء؟! لماذا أحسده؟ على أي حال! ما شاء الله يا ستي!

بالليل غاب عن مجلسنا اللعين كما توقعنا لذلك أخذ الشيخ نعمان منا النقود ثم ذهب لإحضار الخمر بنفسه، شربنا صامتين، حاولنا أكثر من مرة عتق رقاب ألسنتنا، لكن كلما ولد حديث وأدّه الهم، حتى ذهبت العقول وغفت الضمائر فبدأ الشيخ نعمان الحديث:

- آه لو كانت فتاة غريبة آه، لكنت أكلت لحمها أكلاً وشربت نبيذ دمها شرباً، ما أجملها!

لكن سعيد ما زال على موقفه غاضباً لا يعجبه الحديث، ينهر الشيخ بالنظرات ويلكزه ببوصة الجوزة.

- عندنا ولا يا شيخ، ستر الله ولايانا، ألا تستحي؟

هذه الفتاة الجميلة صغيرة جداً على أن يصبح لها حكايات وتكون سيرتها جملة من كل حديث من أحاديث الحارة وربما في الحارات الأخرى.

- قل لي يا شيخ.. ما حكاية هذه البنت؟

اعتدل في جلسته وبرقت عيناه وتكلم عن مهرة ترتع في مروج خياله.

- كانت طفلة جميلة نحبها ونداعبها وفي ليلة وضحاها إذا بها فائزة فاتنة، لم تدرك بعد أنها كبرت ولم يعد لعب الحارة يناسبها، وأن الشباب الذين كانوا يلاعبونها أصبحوا يشتهونها، الفتاة جامحة ذات عنفوان، لم يستطع أحد كبح جماحها، تضربها أمها بعد كل فضيحة لكن الأب يدافع عنها ولا يحب أن يمسها أحد بسوء، يقول إنها صغيرة وحتماً ستعقل، كانت أخطاؤها لا تتعدى الخروج مع الشباب سواء كانوا من الحارة أم من خارجها، وأحياناً تعرف أكثر من واحد ويتصارعون من أجلها.

أكملنا جلستنا حتى نضبت مواردنا، زجاجات الخمر الفارغة مبعثرة في كل مكان، وكذلك أحجار الجوزة، ثقلت الرؤوس وقام كل واحد يبحث عن نعله، سمعنا صوت صراخ رهيب وجلبة بالخارج، ما أكثر أن نسمع

أصوات الصراخ بالحارة! مرات موتى، ومرات مشاجرات الأشقياء، الصراخ يزداد والصوت أصبح جنونيًا، وقفت على باب الغرفة فإذ بضياء رهيب يتوهج في السماء، وقذيفة مشتعلة أخطأت وجهي وارتطمت بالباب وسقطت تتلوى وتتقلب، إنها حمامة تحترق، ثم نظرت إلى كتل اللهب المضيئة التي تطير في السماء، في كل اتجاه، دفعني سعيد وخرج ليشير لغية إبراهيم فإذ بها تحترق، الناس فوقها وحولها، نزلنا ثلاثتنا نهرول، لكني سبقتهم وصعدت إلى البيت، السطح ممتلئ عن آخره بالناس، إبراهيم وإخوته يحاولون تحطيم سقف الغية للسماح بهرب الحمام، والناس يحاولون إطفاء الحريق، وجدت برميلاً فصعدت عليه وحاولت معهم، رائحة اللحم والريش المحترق تعبئ المكان تكاد تخنقني، حاولت تفكيك بعض الأخشاب معهم لكن الدخان كثيف، النساء تولول والرجال يتصايحون، أشعر بأيدي تسحبني وشباب يحاولون الصعود بجائبي على البرميل، صرخ أحدهم وأشار إلى سطح آخر فنظرت حيث يشير فإذ بحمامة

سقطت عليه فأحرقت بعض الركाम المتكوم، عشرات الأصوات تتكلم في وقت واحد.

- إنه جعفر ابن الأبالسة!

- والله لنقتلنه!

- لقد رأيته يصعد إلى السطح!

هل وصل به الشر والجنون أن يفعل مثل هذا الجرم؟
قد تحترق الحارة كلها بسبب الحمامات المشتعلة.

لم أنتبه أن البرميل ملاصق لسور السطح، عندما نظرت إلى شمالي رأيت الناس واقفين بالحارة يبدون بعيدين للأسفل، خفت السقوط من فوق السطح وحاولت النزول لكن الزحام الرهيب أعاق حركتي، وفجأة انقلبت الريح ترمينا بالأسنة اللهب التي طالت الكثير وكل من تطوله يقفز على الناس فيقومون بإخماد ناره، إلا أنا فمحاط بالأبدان ولما لمحت لسان اللهب يلفحني صرخت لكن تاهت الصرخة بين الزعيق والولولة، طالت النيران قميصي وحينها ابتعد الجميع عني

ووجدت نفسي أسقط من البرميل في اتجاه الحارة
ورأيت بعيني السور قد مر بجاني فتخطيته متجهاً
بسرعة رهيبة إلى الهلاك المحقق.

(30)

شاب أوربي يرتدي ثياب العصور الوسطى، يجلس على شاطئ بحيرة زرقاء قاتمة اللون والسماء الربيعية تتزين بسحابات صغيرة تشبه كيوبيد، الشمس متوارية في مكان ما، ترسل ضوءًا أبيض باردًا يمس البشرة بلطف ويداعب العيون برفق، الشاب الهائم الرقيق الملامح يضع على رجليه قيثارة كستنائية اللون، يُصدرُ مش أنامله على أوتارها نغمات تنهادر متشابة ناعسة، موقن أن الدنيا بما فيها من نعيم قد ذلت له وأن القدر يتعامل معه بتسامح عجيب، وأن الهدنة بينهما كافية لتجرع لقاء حب مديد، يثمل الفؤاد ويطيب خاطر، حبيبته جالسة أمامه تسحرها النغمات، مدت كفها فملست على وجنته اليسرى ونزلت بحنان على لحيته الذهبية تتخلل بأناملها الرقيقة خصلاتها فمال بشفتيه فقبلها، ظل الشجرة يرسم على العشب الزاهي الخضار صورة قلب يحتويهما ويمتد طرفه حتى يلامس طرف البحيرة كأنه ظمان يرتوي منها، والعصافير الملونة تحيط به وتغرد مع النغمات،

تطفو فوق موجات البحيرة الناعمة بضع بجعات
بيضاء طويلات الأعناق، ملتوية كعلامات الاستفهام،
مغمضة العينين مستسلمة لغنج الأمواج، وفي الطرف
الآخر من البحيرة بعيدًا يقف قصر جميل بعمارة
باروكية عريقة بأعمدة وأبراج عالية وتحيط به المروج
والسهول العشبية الخضراء، في هذا السن من الشباب
تكون رؤيتهم للأمور مطلقة، كأن يشعر بأنه يحب
حبيبته حبًا يكفي العالم أجمع، أو أنه أسعد مخلوق في
الدنيا، أو يظن أنه قادر على أن يحارب العالم كله من
أجلها بل يهزمهم شر هزيمة ويعود لها بطلاً حاملاً
رؤوس الأشرار، أن يقف في وجه النار عاري الصدر،
يقهر الإعصار بسيفه، يخمش عنق البركان بمخالبه،
ويستقبل الحمم بقلب جسور من أجلها، لكن بسرعة
جداً تلبدت السماء، تحولت سحابات كيوييد إلى
وحوش ضارية رصاصية وسوداء، والتحمت متصارعة
في السماء تطلق سهامها بروقاً حارقة وتزأر هزيمًا
كأعظم ما قد ينفجر به الرعد، أخذ كل يرمي بأسلحته،
الشرر يتطاير في كل مكان، قفزت الفتاة الرائعة
الجمال تحتمي في صدر حبيبها وهو لم يخيب ظنها

وكان حصنًا قويًا وحنونًا استطاع أن يمنحها الأمان، اشتعلت الأوراق الجافة المتساقطة أولًا ثم تبعتها الخضراء فجذع الشجرة وتساقطت حبات التفاح الحمراء ملتهبة يخرج منها الدخان، مع الأسف لم يتبق شيء منها أصبحت كلها رمادًا.

عاد الأب الكادح يحمل كومة حطب، باع معظمه في السوق، يقوم بجهد عظيم طوال النهار من أجل قروش قليلة، ينتظر أطفاله الطعام، خمس بنات وطفل صغير جاء بعد طول انتظار، وزوجة مكدودة ممصوفة الوجه تتزين بالصبر والرضا، ورغم ضيق العيش، فإن أطفالهما لم يبيتوا ليلة جوعى. ليس بالكوخ الدافئ من طعام سوى الخبز والملح، وضع جوال البطاطس في حجرها وتوسل إليها أن تذبح دجاجة لتفرح الأطفال، تهلت وجوه الصغار وقاموا يسحبونها من أطراف جلبابها، يتوسلون إليها أن توافق، جفف الحطاب عرقه ورقد على الأرض ليصبح ميدانًا متعرجًا لينًا يصلح للعب الأطفال، يحدث نفسه قائلاً: "كم البنات حنونات رقيقات كآرنبات بيض يلعبن في

المروج، أما الولد فيحب صنع السيوف من أعواد الحطب فيبارزني ولا يزال يثخنني بطعناته حتى أكتم أنفاسي وأغمض عيني فيصيح فرحًا بالنصر ويرفع سيفه الخشبي إلى السماء كأنما يقول لها: أنت التالية.

كان كل شيء جميلًا حتى لحظة الاشتعال.

كل الصور الجميلة التي رسمتها لتمدني بكل ما حُرِمْتُه من مشاعر دفء وحنان وسعادة، قامت أُمِّي بحرقها، لم تبال بالحب ولا بالجمال ولا بالخير، خمس عشرة لوحة تمثل أحلامي كلها احترقت، كل شيء امتدت إليه ألسنة النار، الآباء الكادحون والأمهات الحنونات، الأطفال اليافعون والرضع، الخراف والحملان، الحمامات، حقول القمح، أشجار التفاح، الأنهار والبحار والمروج والتلال والسموات حتى لوحة الله أحرقتها، هل أنت كافرة؟

قالت لي حبيبتي سماح عندما استرجعت أمامها تلك الذكرى الأليمة:

- لماذا لا تعاود رسمها؟

فقلت لها:

- لقد فقدت الشغف، متعة الاكتشاف ولذة التحليق في خيال بكر لن تتأتى بالتكرار والتقليد.

كنت عندما أجلس أمام الورقة البيضاء تتحول إلى نافذة تطل على عالم ميسر فيه الحلم، مباح فيه الاختيار، فكانت خطوطي مجرد تجسيد رؤية، ألواني عاطفة ومشاعر، الأزرق البارد الذي يطفئ لهيب الغضب، الأبيض الصامت الذي يهزم ضجيج النفس، الأصفر نور الشمس الكاشف لكل العورات المستترة، مع الأسف لقد أصبحت جدران الغرفة خاوية إلا من ندبات مؤلمة في عمق الذاكرة، ملعون كل من قهر الحلم ونسف الاختيارات ليفرض رؤيته.

"لم أعد أستطيع متابعةك يا دكتور لقد دوّختني وتوهنتني وتداخلت في رأسي حكاياتك".

(31)

تساقطت الحمامات الملتهبة في كل مكان، ارتطمت
 بالجدران، وعلى أسطح البيوت وعلى قباب المساجد
 والزوايا، في أروقة الحارات والشوارع والميادين،
 كأنهن كن مليون حمامة وأنا أتساقط مثلهن من فوق
 السطح تلتهمني النيران وما زلتُ أسقط والسماء تبتعد،
 تبتعد إلى ما لا نهاية وأنا أسقط بلا توقف ولا أبلغ قاعًا
 ولا قرارًا حتى أصبحت أتوسل الارتطام العظيم
 لأستريح من الألم والهلع، من ينجدني غيرك يا
 قدوس؟ أمد إليك يدي، مد إلي يدك!

قمت منتفضًا كغريق يخرج أخيرًا لسطح الماء وقبل
 الموت مختنقًا بلحظات قليلة، أخذت أعب من هواء
 الغرفة وأتحسس رقبتني، وصدرتي، مغطيين بشيء لا
 أعلمه وأشعر بالألم رهيب ينهش جلدي، استغفرت الله
 كثيرًا وأنا أنظر حولي، أنا في الغرفة، الحمد لله أنا
 بخير! نعم أنا لم أسقط ولم تحترق غية إبراهيم،
 نظرت بسرعة من خلال النافذة صوب الغية فإذا بها
 أعواد محترقة سوداء، أتت النار على أغلبها، جدران

البيت مسودة من تراكم الأدخنة والرماد، إبراهيم وإخوته يقومون بتنظيف المكان، ترى كيف حاله؟ وماذا جرى لحماماته؟ هل احترقت كلها أم نجحوا في إنقاذ بعضها.

دفعت أميرة باب الغرفة بظهرها ودخلت حاملة صينية الطعام وفي ذيلها بنتها حبيبة تحمل كيسًا بلاستيكيًا يشف عن شاش وقطن ومُطهر وغُلب ودواء ومراهم، ابتسمت لي أميرة ابتسامة يغمرها الفرح، جميلة هي عندما تكون راضية، تمثيت لو أن لي أختًا مثلها، أما حبيبة فانسحبت للخارج لتكمل لعبها.

- حمدًا لله على سلامتك.

- سلمك الله.

- هل هذه بطولة أم انتحار؟ قل لي بالله عليك، رأيت كيف ذهبت الخمر بعقلك؟ كيف لرجل في مثل سنك أن يصعد فوق السطح ويخاطر بحياته، لولا عناية الله

ودعائي لك في صلواتي لكنت في عداد الموتى
ولأصبحث أرملة مرة أخرى بفضلك.

- أنا خمسون عامًا، ما زلت شابًا، لماذا تحدثيني كأني
شيخ كبير عاجز؟ أمن أجل بعض الخشونة في
مفاصلي أهملت في علاجها؟! أنت امرأة عجيبة ولا
تجيدين التحدث، الكلمة قد تكون سمًا وقد تكون
ترياقًا!

نظرت إلي وفي عينيها أسف وتأنيب، جلست على
الأرض ووضعت الطعام أمامها وأخذت تقشر البيض
المسلوق وناولتني واحدة وهي صامتة لا تنبس،
أخذتها واحتفظت بها لزينب كعادتي، تنفست بعمق
واستغفرت الله.

- أميرة أنا آسف، تحمّليني فأنا متعب والألم يدفعني
للضجر، ماذا حدث أحكِ لي فأنا لا أذكر أي شيء؟

- أنا أتحمّلك يا حبيبي، وما قسوتي إلا من فرط خوفي
عليك!

- ممتن لك أقسم بالله! ها.. قولي لي ماذا حدث!

- أمسك الشباب بقميصك ورأسك وذراعك وأنت متشبث بالسور ولم يتركوك حتى أنقذك!

نالت النار من صدري وبطني لكن الناس أطفئوها سريعًا بعدما انتشلوني، لذلك فهي حروق سطحية، قامت أميرة بالكشف عنها وعالجتها بالمراهم ثم وارتها بالقطن والشاش مرة أخرى.

- لقد أصبحت تسرف في الشراب! ألا تنتهي يا صالح؟ والله إنني أدعو لك في كل صلاة أن يهديك الله للصراط المستقيم ويتوب عليك من إسرافك في حق نفسك.

خرجتُ أطمئن على أم زينب ثم أخرجتها لنجلس معًا أمام باب غرفتها، كان الهواء محملاً بروائح الحريق، ورأيت حمامات متفحمة في أماكن متفرقة من السطح، سمعت صوت خطوات تعلو صاعدة السلم حتى وصلت ومرت من خلال باب السطح، إنها الفتاة،

نسرین جمیلة الجمیلات، تسیر اتجاهی مباشرة،
غضضت البصر حتى لا تفضحني نظراتي.

- کیف حالک یا دکتور حمدًا لله الذی نجاک من الحریق
والسقوط؟

مدت کفها لتصافحني، فمدت إليها یدی بشغفٍ أحاول
مواراته!

- الحمد لله بخیر.

- أبی يتحدث عن بطولتك كحديث الرهبان عن
القديسين، إنه یحبك ویجلك.

- إن أباک لرجل طیب صالح.

- آه نسیت أن أقول لك إن العم حمودة یلحقني على
السلم سوف یقوم بتركيب الطبق وضبطه لتلفازنا، قد
أحتاج إلى بعض الماء من غرفتك كي یخلطه الأسطی
مع الجبس لتثبيت الطبق.

- آه أهلاً وسهلاً تفضلي.

لم تَفْتِنِّي أنثى بعد سماح ولم أنظر إلى أي طالبة عندي بالجامعة، على اختلاف أعمارهن وأشكالهن وأزيائهن، إلا هذه الفتاة، ربما السر هو هذا المكان، فعندما ترى وردة نادرة الجمال تنبت وسط الصحراء أو الصخور أو في مقلب قمامة، فالأمر حتمًا يختلف تمامًا، هي فتنتني لأنها أجمل بكثير من كل هذا الخراب المحيط، وما يفتنني أكثر هي نظراتها الجريئة وبسمتها الحميمة، صعد الرجل وبدأ في تجميع الطبق ولوازمه أما هي فقد دخلت الغرفة تحمل دلوًا بلاستيكيًا فملأته بالماء، وأنا في صراع مرير بين مراقبتها ومحاولاتي اليائسة لغض البصر، كان من الطبيعي أن تجنن الشاب الصعيدي وتدفعه إلى التهور، لكن كيف استطاع ذلك اللئيم أن يشغلها حتى فاز بمقابلتها؟ وكيف تمكن جعفر الإبلis من استدراجها لتكون عاهرة متأهبة لفقدان عذريتها؟ ما أشقى أباه المسكين الدمث الخلق لو أصابها مكروه! الفتاة تميل أمامي وتمارس فتنتها اللامحدودة وترميني بنظراتها اللطيفة الممزوجة برحيق البسمات، ترى ماذا تريد يا فتاة ولماذا ملأت الماء من غرفتي وتناسيت الحمام المشترك؟

خرجت أميرة تحمل صينية الشاي فوضعتها أمامي ثم جلست فحالت دوني والفتاة، يبدو أن أميرة هي قدرتي الذي سيقف دومًا بيني وبين ملذاتي.

جاء الليل وحضرت ثلته وجاء جعفر الإبلّيس يتطوح كعادته، وإن كان حضوره غير متوقعٍ فما زالت رائحة الحريق تجول في المكان، أحضر الخمر وجاء يثير ضجةً وكلامًا كثيرًا في مواضيع مختلفة غير مترابطة، علاوة على ضحكه المبحوح وشخيره وسعاله، وكأن شيئًا لم يكن، حقًا أهم من الكذب أن يصدق الكاذب كذبتة ويتعايش معها، كان الشيخ نعمان والأمين سعيد واجمين، يعلمان يقينًا أنه من أشعل الحريق لكن لا دليل دامغًا على ذلك.

- أهل الحارة المعاتيه يقولون إنني من أضرم النار في غية الحمام، هاها، أولاد الفاجرة الكاذبون أقسم لكم برحمة أبي أني كنت أقلبُ رزقي في باب الخلق، لو أردت الانتقام من إبراهيم لضربتة في الحارة أمام الجميع، هل أنا عليل؟

"ولو كان هناك دليل يا دكتور صالح ماذا تتوقع منهم؟".

عندك حق أشعر أنه عمل لهم عملاً سفلياً.

"لا لا، أرى أنه يُعد ضرورة بشكل ما لتكتمل منظومة الكيف".

نعم حقًا، فقد تغاضوا سريعًا عن غضبهم ونهلوا من سمومهم بشره منتشين، وفي غمرة النشوة أخذ جعفر يهذي ويحكي كيف دبر الحريق، كيف أحرق قلب إبراهيم على حماماته وكيف انتقم منه ومن إخوته وأنه لا يترك ثأره أبدًا، كانوا يضحكون وقد ركب شيطان الكيف رؤوسهم، وسقط سهوًا من ذاكرتهم السمكية كل أفعاله الطائشة الجنونية وعواقب فعلته التي كادت تحرق الحارة بمن فيها.

(32)

هل تحب أن أسرّي عنك بطرافة ستقتلك ضحكًا؟

"أتمنى هذا، فقد أشقيتني".

انتشر في الحارة خاطر أحرق بأني وليّ آتي
بالمعجزات هاهاها، أحد السكارى كان واقفًا بالحارة
أثناء حريق الغية وسقوطي من فوق السطح، يقول
إني توقفت في الهواء حتى امتدت إلي أيدي
المنقذين، هاهاها أنا الولي السكران صاحب الكرامات،
ربما سيبنون لي في مخيلتهم ضريحًا أو مقامًا
ويقصدونني في كل ضائقة وحاجة، وأكون لهم بُراقًا
نافذًا يحمل أوجاعهم وأمنياتهم للرب، لا يعلمون أن
هذا الظل العظيم إنما هو لرجل بائس أحرق ضئيل
جدًّا، ضعيف جدًّا، ينفخ لهيب الشهوة نفخًا، أصابته
لعنة البنت اللعوب.

نسرين، آه منك يا إلهة الشبق والنشوة، يا أسطورة
الجمال والخطر، جنية تجسدت في صورة فتاة، كلما

تقلبتُ على فراشي أرى عينيها الباغيتين تقول لي:
 "هيت لك! هلم راودني عن نفسي! انهل من شفتي
 الخمر والعسل! اقطف من جسدي تفاحة الخلد!
 جردني! ضمنني!", العجيب أن الجنس لم يكن يومًا
 فتنتي ولا حديثهم عنها يثيرني، لكني الآن أتمنى حقًا
 لو ألتهم شفتيها التديّتين وأطوق خصرها.

"هل هذا حُب؟!".

لا طبعًا، كيف يكون حُبًا؟ ربما هي بمثابة خمر معتق
 استلهم مذاقه وتأثيره من قصص ألف ليلة وليلة، نوع
 ما من اللذة نسيته منذ أكثر من عقدين، لم أكن أريد
 منها سوى رشفة ومشاركة في سهرات الخيال،
 استحوذت على تفكيري فتماديت في جنوني وقررت
 أن أهبط الدرجات لها، سمعت أن أباه مريضًا، نعم
 مريض، لا بد أن أزوره.

"حقًا جنتك يا دكتور حتى جعلتك تلحق هواك
 كالمراهقين".

زيارة المريض واجبة، لماذا تضحك سيدي؟!

"هاها اعذرني، أنا آسف، تفضل أكمل حديثك فأنا متلهف لمعرفة ما فعلت بعد ذلك".

بحثت عن أفضل ثيابي وأغلاها وقمت بكيها، أريد أن ألفت انتباهها ولتعرف أنني أختلف كثيرًا عن شباب الحارة المُعدمين.

أم عريان سيدة طويلة بدينة ضخمة المؤخرة، شعرها ذهبي كشعر ابنتها لكنه مجعد، ملامح وجهها دميمة، لحسن حظ الصغيرة إنها لم ترث من أمها هذا الوجه.

الردهة صغيرة ضيقة، بها كنية وكرسیان أسوانيان وتلفاز، جلست على الكرسي المجاور للباب وفي مواجهته لوحة معلقة على الحائط لقديس يمتطي فرسًا فضيًا ويمسك رمحًا يطعن به تنيًا.

خرج العم نبيل من الحمام يدلف متكئًا على كتف الفتاة المدهشة الجمال، ترتدي جلبابًا بيتيًا خفيفًا يشف لباسها الداخلي، مفتوح صدره حتى مفرق

نهديتها، جلس الرجل وحاول رسم ابتسامة ترحيب ولم
يفلح في مواراة معاناته.

- أهلاً وسهلاً يا دكتور صالح.

- شفاك الله وعافاك يا عم نبيل، لقد ذهبتُ إلى الدكان
فوجدته مغلقاً، قال لي الأولاد بالحارة إنك مريض
فجئت لأطمئن عليك.

- نحمد الرب على كل شيء يا ولدي.

حضرت نسرین حامله صينية حديدية صدئة وعليها
كأس بها شراب غازي أسود، مالت تضع المشروب وهي
مثبتة عينيها في عيني وتمنحني بسمه ذات دلالة
كأنها ترحب بهذه الخطوة التي بدت كأنها مفهومة لها.

- سلمت رجلاك يا دكتور، شرفتنا، تفضل اشرب، مد
يدك.

أم عريان لها صوت غليظ أجش ذو لكنة صعيدية،
عندما تكلمت فقدت آخر دليل يشير إلى أنوثتها،

سبحان من يخرج الورد من بطن الجبل، في خلال دقائق كانت الفتاة قد خرجت من غرفتها للردهة أكثر من عشر مرات وفي جميعها تنظر إلي وتبتسم.

- تفضل يا ولدي.

العم نبيل يربت على ذراعي ويشير إلى الكأس، انتابني شعور أن رأسي يشف ما يدور به من أفكار، لكني ماكت لا أبالي بتعجله وأشرب من الكأس على مهل حتى وصلت لمنتصفها، حينها انقطع النور ليطلق رصاصة الرحمة على هذه الحالة من المراهقة المتأخرة وبات أمرٌ رحيلي لازماً.

- يشفيك الله يا عم نبيل لو احتجت إلى أي شيء أرجوك أرسل لي نسرين وأنا في خدمتك وتحت أمرك حتى يشفيك الله.

وقفتُ والبنت تشعل عود كبريت وتسلط اللهب على فتيل الشمعة البيضاء.

- خذي الشمعة يا نسرين ووصلي عمك الدكتور صالح إلى السطح.

مددت يدي أضافحه وبها مئة جنيه مطوية، قاوم احتياجه بادئ الأمر لكنه استسلم سريعًا وشكرني بصوت منكسر.

- لا داعي للشكر يا رجل إنها كأس دائرة على الجميع، شفاك الله من كل سوء.

حملت الفتاة شمعتها بسرعة خفيفة وسبقطني إلى باب الشقة المفتوح وتركت المكان لأبويها مظلمًا، صعدت أمامي الدرجات ونور الشمعة ينعكس على شعرها فيزيد من جماله وسحره وعند الطابق الثالث وقفت فجأة واستدارت ونظرت إليّ بنظرة أربكتني بدا لي أنها تهیی لي الفرصة لاقتناصها.

- أريد أن أشكرك يا دكتور لأنك لم تفضحني.

- لا لا، العفو، لكن احذري من جعفر وحافظي على نفسك، أنت جميلة ومنتظرك مستقبل مشرق إن شاء

الله.

قلتها وأنا أمد كفي لأضعه على ذراعها، فأنا رجل كبير ناصح، التصرف لن يشينني، أريد أن استنبط من رد فعلها الخطوة التالية، شعرت برجفة لذيذة تسري كالأمواج بجسدي، أذابت روحي، زاد بريق عينيها السماويتين، فزاد انعكاس لهب الشمعة عليهما حتى أصبحتا جحيماً مترعاً بالنيران، شفتاهما ترتعشان مواربتين نديّتين، داخلهما جب عميق مظلم تسكنه شياطين الإغواء، يا لها من فاتنة، ردت بهدوء وصوت خافت:

- أعدك ألا أقترب منه مرة أخرى فهو حقاً شيطان واستطاع استدراجي وجعلني أجرب أقراصه الملعونة، قال إنها ستساعدني على السهر والتركيز في المذاكرة فذهبت بعقلي ولم أدرك ما أفعل!

اقتربت مني خطوة، لا تريد شيئاً سوى أن أمد يدي إلى مفاتنها أو أن أسحبها إلى شفتي فأقتطف القبلية من فيها، هذا مؤكد، لكن ماذا لو أعرضت وأنا أهم بها،

قد ترفضني وتشهر بي، ستكون مصيبة بكل معاني الكلمة، هل تفهمني؟ هل تستشعر ارتباكي والصراع المحتدم داخلي؟ هل خطوتها إشارة أعول عليها؟ أتنفس بصعوبة وأمواج اللذة صارت قشعريرة وقلبي ينتفض بقسوة، أظن أن قبلة واحدة منها قد توقف ضجيجه إلى الأبد، لا أمتلك قوة الصمود والتمادي، ماذا الآن؟ إلى متى سأقف عاجزاً في حيز اللهب والجازبية؟ طال الوقت، قد يفتح نعمان بابه أو يصعد جعفر السلم وأواجه نفس مصير علام، قلت لنفسي هذا يكفي، لقد حانت اللحظة الملائمة لإنهاء هذا اللقاء، حاولت الفتاة الاستدارة مرة أخرى لتكمل الصعود لكنني جذبتها من ذراعها، من المؤكد أن أميرة جالسة في السطح الآن، دارت لي بكل جسمها حتى تواجهنا.

- نسرين، يكفي هذا، سأكمل بمفردي.

- لا يصح يا دكتور.

- لا لا، يكفي هذا أرجوك.

مددت إليها يدي لمصافحتها فأسرني قبضها المبالغ
على كفي ثم سحبت يدها وذهبت بنورها، تركتني
خائراً لا أستطيع الصعود.

"هل ظننت حقاً يا دكتور أنك اكتسبت مساحة ما من
تفكيرها أو أثرت رغبتها؟".

ولم لا؟

"هل ستحب الجميلة المراهقة كهلاً في سنك؟".

أنت تتحدث مثل أميرة، وتراني شيخاً منتهي
الصلاحية.

"أنا أحدثك بالمنطق، بينكما بضعة وثلاثون عاماً".

لا أعرف لكني كنت أسير في دربها كالمجذوب أفكر
فيها بالليل والنهار، وأستدعيها في أحلامي لأنهل من
فمها العسل.

"هل أوهمت نفسك بأنها قد تقرر يوماً أن تخوض معك
إحدى مغامراتها؟".

لا أعرف، أنا فقط كنت أحلم ولا أفكر في الأمر بعقلانية.

"يا لك من مسكين يا سيدي! ورطت نفسك في حب غير مكافئ فأنت لا تملك القوة ولا الشباب ولا الجمال، حتى ماضيك المشرف أصبح مجرد ذكرى بفضل جنونك وتهورك!".

أرجوك توقف عن حديثك هذا، قلت لك لا أبالي بنظرتها ولم أطمع في علاقة معها، إنها مجرد رفيقة خيال، وأنيسة ظلام الغرفة ليلاً، دعني أكمل وتحل بالصبر والصمت لو سمحت، لا ترهقني.

"آسف يا سيدي، تفضل أكمل".

جاء الليل بشياطينه، جعفر يحمل خمره مرتدياً جلباباً رمادياً قصيراً إلى حدّ ما، سخرّوا منه فنادرًا ما يرتدي الجلباب، بدأ كل منا يؤدي دوره في المسرحية اليومية، سعيد يغسل الجوزتين ونعمان يشعل النار وجعفر ينفذ الحصيرة على رؤوس المارة والقعود

بالحارة، أما أنا فليس لي دور محدد فقط أدور حولهم
أناول هذا خشبًا أو هذا فرشاة غسيل الجوزة أو أبحث
عن ورقة جريدة لإشعالها في حطام الخشب، جلسنا
فسقمنا شيطان الملذات ثم انخرطنا في العبت، رميت
كل شيء من رأسي ووسعت لها، لا شيء غيرها، أريد
أن أسيل الخمر على بشرتها فألقه، سمعت طرقًا
خفيًا على الباب، كان مواربًا، فُتح برفق، إنها هي،
فركت عيني لا أصدق ما أرى، دخلت باسمه ترمقني
بعينيها الفاتنتين، ترتدي قميص نوم ورديًا ذا حمالات
رفيعة كالخيوط تكاد تسقط من على كتفيها، ذراعاها
القشديتان بزغبهما الذهبي الخفيف، نظرت إلى الثلة
الضاحكة فوجدتهم جميعًا ينظرون إليها ولعاب الشهوة
يتقطر من أشداقهم، كب الشيخ نعمان الطبق الألمنيوم
المملوء باللب والسوداني المملح على الحصيرة وبدأ
يطبل عليه ويغني، قامت برفع جلبابها وربطته حول
خصرها فظهرت ساقاها الناعمتان الطريتان، متعة لا
يصمد أمامها الزاهدون، بدأت ترقص والشيخ يطبل
والأمين يصفق، ترفع يديها شعرها الذهبي لأعلى
فيظهر إبطاها لتزيد بركاني جحيماً، تترك الخصلات

تنثال من بين يديها فتثير زوابع ساحرة من دخان
الجوزة الحشيشي النكهة، مدت يدها، سحبتني فقامت
معه، تريدني أن أرقص معها، أنا لك افعلي بي ما
تشائين.

هذه أول مرة أرقص فيها في حياتي كلها، رفعت
ذراعي، جمعت قبضتي ثنيت أصابعي إلا السبابة
وأشرت بها نحو جبيني وفردت ذراعي الأخرى
ورقصت، هززت كتفي وخصري، صوت الطبل يعلو
والغناء والضحك، أحطتُ خصرها بذراعي وسحبته
إلى صدري بقوة، قبلت شفتيها اللدئيتين والجميع
يضحك بجنون، توقفوا عن كل شيء إلا الضحك
الهستيري، انسكبت زجاجات الخمر على الأرض، وقعت
الجوزتان وانسكب ماؤهما وتدحرجت الجمرات على
الحصيرة فثقت موضعها واستقرت، وسقطت نسرین
على الأرض ضاحكة ترفس برجليها وتمسك بطنها من
شدة الضحك.

انتهت السهرة وما زال الشيخ نعمان والأمين سعيد
على حالهما يضحكان كالمجانين يتجرعان ثُمالة

السهرة، ويلملمان البقية من أسمال ليلتهما استعدادًا
للمغادرة.

- ما أجملك وأنت ترقص مع جعفر هاهاها!

قالها سعيد وأكمل نعمان:

- قمت بسحبه إلى صدرك فقبلته من شفتيه ألم تشعر
بالقرف؟!

- جعفر!

"أعوذ بالله! أعوذ بالله! ما هذا القرف؟! هل قبلت
جعفر من فمه حقًا؟"

نعم مع الأسف، كان شيئًا مقررًا حقًا، شعرت بالغثيان،
تقيأت، أفرغت كل ما في معدتي وعقلي، ذهبا
يتضاحكان ويجتران الأحداث، تركاني وبينني وبين
غرفتي صراط طويل، شعرت أن الجو حار خانق مليء
بروائح دخان الجوزة، بدت لي الحمامات المحترقة
تصحو، تزحف على الأرض، تقترب مني، تحيط بي من

كل اتجاه، وحيدًا، تكبلني المخدرات وتغتالني الأدخنة
ولهيب الحمامات الزاحفة التي تكاد تعلق بنعلي
وتتشبث بسروالي، قفزتُ إلى أعلى، خشونة ركبتي
آلمتني بشدة، كلما قفزت تسحبني الجاذبية وتتلقى
أقدامي أرض هشة، في القفزة الثالثة تداعت الأرض
تحتي وكشف عن هوة واسعة، انخطفت روعي خطفًا.

(33)

- صالح، صالح.

صوت تهادي كخيرير ماء يشق رمال الحر والعطش،
حلو ككعكة من براح قدمت لسجين، فتحت عيني فإذ
بالوجه المضيء ما زال يحمل صولجان العنفوان، ما
زال قادرًا على أن يتخلل الروح!

- شيخ نورا!

- نعم يا ولدي، ألم تنهياً للرحيل بعد؟

- أين كنت يا سيدي بحثت عنك كثيرًا، لم أجد لك أو
لساحة الذاكرين أثرًا؟

- من الطبيعي أن تضل يا ولدي، فقد غلبتك الظنون
وطريقنا لا يعرفه سوى الموقنين!

- حقًا، لقد خدعتني أميرة، واستطاعت أن تطرق
مسمار الشك فأحدثت صدعًا غائرًا في جدران يقيني!

- لو اتبعت قلبك.. لوصلت إلينا بكل يسر، قل لي.. هل أنت مستعد؟

- متى يا سيدي؟

- الآن.

- والله يا حبيبي إن سماءك لتليق بضيقى!

ابتسم ابتسامة الرضا ثم أشار بكفه صوب الباب وقال:

- إذا.. هيا نذهب!

- لكن ليس لدي ثياب تليق بالرحلة.

- هيا يا صالح إن الله لا ينظر إلى صوركم!

- حسنًا سأبحث عن حذائي كي أرتديه، أين الحذاء أين؟

- لا يهم هيا يا صالح الفجر في الصحراء ينادينا، ارتد أي نعل!

عند أول درجات السلم توقف وقال لي:

- ألم تنس شيئاً؟

قلت له: ماذا؟

- أم زينب، ألم تعدّها؟

- نعم نعم، هل يمكن أن نأخذها؟

- طبعاً يا ولدي هل تريد أن تخلف وعدك فتكون فيك
خصلة من النفاق؟

طرقت الباب على العجوز وكانت راقدة لا حول لها ولا
قوة، أخذ الباب ينفتح حتى ارتطم بالحائط.

- أم زينب، يا أم زينب!

- نعم يا ولدي!

- ما بك طمئيني؟

- الحمد لله بخير يا ولدي!

- هيا قومي يا حبيبتى سأخذك إلى الصحراء!

- لا أستطيع القيام يا ولدي خذ بيدي!

نظرتُ إلى الشيخ وأنا أخاف التأخر:

- لعل الركب يتركنا يا شيخ؟

ابتسم لي حتى ظهرت جميع أسنانه وقال:

- احملها يا صالح.

- هل ستتأخر على الركب يا شيخ؟

- لا تقلق يا ولدي فنحن الركب وإلينا المسير.

حملتها ولم أشعر بوزنها، ما دام الشيخ أمر فكل شديد يهون، وكل صعب يسير.

- قل: بِاسْمِ اللَّهِ الْقُدُّوسِ، وتوكل:

"انتظر يا دكتور دقيقة واحدة".

نعم.

"هل هذا حلم من أحلامك أم لوحة من لوحاتك أم تخاريف السكارى؟".

لا يا سيدي ليس حلمًا ولا تخاريف ولا لوحة، لقد كان واقعًا حقيقيًا، ألم أقل لك أن الشيخ ليس صنيعة الخيال والوهم، حتى رحلتنا إلى الصحراء لم تكن كالإسراء يحملنا البراق، أو يتمتم الشيخ بكلمات مباركات فنطير بإذن الله، رغم اعتقادي أنه قادر على ذلك، فقد كانت هناك سيارة أجرة في انتظارنا، كنت دائمًا من أثر السكر نعم، وأشعر بأن الدنيا تدور بي، خفت أن أقع وأسقط العجوز، لكن الشيخ وضع كفه المباركة على ظهري فمنع بنياني الخائر أن يتداعى أو يتهاوى في الطريق، رأيت سيارة بيجو أجرة بيضاء سبعة ركاب، منتظرة أول الشارع تشغل ضوء الانتظار المتقطع، ركب الشيخ بالمقعد الأمامي بجوار السائق وأنا وضعت أم زينب برفق على الكنبه الوسطى ثم جلست خلف السائق، رفعت رأسها وأرحتها على فخذي، نظرت لي ممتنة فابتسمت ثم غفت.



آلهة من رمال -

- بِاسْمِ اللَّهِ الْقُدُّوسِ تَوَكَّلْنَا.

(34)

لن أنكر أنني قد مسني طيف من ريبة مما يحدث، لكن سرعان ما تيقنت أن ريبتي عبث، وحاولت التخلص من وساوسي سريعًا حتى لا يتسرب إليه مرة أخرى انفلات اليقين مني.

"اعذرني يا دكتور فالأمر حقًا يدعو إلى الريبة، قل لي مثلاً: كيف عرف مكانك وهو لم يزرُك من قبل؟ وكيف دخل إلى الغرفة وأنت معتاد على إغلاقها من الداخل؟ أسئلة كثيرة لا أجد لها إجابة ترضي العقل، هل لديك تفسير منطقي؟".

لم العجب يا سيدي وقد جعلني أحمل العجوز وأنزل بها السلم بكل يسر رغم خشونة مفاصلي، كل هذا بسر كلمة "باسم الله القدوس" مؤكداً أنه عرف سكني باسم الله القدوس وكذلك اخترق الباب، كان جالساً أمامي يتمتم بالتسبيح والأوراد ويراقب الطريق ويوجه السائق يميناً ويساراً، اتجهنا صوب الجيزة من خلال كوبري عباس، اخترقناها مروراً من خلال شارع الهرم

حتى بلغنا الأهرامات، ثم أمسكنا الطريق الصحراوي،
كل هذا حقيقة وليس وهمًا كما تظن أنت وكما تدّعي
أميرة.

كانت الشوارع هادئة وأعمدة النور الناعسة ترسل
أضواءً صفراء كسولة يغالبها الضباب وال Shibure، أم
زينب الغافية على فخذي انحلت عقدة طرحتها فظهر
شعرها المتلبد الفضي المفروق من المنتصف، تنام
كالأطفال، هادئة لا يشغلها شاغل ولا يؤرقها مؤرق.

- يا شيخ.

التفت لي وابتسم ليصبح وجهه كالصبح أو أكثر نقاءً.

- نعم يا صالح.

- لقد نسيت أن أخبر زوجتي.

- انس الدنيا يا صالح، أفرغ عقلك.

- سوف تقلق ولها علي حقوق.

- أفرغ عقلك يا ولدي، اهجر الدنيا كأنك تموت، كيف
تلقى الله وقلبك معلق بالدنيا؟ تذكر يوم يفِرُّ المرء من
أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه!

الله! ما أجمل كلامه وما أعذبه! صدقت يا شيخي
الجليل، سكت وحدثت نفسي: "أغمض عينيك يا صالح
واخرج الدنيا الفانية، ماذا أخذت منها غير الشقاء
والألم، قشّر عن روحك أسمال الجسد، أخرج أباك وما
فعل، أمك وقسوتها، ربيبك وما استحل من مالك، أخاك
وكراهيته غير المبررة، زوجتك وعيالها، ثلة الحشيش
ومعاصيهم، أخرج الحشيش والخمر من دمك واذهب
بمفردك لتلقى الله!".

الطريق يتمدد أسفل العجلات ولا تظهر ملامحه،
الضباب يرسم تلالاً بيضاء، الشيخ يناجي الله "يا رب
السموات والأجرام والأبراج اقبل هجرته إليك،
استقبله بفيوض رحمتك، أره عجائب قدرتك، مدّه
بالإشارات والكرامات".

لا يليق بهذه الرحلة سهادي ولا غفوتي، يليق بها الانتباه والتفكر، التحليق في الملكوت، وضع القلب في مركز الكون، نظرت لأُم زينب فإذا بها ترمقني بعين شاخصة شديدة الانتباه، أخافتني حد الذعر، مدت كفها المرتعش إلى قميصي فشده بقوة تقربني نحو وجهها، اقتربتُ منها أذني أذني من فمها كي أسمعها.

- افتح النافذة قليلاً يا ولدي أريد سماع صفير الهواء!

- كيف ستحتملين هذا الجو البارد وأنتِ هزيلة مريضة؟

- أرخ قلبي يا صالح، لا ترهقني بجدالك!

أدرت المقبض الذي يتحكم في النافذة دورة كاملة فنزل قليلاً، سحبْتُ قميصي مرة أخرى!

- صالح!

- نعم!

- أنا ذبحتها!

- ذبحتي من؟!

- مديحة!

- من مديحة يا أم زينب؟

- إنها أم زينب الحقيقية؟!

أكاد ألصق أذني بشفتيها لألتقط الحروف المرتعشة
المتعثرة وصوتها المبحوح الخافت وهي تتشبث
برأسي بأصابعها الرفيعة وكأنها تضع ثمالة قوتها في
تشبثها:

- حملت من زنا وهربت من أهلها بحملها وبعد شهور
غدر بها زانيها وهجرها؟ كانت تعذب الطفلة بالليل
والنهار انتقامًا من أبيها، وأنا كنتُ أتعذب وأموت من
أجل الصغيرة كل ساعة وقد حرمني الله من الخلف،
هي من تسببت في إعاقة البنت بتكرار ضربها العنيف
على رأسها، هجران النذل جنّنها، والبنت المسكينة
دائمة الصراخ، ازدادت كراهيتي لأمها ولم أطق ما
تفعله بها، لم أستطع التحكم في نفسي فذبحتها.

كانت بين الكلمة والأخرى تلتقط أنفاسها بصعوبة، انتهت من قصتها القصيرة وقد بذلت جهدًا عظيمًا، أفلتت رأسي أخيرًا ونفدت الكلمات.

انحرفت السيارة عن الطريق المسفلت وتوغلت في الصحراء تفرك الرمال وتشير العفر خلفها، أنظر حولي فلا أرى أثرًا لبشر أو لطير أو لطرق ممهدة، الشمس تبزغ في الآفاق البعيدة والشبورة آخذة في التبدد موسعةً لها، الظلام ينسحب رويدًا رويدًا، أغلقت الزجاج فالبرد يتزايد والصقيع لا يُحتمل، غمرت أبخرة الماء الزجاج البارد حتى حجبت الرؤية تمامًا، كيف يرى هذا السائق الطريق، أرى عيني الشيخ من جنب، ما زالتا مفتوحتين منتبهتين، أم زينب منكشة لا تتحرك وضعت يدي أملس على جبينها فإذا به بارد بل أشد برودة من الزجاج والجو، زحفت أناقلي حتى اقتربت من فتحتي أنفها فلم أشعر بزفيرها، رفعت عيني فإذا بالشيخ ينظر لي بكل وجهه فحدثني بهدوئه المعهود:

- لقد دعتُ القريب المجيب فلبّى دعاءها، ادع لها
بالرحمة يا صالح!

- هل سيرحمها يا سيدي وهي قاتلة؟!

- إنه يرحم التائبين إن شاء الله أنا موقن بهذا، وماذا
سيفعل بعذابها؟

- ماذا سنفعل الآن؟

- نم يا ولدي وأرح فؤادك، فكل شيء بأوان!

"وهل نمتّ وعلى فخذك ترقد جثتها؟".

نعم لقد غلبني النوم فقد كلّ قلبي وأنهك عقلي
وأصبحت عاجزًا تمامًا عن التفكير!

(35)

صحراء ذهبية منطفئة البريق انسيابية الأمواج، تصعد الشمس فيها من أقصى يسارها لتنعكس على حواف التلال، خطوط ذهبية رفيعة ومساحات واسعة تتشبث بظلامها، لكنه يختفي من المشهد رويدًا رويدًا، هناك نخلات متفرقة تحمل تمورها، وأبابيل من السيدات المتشحات بالعباءات السوداء الفضفاضة يَسِرْنَ حاملاتِ المقاطف فوق رؤوسهن، يرسمن خطوطًا على الرمال بنعالهن، أطفالهن في ذيولهن يمسكون بأطراف العباءات.

الألوان المائية لم يجف ماؤها بعدُ عن تلك الملحمة الجافة الهواء والتربة، كانت هذه اللوحة هي آخر لوحة قد رسمتها قبل أن تقرر السيدة النازية إرسالها مع أخواتها إلى المحرقة، رأيت فقاعات الماء السخن تصرخ مستنجدة على حواف اللهب، تخيل لقد استغرقت في رسمها ثلاثة أشهر، لقد صببت فيها كل رمالي وجفافي وضياعي، الصحراء هي امتداد الصمت واختبار الصبر ووضوح الوهج، والظما المطلق، هي

التكامل الفطري الأول بين الأرضي والسمائي، هي انعدام اليقين والثوابت والجهات، هي العصر السابق تمامًا لعصر الجليد النفسي، من أين لك بكل هذا البرود يا سيدة القهر والكبرياء؟! ألسنت ابنك؟ ما سر نظرة التحدي والتشفي في عينيك لو كنت زوجة أبي لما فعلت بي كل هذا!

- صالح استيقظ يا ولدي، صالح، صالح.

كنت نائمًا أشغل الكنبه كلها، سمعت صوت الشيخ كأنه حلم، انتبهت ولم أجد لأم زينب أثرًا، الشمس آخذة في الصعود، تسكب شفقًا نبيذي الحمرة في الآفاق.

- هيا يا ولدي كي نصلي على المتوفاة، قم فتيمم.

لقد قام الشيخ والسائق بالحفر، لم أشعر بأي شيء، يقولون إنني كنت غارقًا في النوم.

صلينا الفجر ثم عليها وبعدما انتهينا من الصلاة، وضعناها بالحفرة وردمنا، كومة رمل مرتفعة قليلًا عليها صخرة أصبحت شاهدًا على إحدى النهايات،

جلستُ أدعو لها وانخرطتُ في بكاء عظيم، أفرغ
شجوني لعلّي أستريح.

- في زمن بعيد توقف الدود عن أكل جثث الموتى،
خرجت الجثث من مدافنها تلاحق الأحياء بالرائحة
النتنة والأمراض ومناظرها البشعة، فعبد الناس الدود.

توقفت عن البكاء محاولاً استيعاب الحكاية التي صيها
الشيخ في رأسي وهو واقف خلفي وانتظرت تكملتها
واستنباط مغزاها ولم يقطع شرودي سوى صوت
محرك السيارة يعلو ثم غمرني العفر وعادم السيارة
حملته الريح نظرت خلفي فإذا بالسيارة تبتعد، نظرت
حولي فلم أجد للشيخ أثراً، وجل قلبي وقمت مرتعداً
أنادي:

- يا شيخ، يا شيخ نور، أين تذهب بالله عليك، يا شيخ!

"ثم استيقظت من النوم أليس كذلك؟ هاهاها".

قلت لك لم أكن نائماً ولا ما أقوله محض حلم لماذا لا
تصدقني.

"لم يكن حلمًا! ولم أخذك الشيخ إلى الصحراء ثم تخلى عنك؟".

كان الأمر غامضًا ولم أملك له تفسيرًا لكنه كان واقعًا أسود يحيق بي ويزداد قتامة كلما تضاءلت السيارة وواراها عفرها، هبط السكون ليرتفع على أثره ضجيج الهلع، لم أملك حينها سوى السؤال كما سألتني أنت هكذا، لماذا رحل وتركني وحيدًا؟ كان ما يحدث يستحيل تصديقه، الشمس تتسلق طبقات السماء والحر يزيد، ليس معي شيء سوى حقيبة بها القليل من معلبات الطعام وثياب وزجاجة ماء، ترى في أي اتجاه يجب أن أسير؟ هل أعود مقتفيًا أثر السيارة، لكننا سرنا في الصحراء زمناً طويلاً ومن المؤكد أن رحلة العودة سيرا على الأقدام ستأخذ مني عدة أسابيع، لقد بدأت الطريق ولا سبيل إلى العودة.

سوف أسير على نفس امتداد الطريق حتى أصل، سأتابع بوصلة الفؤاد، فما يحدث لي يقيئًا ليس عبثًا.

بسم الله القدوس سأبدأ رحلتي، نظرت إلى الساعة، كانت الساعة تمامًا، تساءلت والحيرة تغلف الرؤيا: "ثرى ماذا سيعني هذا التوقيت في زمني؟".

بدأت الشمس ترسل لهيبها بلا توقف، صنعت من الحقيبة مظلة ووضعتها فوق رأسي كي تقيني اللهب، كان كل ما تمنيته حينها أن تصمد زجاجة الماء حتى أصل إلى الوجهة التي لا أعرفها.

تذكرت أميرة وأصبح التفكير فيها ملحًا، ترى كيف حالها بعدما اختفيت فجأة من حياتها بدون سابق إنذار؟ هل ستفتقدني، هل كنت أمثل لها شيئًا ذا قيمة؟ هل ستنتابها حيرة التيه وقلق المتاهة مثلي هنا؟ ترى إن مت هل سيفتقدني أهلي؟ هل سيكون خبر موتي محزنًا أكثر أم مريحًا، أظن أنه سيكون مريحًا بلا شك، فليس في قلوب هذه الأسرة ذلك النوع من المشاعر، ولا أستثني أمي من المعادلة ولو كانت ميتة، فتأثيرها ما زال باقيًا على كل شيء تركته، كم حيرت عقلي! إنها سيدة الأغان، لكن ما كان يحيرني حقًا هو أنها كانت تعامل عفيفي معاملة

مختلفة، كانت تنفلت منها نظرات الفرح رغماً عنها عندما كانت تسمع نبأ تفوقه، تبرق عيناها ويظهر فيهما الفخر، أنا لم أكن أقل منه في الدرجات في أي مرحلة إلا في الثانوية العامة ومع ذلك لم أجد تلك النظرة، فتشت عنها كثيرًا، كنت في كل نتيجة ألقى النبأ على مسامعها وأراقب عينيها، تقول لي «مبارك» وهي منشغلة، تقولها وتقوم تدخل غرفتها، أما أبي فالأمر بالنسبة إليه مختلف فكان يفرح فرحًا مكظومًا، يكافئني لكنه يتوارى كمن يرتكب جرمًا، أو كعاصٍ يمارس الرذيلة ويخشى الفضيحة، لماذا هذا الخوف والحدز؟ يقول أبي لي: أنت واهم فأملك تحبكما بنفس القدر.

كم أنا تائه! تائه بداخل نفسي وخارجها، كيف أعرف الطريق في هذا التيه والصحراء كلها مفترق، أين؟ ثلاث مئة وستون درجة تحيط بي، وملايين الاحتمالات، أقف في مركز الكون والشمس تطوف حول رأسي بتأني وترسل قيظها، والهواء الساخن

يرمي جلدي بالحمم، بشرتي احمّرت بسرعة لم أتوقعها.

- قل لي الحقيقة يا أبي، الأمر واضح كالشمس، هناك فارق عظيم بين معاملتها لي ومعاملتها له، ما سببها؟

لم أعد أستطيع المسير أكثر من ست ساعات ربما أو سبع لا أريد أن أنظر إلى الساعة فلم يعد للزمان مكان في قصتي، لا أحد ينتظرني ولا أعرف متى الوصول ولا إلى أي شيء سوف أصل، سأستغل انكسار شمس منهكة القوى بعد يوم مليء بالتعب والمشقة، لم تسترح ساعة منذ استيقظت ولم تبخل على الدنيا بفيض لهيبها.

- إنها تقسو عليك يا ولدي كي تصبح رجلاً يتحمل المسؤولية، القسوة تصنع الرجال، هل يعجبك شباب العائلة الرّخوون؟

جلستُ أكل وكان الطعام سُخناً بسبب حرارة الجو، هاه جميل لقد وجدت ميزة وحيدة حتى الآن لحرارة

الشمس الحارقة، يجب أن أنظر لنصف الكوب الممتلئ،
 ما رأيك الآن في رشفة خمر تهون عليك الألم،
 وسيجارة حشيش، مؤكد أن هذا أوانها ومكانها، لا، لا،
 رشفة واحدة لا تكفي فلتكن رشفتين أو ثلاثة أو أكثر،
 لكن أين الخمر وأين السجائر؟

سد الظلام كل نوافذ الرؤيا، جدار أسود عالٍ يحيط
 بي، ترى كيف يكون ليل الصحراء؟ من سكانها؟ هل
 الثعابين هم الصحبة أم الثعالب أم الذئاب؟ أم كائنات
 العوالم الخفية كالجن والعفاريت؟ هل سأرى النهار من
 جديد؟ أسئلة كثيرة بطعم ورائحة الريبة والإحباط
 والشعور بالحمق، سمعت أصواتًا قادمة من بعيد،
 صوت بعير وحديث رجال، نعم أميز منهم صوتًا أجشَّ
 وصوتًا رخيماً وصوتًا رقيقاً، كلام بلهجة البدو لا أميز
 الكثير من ألفاظه، صوتهم يقترب وما زال يقترب حتى
 شعرت بمرورهم من خلالي، لكن لا أرى أي شيء سوى
 الظلام، ميّزت جملة واحدة من الحديث.

- لا بد أن ترقد وجدان في حضن أهلها، ليرتاح قلب
 أمها وأبيها.

ناديت:

- يا رئيس، يا عم، يا حاج، هل تسمعوني؟ أنا هنا
سأدلكم عليها أعرف مكانها.

الصوت يدنو مني أكثر ويدنو ويدنو، متى ستصل يا
هذا بالله عليك أجبني؟

(36)

فجر جديد طرق جفني، صباح الخير أيها الضائع،
التفت حولي، فلم أجد حقيبتني، إني جائع ظمآن، أشعر
أن جسدي منهك، جلدي محترق، قمت أبحث عن شيء
ما، غريزة البقاء تحركني، أحاول استجماع أفكاري، أو
إلقاء بعض الأسئلة التي أعرف مسبقًا أن لا إجابة لها،
تمامًا كنثر البذور في هذه الرمال وانتظار نموها، ترى
في اتجاه أسير وقد مسحت الريح آثارني، وكانت
سخية معي فردمتني بكمية لا بأس بها من الرمال،
تتساقط الحبات من شعري إلى وجهي وقفاي وعيني
فتدخل فيها، هرولت خائفًا متخبطًا كالمجنون، لا أثر
لأي شيء سوى الرمال، لقد كان الأمس طويلًا مؤلمًا
ومليئًا بالخوف والحيرة، ترى ماذا يحمل لي اليوم، يا
الله أنا راحل إليك ترى، هل ستطعمني من جوع،
وتؤمنني من خوف؟

الأرض من تحتي تفقد ثباتها وأقدامني تغوص في
الرمال شبرًا وشبرين، لم تعد الأرض مستوية، أصعد
تلالًا من الرمال متتابعة وأهبط، أنهكت قواي لم تعد

رجلاي قادرة على الصمود، كلما وصلت لقمة أجول
بنظري لعلني أجد نخلة أو خيمة أو حتى طيرًا في
السماء، الشمس حارقة وجلدي لم يعد يحتمل الألم،
كيف أتجنب لهيبها؟ حتى الرمال كلما جلست عليها
تكوينني.

الشمس آخذة في الأفول الآن بعدما جففت ما تبقى
من مائي وكوت جلدي، كل هذا حدث في يومين، لا
أعتقد أنني سأقاوم ثالثًا.

لم أعد أشعر برأسي دوار الصحراء رهيب، الظلام
مخيف لكنه أرحم من اللهب، أغمضت عيني أفكر فيما
يحدث خائفًا من شمس غدٍ وما ستفعله بي، نظرت إلى
السماء، رفعت ذراعي أستجدي بشري أو أملًا تقر به
عيني، النجوم تبدو واضحة وقريبة جدًا أظن أنني لو
قفزت لأعلى لأمسكها، بياضها المضيء يتسع ويبهت،
ثم يتحول كل نجم لعدة نسخ منها الجلي ومنها
الباهت، لقد نالت الشمس من عقلي بلا شك، سمعت
صوت أميرة ينادي، اتكأت على مرفقي وأخذت أفتش
عنها حتى رأيته قادمة تقترب على مهل حاملة زجاجة

ماء، مددت إليها يدي أستحث خطاها، آه يا حبيبتي
 من غيرك يشعربني، اقتربي يا طيبة القلب، ثم ظهرت
 أُمي قادمة تهزول حريصة على شيء ما، اعترضت
 طريق أميرة وخطفت منها الزجاجة وسكبتها على
 الأرض بكيت وصرخت مستجديًا: ظمآن، حرام عليك،
 أرجوك ظمآن، أموت عطشًا، اقتربت أميرة وهي تبكي
 وتنوح.

- هذه ليست أمك يا صالح، أقسم لك إنها ليست أمك

ثم ظهرت زينب ترتدي جلبابها الأزرق بذات شعرها
 الأشعث، كانت باسمه، اقتربت مني تأرجح ذراعيها
 حتى جلست بجواري ثم مدت كفها النحيلة فلتمت
 كفي بأصابعها

- حبيبتي زينب كيف حالك؟ تبدين بخير الحمد لله.

لم تتكلم، فقط منحتني جرعة أمان ببسمتها الحنونة
 البريئة، ما زالت أُمي واقفة بعيدًا تراقبني وجاء أبي

فوقف خلفها متحيرًا يبدو عليه الأسى أما عفيفي
فظهر يضع كفه على كتفها ويتبادلان نظرات الشماتة.

استجمعت قواي واستلهمت طاقة عظيمة من غيظي
وقمت أجري صوبهم أنحني فأغترف من الرمال
وأقذفهم بها ووجوههم يتبدل حالها من سخط
لسخرية ومن السخرية إلى السخط، أميرة تختفي في
ظلام المدى وما زال صدى صوتها يتردد:

- أقسم لك إنه ليس أخاك ولا هي أمك!

ما زلت أجري وأرميهم بالرمال، الرياح يزداد صفيها
الحاد وكذلك سرعتها، ترد لي أكوام الرمال صفعات
متتالية تنهال على وجهي وتملاً عيني، تحركت أمواج
رمال الأفق ومادت من تحتي الأرض، دوامة رملية
عظيمة تكونت وحالت بيننا، تزداد سرعة وعنفاً، أمواج
الرمال علت كمحيط غاضب والدوامة أصبحت عملاقاً
مخيفاً نظر إلي وصرخ صرخة عظيمة ثم تحرك نحوي
بكل قوته وسرعته وما يحمل من رمال، أكوام تتدفق

علي تباعًا، تتراكم حولي طبقة فوق طبقة، لقد رُدمت
تمامًا، إني اختنق.

(37)

- اشرب يا ولدي على مهل!

ذات العينين البنيتين الصافيتين والوجه البشوش
المضيء، بسمة هادئة وعين فرحة، شعره الأشيب
الكثيف!

- حمدًا لله على سلامتك يا ولدي!

"من هذا يا ترى؟".

إنه الشيخ نورا!

"حقًا؟!".

نعم أقسم لك، كنت مثلك متعجبًا لا أصدق عيني،
أشعر أنني ما زلت على هذياني أرى وأسمع ما ليس له
وجود.

"هل وصلت إليه أم هو الذي وجدك؟".

استيقظت لأجد نفسي في بيت مبني بالحجارة الصخرية غير المستوية الأسطح والحواف، سقفه معرّش بجذوع النخل والجريد، أنام على أرض ناعمة من الرمال مفروش عليها بسط من فراء الأغنام والماعز، الشيخ يميل قلة الماء البارد على شفّتي ويصب على مهل.

بكيت كثيرًا، كنت أريد أن أعاتبه، أسأله لماذا تركني في الصحراء وحيدًا؟ لكني لم أستطع نطق حرف واحد، ليس مهم معرفة التفاصيل، المهم أنه عاد.

"لا إنه مهم جدًا على الأقل بالنسبة لي، لا بد أن تعطيني خيطًا من المنطق أجمع به قصاصاتك، كل حكاية ذلك العارف تبدو لي غير حقيقية".

قل لي يا سيدي هل ترى العينُ الله، هل ترى الروح؟ هل ترى الكهرباء السارية في الأسلاك؟ هل ترى خلف هذا الحائط بشبر واحد؟ للعين حدود للرؤية وكذلك للعقل حدود للفهم، تلك الأمور الواقعة خارج حدود قدراتنا هي غيب، لن يستطيع الإنسان بقوته العادية

أن يدركها، فقط أولئك الربانيون هم من أعطاهم الله من فضله منحا، لهذا فأنا تعلمت كلما كنت في حضرته ألا أعمل عقلي المتشكك؟ فقط أتلقى المنح، تذوقت الماء البارد كان مسكرا كالعسل وأحلى، والله لو كان بين يدي بئر ماء ممتلئ عن آخره لشربته، نظرت إليه ممتنا، ابتسم لي فارتاح قلبي لسمته.

- ستكون بخير يا ولدي إن شاء الله.

كلما حاولت الكلام أجد صوتي مغلولا، حنجرتي معبأة بالرمال.

- وجدتكَ قريبا من هنا، تكاد تكون مدفونا إلا من وجهك وذراعك اليمنى، كدت تصل بمفردك، سبعة أيام تنازع التيه، متمسك بحقك في الوصول، وهو يبعثر شطرا من أثرك ويطمس شطرا، هذه فطرته، اليوم تفيق بعد سبع أيام من غيبوبتك هنا، لا تظن أن تيهك سبعة أيام ورقادك سبع ليالٍ عبثا، الأسبوع سبعة والأراضي سبع والسماوات سبع والطواف سبع

والمثنائي سبع وما أكثر السبعات المقدسة في الكون
الرحيب.

الشيخ دائم الصلاة ومناجاة الله، يحدثه كما يتحدث
الإنسان للناس، يدعو تارة ويعاتبه تارة ويمتدح
جماله ولطف صفاته كما يغازل العشيق عشيقته، حتى
اعتقدت أن به جنة.

مرت عليّ سبع ليال أخرى صامت حتى استطعت أن
أسأله:

- لم ذهبت يا سيدي وتركتني وحيداً؟

نظر لي نظرة المحب المعاتب وكأن ما فعله شيء
طبيعي وسؤالي عن السبب خطأً ألام عليه.

- يا ولدي لقد سرث في نفس الطريق من عشرين سنة
حتى وصلت، وكان قدرك أن تسير الطريق وحدك، ترى
كيف رأيت هموم ماضيك وأنت مشرف على الموت
وقد فقدت الأمل في النجاة، ترى هل تشبثت بالذكرى؟
هل تذكرت أموالك التي خسرتها؟ هل كانت ستمنحك

النجاة في هذا التيه؟ {يُبَصِّرُونَهُمْ} يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِبَنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ} بكم كنت تشتري شربة الماء؟ وكم تدفع لدليل يرشدك إلى الطريق أو يوصلك لبر النجاة؟ مهما كثر المال يا صالح لا يغني الإنسان، من كان معه الله فكل ما في الكون ميسر له، ومن خسر الله يجد كل ما في الكون هباءً منثورًا.

كنا نسير معًا بعد صلوات الفجر وفي الآصال بعدما تهدأ فورة الشمس وتبدأ النسمات الباردة في التجول، نتحدث عن الله، عن خلق السماوات والأرض، حكى لي عن تلك اللحظة الفارقة في الزمان السرمدي، عندما أخبر الله تعالى الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، إن الحوار مُربك لأي عقل حقيقةً، لماذا خلق الله الإنسان؟ كان الملائكة على حق حين قالوا: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟} لقد أفسد الإنسان فيها وسفك الدماء وصدقت نبوءتهم، لم يكن الملائكة كما يتصور أكثرنا أنهم آلات تنفذ الأوامر فقط بدليل

أن لهم رؤية وعقل ومنطق وجادلوا الله، الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان خليفته وتحدى بعظمته قصور فكر مخلوقاته الملائكة، الإنسان هو المعجزة بلا شك لكننا لا ندرك بعد بعقولنا تلك المعجزة.

{إني أعلم ما لا تعلمون} صدقت نبوءة الملائكة، فقد أفسد الإنسان الأرض بالحروب والتدمير والتلوث، وسفك الدماء واستحل الأموال والأعراض {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} ثرى كم من البشر خيب ظن الملائكة! والله إني أراهم قليلين.

{يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ}، الله صادق لا ريب، ولا بد أن نكون على يقين أننا معجزته، نحن معجزة العقل، العقل إذ يفكر ويتأمل، العقل مخزن المعرفة والتجربة:

- يا آدم أنبئهم بأسمائهم!

ساعة تفكر كسبعين سنة عبادة، التفكير ينشط المعجزة ويثبتها، نحن معجزة النفس، النفس اللوامة الحائرة، تلك التي كلما جذبها مد المعصية قاومتها بجزر اللوم.

- سبحان الله، إن هذا الكلام لمدهش، قل لي يا شيخ.. هل تعرف ما أول هذا الكون وآخره، سواء في الزمان أو المكان؟

جلس أسفل نخلة متوسطة الطول اسمرت تمورها ودعاني للجلوس، تناول ثلاث تمرات يانعة سقطت تَوًّا، أخذ يمسحها ويزيل عنها الرمل العالق ثم حدثني وما زالت عينيه تفتش عما تبقى من الرمل العالق.

- خُلق الإنسان ليسأل، ما أعظم أن تسأل! فالسؤال هو معجزة الإنسان الحقيقية، إن عرّفت الإنسان تعريفًا أقرب للمنطق فسأقول لك إن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على طرح الأسئلة، السؤال طرح يقيني وجميع الأجوبة طرح نسبي، حتى إن توصل الأذكاء لبعض الإجابات فسيظل الفضل لمن سأل، وليس كل سؤال عن الكون له إجابة، وكل ما لم ينبئنا به الله

ورسوله فهو غيب، نتفكر ونسأل ونفترض الإجابات، أنا سألت السؤال ذاته قبلك وافترضت له إجابة، عندما جلست ونظرت إلى النجوم وتأملت الكون وشؤونه، وتفكرت في الزمان والمكان، رأيت الزمان والمكان ككرة من حيث تبدأ تنتهي ومن حيث تذهب تعود.

- قل لي كيف ترى عدل الله، والناس أصناف، منهم المنعم ومنهم البائس المحظم.

- إن الناس قد أفسدوا دنياهم وهي واسعة رحبة تتسع للجميع، استأثر القليل منهم بالكثير منها، أما الإنسان وقد أفسد وضيع العدل فإن لله يومًا يضع فيه الموازين سيعطي فيه من حرم وينصف من ظلم، ليس حساب الغني كحساب الفقير ولو كان الغني مسلمًا والفقير وثنيًا، وليس حساب من تعلم وتفكر كحساب الجاهل الذي رفض أن يعمل معجزة الفكر والتأمل، حتى لو كان المتفكر وثنيًا والجاهل مسلمًا.

"الحقيقة أنا أشعر بأن كل ما مر من أطروحات إنما هو أطروحات أقرب للفلسفة منها للصوفية، وكأن كل هذا

الحوار إنما يدور بداخل عقلك".

هذه المشكلة ليس لها مكان حقيقي إلا في عقلك وسببها هو عدم اطلاعك الواسع على الصوفية فكثير من أعلام الصوفية هم فلاسفة بالفعل كأبي حامد الغزالي ومحي الدين بن عربي والحلاج والكثير غيرهم، كل واحد منهم يهديك بعض المفاتيح التي هي فيوض وتجليات الخالق مثلما أهدى إليّ الشيخ نور مفاتيحه، التفكير في كل شيء وطرح الأسئلة هي أهم هذه المفاتيح.

سأفكر دائماً وأبداً، سأفكر في الناس والكائنات الأخرى، سأفكر في الجمادات، سأسأل عن الله، سأسأل الله ذاته وأنتظر منه الإلهام، سأقول له يا رب لماذا أنزلت المعجزات على القرى الصغيرة في الأزمان الغابرة والآن في العالم مليارات من البشر الكافرين بك، أين معجزاتك؟ نحن في أمس الحاجة إليها الآن، لماذا لا أرى في الأرض رحمتك ولا عدلك، لماذا تجعل كل صفاتك غيبية مؤجلة، لن تنكشف إلا في زمن غيبي ربما لا يكون له وجود إلا في رؤوس المؤمنين بك،

لماذا جعلتنا ضعفاء فخسرنا جميع معاركنا الكبرى مع الشيطان.

سأفكر في الخير والشر، ونسبية الخير والشر، سأفكر في كل شيء خارج دائرتي وأعتبره الآخر، كالديانات الأخرى السماوية وغير السماوية، سأسأل الملحدين: ما حججكم؟، سأسأل عن الأنثى وعن رؤية الكائنات الأخرى لنا، عن دينها، هل لها عقل يفكر ويحسب العواقب؟ سأقف أمام نفسي وأعتبر نفسي الآخر، وأقول: ربما هو على صواب وأنا على خطأ، هل الشيخ ذاته على صواب؟ هل الصوفية هي حتمًا الصواب؟ هل من يقف بين الناس يساعدهم ويعلمهم مثله مثل الدرويش الذي يهيم في الملكوت مجذوبًا يهجر أهله وعمله وماله وزرعه ويعيش في لذة أنانية، حتى لو كان المساعد أو المعلم وثنياً والدرويش مؤمنًا، أظن أنني أدركت الآن ما يجب علي فعله في حياتي القادمة، سأفكر وسأطرح الأسئلة وسأبحث عن الحلول حتى أجدها وسأكسر الأصنام وآلات الجمود المتكررة التي سيطرت على عقلي خمسة عقود.



آلهة من رمال -

(38)

استيقظت الحارة على صراخ وولولة رهيبة ومزعجة،
تجاهلتها فليس هذا موعد استيقاظي، اقتحمت أميرة
الباب تضرب الأرض بقدمين حافيين:

- قم يا صالح قم!

"عذرًا عذرًا عذرًا، انتظر لحظة من فضلك، لقد قفزت
زمنيًا فجأة، أين ذهب الشيخ؟ وكيف رجعت؟ هل نمت
في الصحراء واستيقظت في الحارة؟".

لا أذكر ولكن مؤكد أنا سلكنا طريقًا ما، أعرف أنك
ستتعجب كالعادة وستزداد في صدرك الريبة، أتعلم يا
سيدي أين تكمن المشكلة؟

"أي مشكلة؟".

مشكلتك أنت في تقبُّل كل ما أحكيه!

"أين هي؟ نورني أرجوك!".

إنك تنظر لقشرة الحقيقة وهي متغيرة لكن قلبها ثابت
لا يتغير، أنت لا تستطيع إدراك هذا!

"أرجوك وضح لي، لم أفهمك".

سأشرح لك بمثل بسيط، لو قام مصور بتصوير بقعة ما
من الصحراء عدة صور على مدار سنة أو عدة سنوات
ثم جعلك تشاهدها فإنك ستري أن ملامحها تختلف
تمامًا من صورة إلى أخرى، ربما تختفي تلة أو تظهر
تلال، واحة قد تُردم ويختفي أثرها تمامًا، ولن تصدق
أبدًا أن كل هذه الصور لمكان واحد، التغيير يحدث
فقط في السطح، القشور، الحقيقة كالصحراء تمامًا
تظنها جامدة ثابتة لكنها دائمة التغير والتبدل، ماذا
تكتب سيدي؟

"لا عليك فقط أدون بعض الملاحظات فهذا عملي،
أكمل أنت".

المهم لقد استيقظت فزعًا، كاد قلبي ينخلع، نظرت إليها
شاخص العينين واستغفرت الله.

- ماذا؟ خير يا أميرة؟

وجهها مربد ملتهب من أثر لطمها، ودموعها تنهمر كالسيل.

- نسرین قُتِلت يا صالح، قُتِلت، وجدوا جثتها متفحمة في إحدى الخرابات، يقولون إن مجرمًا اغتصبها ثم قتلها وأضرم النار في جثتها

أظلمت الدنيا في عيني وسحق الخبر قلبي، تخيلت المسكينة وهي تصرخ وتحاول بكل ما أوتيت من قوة المقاومة والإفلات، عيناها الزرقاوان جاحظتان، تكاد تنفجر عروقهما، نظراتها هلعة في ظلمة المكان، وجوه الوحوش ورائحة عرقهم المنتن تعبق الجو، يكتمون صراخها بأيدي نهم، يشهرون في وجهها السكاكين، يكبلونها، يتناوبون اغتصاب عذريتها وهتك الجلد الأبيض بلا رحمة، أرى جعفر وثلثه هم الفاعلين، لا أحد غيرهم.

- الحارة مقلوب حالها، انزل وقِف مع الرجال ووايس
العم نبيل، مؤكد أنه سيموت كمدًا، لا حول ولا قوة إلا
بالله!

أنهت جملتها وانخرطت في البكاء والنواح مرة أخرى
وأنا قمت متخبط الرؤية مشتت الذهن، لا أرى أمامي
من الفرع أشعر بنبضات قلبي سريعة عالية، نسرين
قتلت؟! حرقت؟! لا حول ولا قوة إلا بالله، بحثت عن
نعلي وثيابي، كل شيء تاه في نظري، لا أرى سوى
بسمتها أمام عيني أينما أدت وجهي.

تسيل دموعي ولا أملك أن أسيطر على تدفقها،
وبالقلب تأوّه وصراخ أكتمه، في ظلام الطابق السفلي
رأيتها حيث تركتها ذلك اليوم تحمل بين يديها الشمعة
واللهب الذي تداعبه أنفاسها فيتراقص في مقلتيها،
عندما وصلت إلى مدخل البيت رأيت أم عريان تجلس
على المصطبة شعثناء تلطم خديها وتصرخ بلا توقف،
حولها نساء عجائز يرتدين الجلابيب السوداء ويضعن
الشيلاّن الخفيفة السوداء على رؤوسهن، باب الشقة
مفتوح عن آخره وبالداخل حركة مضطربة وزحام

للسكان وجيران الحارة من الرجال، سألت أول من قابلني:

- أين العم نبيل؟

- راقد في غرفته وعنده الطبيب.

قال الناس إن نسرین قد اختفت منذ ثلاثة أيام، في بادئ الأمر ادعت أمها أنها عند أخيها في طنطا تجنبًا للفضائح، اعتقدت أن الفتاة في نزوة من نزواتها الطائشة العابرة وستعود سريعًا قبل أن ينتصف الليل، لكنها تأخرت كثيرًا، لم تبت يومًا خارج بيتها وليس لهم أقارب بالجوار، بحثت عنها في كل مكان تتوقعه ثم استعانت بالأمين سعيد ونصحها بعد مرور يوم كامل من اختفائها بالإبلاغ عن أنها مخطوفة، حتى تتحرك الشرطة في هذا الأمر بسرعة قبل أن يتحول اختفاؤها إلى حادث قد يثير فتنة طائفية.

دخلت إلى الرجل غرفته والطبيب يحاول إبعاد المحتشدين ليستطيع أداء عمله، نظرت إليه وهو

مستلقٍ على فراشه فإذا به أقرب إلى الموتى من الأحياء، علق الطبيب له بعض المحاليل بلا فائدة واتصل بالإسعاف، مستغرق في غيبوبة سوداء وما هو إلا نصف ساعة حتى حضرت السيارة فأخذته وذهبت به والطبيب، ثم جاءت بعد ذلك بساعة سيارة الشرطة وأخذت أم عريان والأمين سعيد وذهبت، لم يتبقَّ معي سوى نعمان وزحام الحارة، أخذ الناس يتسربون من المشهد تباغًا يضربون كفاً بكف.

عجيب حال الدنيا، وما تحمله لنا من مفاجآت وأقذار، صعدتُ ومعني نعمان نشعر بالأسى، خطانا ثقيلة، نتنفس بصعوبة كأن على صدورنا أثقال جبال.

- انطفأ قمر الحارة وتبقى غربانها يا نعمان، ما أسوده من يوم!

- لا حول ولا قوة إلا بالله، من هذا الشيطان الذي لا قلب له الذي فعلها؟

- والله إنني لأعتقد أنه جعفر الإبلّيس!

- الله أعلم، لا نستطيع اتهام مخلوق، وحذار أن تنطق بكلمة لا تملك عليها دليلاً، فجعفر مجرم وله ثلة طائشة ولن يتورعوا عن الفتك بك!

ودعت الشيخ عند باب شقته ثم صعدت إلى السطح، رأيت أميرة جالسة أمام باب غرفتها، ترتدي جلبابها الأسود وتُسبح على أصابعها وما زالت الدموع تبلل وجنتيها، السطح هادئ لا أسمع صوتاً لولديها.

- أين إسلام وحبية؟

- لقد جاءت خالتهما فاطمة وأخذتهما لبييتا عندها عدة أيام فالحارة ليست مأمونة الآن.

- إلى متى سيبيتون؟

- حتى ينتهي هذا القلق، رأيت الإسعاف تحمل الرجل المسكين، اللهم هون عليه واشفه.

- هل تظنين أن لمثل مصابه شفاء؟ لو قام منها لعاش ما تبقى من عمره ميثاً، بل إن الميت يهنأ بالصمتة

الكبرى والسكون الأبدي، أما هو فلن يذوق طعم الراحة حتى يموت ميتة الجسد.

تأملت تلك الشهور الفاتنة على ذلك السطح البائس، كم الذكريات والتغيرات التي حدثت في شخصيتي وفي حياتي، زينب المزعجة التي أتذكرها كل يوم وأشعر بشوق عظيم لها، أم زينب خزينة الغموض ولأسرار، وتلك الصدفة العجيبة التي عرفتني بالشيخ نور الدين، الذي أقنعني بسهولة عجيبة أن كل الفوضى والعبث في حياتنا ما هي إلا جزء من منظومة عظيمة ليس بها أي عبث.

أخيرًا الموت المفجع لنسرين، لا أعرف ما القدر الذي ربطني بها، هي فقط مثل الوجه الحلو للحياة، فكل وجوه الحياة الحلوة محرمة، لقد حُرمتها عمدًا أو ربما دون قصد لا أعلم، لكن ما أعلمه يقينًا أن مصباحًا كان ينير الحياة قد أطفئ، إنها تشغل مساحة كبيرة من تفكيري، أتذكر نظراتها وبسمتها، صوتها، أتذكر ملمس بشرتها، قبض أصابعها على يدي، كانت فتنني الكبرى بلا شك، أعتقد أنني لو فزت مصادفةً أو بنظرة عطف

من الإله بنصيب من الجنة فسيكون طلبي الوحيد
وعوضًا عن كل حورها المتناهيات الجمال أن تكون
نسرين هي رفيقتي الأبدية، وسأتمناها كما هي بنزوعها
الفطري لإشباع رغباتها، متحررةً من جميع القوانين
المقيدة والمنظمة لمشاعر البشر.

دخلت الحمام فتوضأت لأصلي الظهر والعصر، خلعت
القميص والسروال والساعة ووضعتهم بجوار كراسي
رسم علام وأقلامه، سوف أرسم رسمةً تخلد ذكراها،
رسمة تليق بجمالها، توضأت، ارتديت الساعة، نظرت
إلى زجاجها الذي لا يتسخ ولا يتعفر أبدًا، العجيب أنه
لم يكن يعكس صورتي وفقًا لعادته بل كان يعكس
صورتها، رأيت ملامحها واضحة أمام عيني بنفس
ابتسامتها الساحرة، حاجبيها، عينيها، أنفها، أذنيها،
شفتيها، تداعب شعرها بغنج، تتخلله بأناملها الرقيقة
وتنثره فتملأ كل مساحات الساعة والزمن، لا يوقف
تدفقها ولا تمددها سوى الإطار الذهبي الرقيق، تذكرت
سحرها الأول، بريقها الذهبي الأسر.

الساعة الذهبية.. نسرين، نفس المعنى وذات المغزى،
 جففت الماء وسحبت الكراسة ونويت أن أضع
 الخطوط الأولى قبل أن أصلي، كي استطيع الصلاة
 بضمير نقي، فتحرر سؤال كان مكنونًا في عمق الغيب،
 أفلته يومًا لثقله ولصعوبة أن يتحمله الإدراك، فاستقر
 عميقًا في ظلام النفس "ترى كيف حال صاحبها
 المفلس؟".

"نسرين؟".

نسرين.. نسرين.. الساعة، نفس صاحب، قدر يراهن
 بالحياة فخرها.

(39)

ردهة واسعة ذات سقف عالٍ تتدلى منه ثريا كريستال، خالية من الأثاث والمفروشات تمامًا، حتى الستائر، يتسلل الضوء إليها من خلال عدة نوافذ طويلة وعالية، يجلس رجل شاحب اللون، يرتدي بذلة سوداء مهمة تحتها رابطة عنق مفكوكة، أزرار قميصه العلوية مفتوحة لتبين الرداء الداخلي الأبيض المصفر من العرق، يدخل سيجارة أخيرة بشره وخوفٍ من انتهائها، وعلبة سجائر ملقية مفتوحة، يمتلئ رحمها بأعقاب سجائر وندف تبغ رمادية محترقة، موضوعة على مائدة صغيرة يستند إليها بمرفقيه، نظراته منكسرة من ثقل الهم، كل شيء هناك مهمل، شعره، ثيابه، بعض الأوراق ممزقة ملقاة على أرض الردهة، إلا شيء واحد له قيمة واضحة، بريق نادر له سحر خلاب "الساعة الذهبية" دخل من باب الفيلا رجل طويل القامة أشيب الشعر، هذا الرجل هو تمامًا أبي، نفس الجشع وسواد القلب، أشار بيده نحو الساعة، شعر الرجل الحزين بالهم كالذبحة الصدرية يسري في صدره كالصاعقة، أمسك

بذراعه اليسرى، ثم وضع يده اليمنى على صدره وأخذ يملكه ويتنفس بصعوبة، أخذ أبي الساعة وخرج دون أن ينظر خلفه، ترى هل مات التاجر أم ما زال حيًّا؟

لا أعرف ما القوة العجيبة التي دفعتني لرسم ما تخيلت أنه حدث للتاجر صاحب الساعة وعدلت عن رسم نسرين، ربما خفت من الفشل، العجز في تصوير جمالها الفريد، وأن أرسم بدلًا منه مسخًا لا معنى له.

أصبحت تلح علي الرغبة في إرجاع الساعة إلى صاحبها، ليته يكون بخير، أتمنى أن أرى الفرحة في عينيه، أما هذه الرسمة فستكون هدية مني لذلك الرجل "أبي".

ارتديت بذلتي الرصاصية بعدما قامت أميرة بتنظيفها وكيها، نزلت وقد قررت أن أحظى ببضع إجابات لأسئلة ملحة كانت كالوسواس القهري مزعجة وعنيدة، طالما أرقنتني وصبت سعار الحيرة في دمي، يجب أن أنتهي منها جميعًا، فكانت وجهتي الأولى هي شقة أخي عفيفي بالمعادي.

فتحت لي بنته الكبرى رضوى، تغير شكلها كثيرًا لم تعد تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تجري إلي مندفعة، تعانقني، تغمرني بشغف الطفولة فأحملها على كتفي، يبدو أنها بلغت مرحلة المراهقة لتوها، أو بلغت مرحلة الوعي السوداوي لعائلتنا الكريمة، نظرت إلي نظرة لا تخلو من الدهشة وتكلمت متلعثمة:

- من؟

- عمك صالح يا رضوى! الذي كان يحكي لك قصة جنية الأمنيات الطيبة، هل نسيتني؟

سمعت صوت أمها يأتي من الداخل يسألها عن الطارق، فدخلت ولم أرها مرة أخرى، وظل الباب مواربًا خمس دقائق كاملة حتى أشرعه عفيفي عن آخره.

- صالح! أهلاً، تفضل ادخل!

قالها مرتبكا، لم أدخل هذه الشقة منذ اليوم التالي لزفافه عندما جئت مع سهير لتهنئة العروسين، ما زالت على حالها، لم يتغير فيها أي شيء وكل شيء كما كان

بنفس النظافة والبريق، لكن هواء الشقة خائق لا يطاق،
لم تحضر زوجته هند لترحب بي، الأمر بكل بساطة
واضح فأنا غير مرحب بي.

- سأدخل في الموضوع مباشرة حتى لا أطيل عناءكم،
عندي سؤالان أعتقد أن إجابتهما عندك وأتمنى أن
تريحني، فحبس الإجابة سيكون تصرف غير أخلاقي.
- تفضل.

- لماذا تركتم كريم يسحب رصيدي من البنك؟

- والسؤال الثاني؟

- لماذا تكرهني؟

رمقني بنظرة طويلة مشبعة بالصدمة، الحقيقة لم أفهم
مغزاها، أظن أن السؤال كان مفاجئًا لذلك ربما يحاول
كسب بعض الوقت ليجد إجابة مثالية أو منطقية
تخلصه من الحرج، نظر إلى تمثال نحاسي وتناوله من
فوق مكتبه، التمثال لامرأة معصوبة العينين تحمل

ميزانًا، هذا الذي يعني أن العدالة عمياء ولا تفرق بين الناس في الحكم ولا تخضع لمشاعرهما، لكن يا ترى هل المطبقون لها عميان أيضًا؟

- ألا تعرف حقًا؟

- لا.. أرجوك أخبرني.

أخرج من درج مكتبه مظروفًا بني اللون يكتظ بالصور، أخرج الصور وناولني إياها فإذا بها تسجل حالاتي المزرية التي أصبحت عليها في الحارة والمكان الذي أعيش فيه وسكري وطيشي، طبقًا مثل هذه الصور مع قصة طردي من الجامعة كافيين لأفهم.

- أعتقد أن قصة انفلاتك لم تبدأ مع تعرفك على ذلك النقاش، لا، إنها قصة قديمة جدًا بدأت منذ طفولتك، طيشك وتسلقك أشجار الحديقة والقفز من شرفات الفيلا وفي الثانوية العامة مستهتر منشغل برسومات لا قيمة لها حتى ضيعت درجاتك، وللعلم يا صالح أنت لا تستحق أن تراث أُمي.

- لماذا لا أستحق ميراثها هل هذا مجازًا أم شرعًا؟
ألسْتُ ابنها مثلك؟

كان وقع الجملة على نفسي مزعجًا مدويًا، هل السيدة
حقًا ليست أُمي كما رأيت في الحلم، الحقيقة أنها لم
تحاول يومًا تمثيل دور الأم.

- لقد أجبت عن سؤال الكراهية وإن كان انفلاتي ليس
دافعًا لأن تكرهني، ويبدو أنك تعرف الكثير من
الحقائق الغائبة عني، أرجو أن تميط عنها اللثام.

- الحقيقة كاملة عند أبيك اذهب إليه واسأله.

كان واضحًا جليًا أن وجودي ثقيل والإطالة تربك
الجميع.

- بالمناسبة هل أنت من تسبب في سجن عثمان
النقاش؟

- أنا لم أظلمه، فقط أبلغت عنه وقد وجدت الشرطة
عنده المخدرات.

قمت وكلانا يتحصن خلف صمته وترقبه، عبرت
الطريقة ذات الضوء الخافت متوجهًا إلى الباب وهو
يسير خلفي صامتًا أكاد أسمع أنفاسه ونبضات قلبه
المضطربة، فتحت الباب وخرجت لم أنظر خلفي.

- صالح.

التفتُ إليه ولسان حالي يقول "تري.. هل نسي شيئًا
لإيلامي؟".

- أنا لم أكرهك يومًا.

صمت لبرهة أريد خلالها وجهه وبدأ أنه سيقول شيئًا
كبيرًا.

- لكني أيضًا لم أحبك.

"حقًا، إنها حقيقة واضحة كالشمس، إنه لم يحبك وأنت
متمتع بمكانتك المرموقة فما بالك بعدما ضيعت كل
شيء؟".

نعم، لهذا لم أبال بما حدث وكل ما شغلني بعدما وليته ظهري هو ذلك السؤال: لماذا لا أستحق الميراث؟

"ربما يقولها مجازًا لأنك خيّبت ظنّها ولم تسر على دربها أو تحقق أحلامها".

الأمر أصبح كله عند أبي وها قد جاء دوره ليكشف لي الحقيقة كاملة، توجهت إليه مباشرة.

فتح لي الباب العم فتحي الخادم، لا أنكر أنني طول الطريق أشعر بكرهية لهذا البيت كانت تدفعني بقوة إلى التراجع، لكن لا بد أن أكمل الطريق.

المكان هادئ تمامًا أسمع نقرات حذائي على الأرض الباركيه بوضوح، باب حجرة المكتب موارب، يجلس على كرسيه الخشبي الكلاسيكي ذي الظهر الطويل، في يده اليمنى سيجارة ترتعش بين إصبعيه، كانت هذه أول مرة ألحظ فيها هذا الكم من الحزن والبؤس في عينيه، زادت حدة الغضون، أصبحت غائرة، تراصت الخطوط رأسياً بين أنفه وشفته العليا، فقد الكثير من

وزنه، تهدل الثوب على بدنه، نظر لي وظهرت على
أساريه الفرحة المنكسرة وشجن الحنين.

- صالح!

قام متلهفًا وتحرك مهرولاً نحوي:

- تعال يا ولدي اقترب!

كنت قادمًا أحمل في جعبتي سهام الغضب ومتحفزًا
تمامًا لرميه بها بلا أي رحمة، أخزُّ بها ضميره وأريق
دماء منطقته، لكن نظراته الثكلى وصمته الكئيب
أعجزاني عن النطق أو حتى استدعاء مشاعر الحقد
والكراهية، عانقني بقوة، بكى، بكى كثيرًا حتى انتفض
جسده.

- اجلس يا ولدي.

تاه الكلام وتضاربت المشاعر، نعم هذا هو أبي الذي لم
أره منذ شهور طويلة، أوحشني كثيرًا هذا الرجل الدائم
الخدلان لي.

- لماذا لم أشعر يوماً بأنك أبي؟

- هل جاء الأوان لتحاسبني يا ولدي، ترى ماذا تسجل لي من الأخطاء والتقصير؟

- جئت أحاسبك على ما حرمتني من الحنان، أحاسبك على خذلانك وعدم مساندتك لي في أوقات كثيرة، وتخليك عني في مواقف فارقة، وتلك السيدة زوجتك، إنها لم تستطع يوماً تمثيل دور الأم.

- لا تظلمها كل الظلم يا ولدي إنك لا تعرف شيئاً، إنها ليست شيطاناً كما تظن، ادع لها بالرحمة!

- أدعو لها بالرحمة؟! إنها سر عذابي وشقائي، إني أكرهها.

- هل تعرف يا صالح...؟ أنا أحبك حقاً رغم كل ما فعلته وما أسأت به لسمعتنا.

- لماذا تتحدثون عن حبكم لي كأنه منحة وليس الفطرة؟ حتى عفيفي يرى أنني لا أستحق أن أرثها، هل

الميراث أيضًا منحة منكم؟

- ماذا قال لك؟

- ما قاله هو نفس ما تقوله، إنكم تحومون حول الحقيقة وتخشون الاقتراب منها، تكلم وقل لي ماذا تخبئون، لقد أرهقتموني بأحوالكم الغامضة!

سكت يفكر في شيء ما، ربما لم يتوقع كل ما يدور الآن، لكن الحقيقة دائمًا ثقيلة معلقة في السماوات تأبى إلا أن تهبط فوق رؤوس منكريها.

- كنت أفضل ألا تعرف الحقيقة يا ولدي، لكن الآن أرى أنها السبيل الوحيد لرفع الظلم عنا.

- جيد لنبدأ المكاشفة إذًا.

- لقد مرت خمس سنوات على زواجي بها، لم يرزقنا الله بالأبناء فقررنا في لحظة يأس وشغف للأطفال أن نتبنى طفلًا يتيماً، كان الأمر ثقيلاً عندما طرحناه أول مرة للنقاش، لعدة أسباب أهمها هو عدم رغبتنا

بالاعتراف بعقمنا، ورغبتى العظيمة في إنجاب ولد
يمنح شجرة العائلة الاستمرار والتمدد، حلمنا أن ننجب
أطفالاً مميّزين يرثون صفات النبوغ والذكاء
ويستفيدون مما لدينا من إمكانيات اجتماعية ومادية.

استرجعت وأنا أسمعه يحكي شرائط الذكرى، ما حدث
في سنين زواجي الأولى، أتذكر ما دار بيني وبين
سهير بعدما يئست محاولتنا فذهبنا نطرق أبواب دور
الأيتام، أنا مثل كريم تمامًا لقيط.

- بحثنا كثيرًا عن الطفل المميز، وكنت أنت، بدت في
عينيك علامات الذكاء واليقظة، بمجرد أن رأيناك قلنا
هذا هو المطلوب.

كان كريم لطيفًا جميلًا، شعره ذهبي وعيناه عسلتان
بسمته أسرة، تساءلنا كيف لأم وأب على وجه الأرض
أن يتخلصا من ملاك جميل مثل هذا الطفل، وهل من
المنطق أن تنجب الخطيئة كل هذا الجمال.

- انشراح تبحث عن الذكاء، عن الطفل الذي تصنع منه أسطورتها الخاصة، عبقرياً تتحدى به العالم.

كنت أبحث عن طفل جميل حنون، مجنون يحب الحياة، يتصرف بحرية وانطلاق، لم يكن لدي مشاريع علمية أريد تطبيقها عليه.

- فكنت أنت فرحتنا ومشروعنا، اهتمت بتعليمك وتدريبك، لكنك كنت تشرد عنها تتبع الفراشات، والسحابات الهائمة في السماء، الورود التي تزهر من أشجار حديقتنا في الربيع، تقف في الشرفة وتمد يديك للسماء تريد التحليق واقتطاف النجوم، سقطت يوماً وكسرت قدمك، وانكسر فيك أملها، أصبحت ترى حلمها يتهاوى حتى رزقنا الله بعفيفي، رأيت حينها أن الفرصة لم تضيع وأصبح أملها الحقيقي فيه، ومع ذلك لم تستلم معك.

لقد خيب كريم ظني أيضاً فقد كان كما تتمنى أُمِّي وخلافاً لما تمنيت أنا.

- لم تبخل يوماً عليك في الإنفاق، كانت تشتري لك الثياب وتطعمك وتعلمك مثل أخيك تمامًا، كل قراراتها القاسية كانت من أجل مصلحتك من وجهة نظرها، تريد لك زوجة عظيمة ومن عائلة كبيرة، وكذلك تمنى لك عملاً يؤمن لك مستقبلاً مرموقاً، حاولت قدر الإمكان أن تعاملك مثله، لكن الفطرة كانت تغلبها والحنان يسبقها لابنها، كانت تكره فيك التحدي وانشغالك بما لا يفيد أو ينفع، وعصيانك وأوامرها وهدمك المتعمد لقوانينها ونظامها، لم يكن الدافع هو الكراهية كما تعتقد.

- لكن إن لم أكن ابنها فلم جعلتموني أرثها؟

- لا يا ولدي إنك لم ترثها لقد أعطيتك من مالي الخاص.

قام من مكانه يقترب مني والدموع تبلل وجنتي، أخرج منديلته وقام بمسح عيني ووجهي.

- تعال يا ولدي ننس كل ما سلف، سأتوسط لك لتعود
إلى عملك بالجامعة وعُد إلى شقة المهندسين، أو تعال
عش معي هنا في الفيلا واترك الحارة والضياع الذي
تعيش فيه، هذه الحياة لا تليق بك.

(40)

"يا الله، كم دوّختني يا دكتور، هل كل هذه الكراهية كانت ظلماً لهما؟".

نعم مع الأسف، تمنيت وأنا أسمعه أن تنشق الأرض وتبلعني، لم أعد أملك حق الحساب، فقط شعرت بالخزي، فأنا ذلك اللقيط أو المتسول الذي يحاسب المانح على قلة عطائه، أنا لست ابنهما وكانا يربيانني شفقةً، تخيل عندما تقوم ببناء صروح على أسس كنت تظنها حقائق قوية راسخة، وتعد نفسك ضحية ولأنك عنيّد تقرر أن تصبح خصماً، وتبنى شخصيتك كلها على مدار عقود لتواجه رغباتهم وتمددهم الاستعماري بداخلك، وفي النهاية تكتشف أن كل الحقائق مجرد زيف وما أنت إلا إنسان بني على باطل، نعم أنا هذا الباطل، أنا الباطل تماماً.

"أتدري لقد راقّت لي تلك الفلسفة التي حاولت انشراح هانم تطبيقها، محاولة صنع الإنسان الكامل أو المثالي،

تحدثنا في هذه المسألة سالفًا لكننا لم نستفِض فيها، أو أرجأنا الحديث فيها".

الأمر ليس مثاليًا كما يبدو لك في لحظة التأثير هذه، فكما قلت لك سابقًا إن فكرة الإنسان الكامل غير واضحة تمامًا كما أن فكرة القوة نفسها فكرة نسبية تتغير بتغير أدوات القوة من مجتمع لآخر ومن زمان لآخر، مثل ما حدث من انتقال لطبيعة الحكم المصري من الملكي إلى الجمهوري بعد ثورة يونيو، فبعدما كانت السلطة مركزة في يدي الملك وحده، انتقلت في ظل الحكم الجمهوري لآلاف الملوك الجدد من رجال الجيش والشرطة والقضاء، كانت العائلة تحترف سبل الوصول إلى القمم، وإن كنت تريد أن تحافظ على هذه القمة ولا تندثر كالديناصورات فيجب أن تكون مرناً وتدرّك متطلبات المرحلة، وأن تغير جلدك وفكرك سريعًا، لهذا تغيرت نظرتهم إلى القوة والتفوق والمثالية، وبشكل مفاجئ تغيرت خطتهم وجعلوا عفيفي يتخلى عن تفوقه العلمي ويدخل كلية الحقوق ليصبح مستشارًا، ولم تستقر بعد نظرتهم إلى القوة،

فلكل عصر أدواته حيث دخل رأس المال من جديد ليصبح قوة كبيرة في عهد انفتاح السادات، وامتزاجًا مع العناصر السابقة أدركوا بإبداع أن تزاوج المال مع السلطة يولد قوة عظمي يصعب انكسارها وتمدد يصعب انحساره، فدخلوا عالم الأعمال واستغلا كل ما لديهم من علاقات، على أي حال لا أملك إلا الاعتراف لهما بالفضل فلولاهما لكنت الآن فاشلاً أو مجرمًا يهدد المجتمع لهذا حاولت مواراة الرسمة التي أحضرتها معي لكنه رآها.

- ما هذه الورقة التي بيدك؟

كانت السوط الذي أعدته لأجلده به، لأفرغ عليه جامات غضبي، سحبها برفق من بين يدي ثم فتحها، نظر إليها فتجمد كتمثال نحت من الخشب، ترقرت الدموع في عينيه ثم انهمرت وزادت الخطوط علامات الأسى على وجهه.

- كم كنت قاسيًا حينها، لعن الله التجارة والربح والخسارة.

اتكأت اللوحة على جراحه بعنف، يبدو أن ما فعله بالتاجر جزء من مأساته التي يعيشها الآن، وربما هذا النوع من الأخلاق والصراع المحموم لجمع المال والجري الأعمى جعله يدهس أناس كثيرون بلا رحمة.

- أبي أريد أن أعيد الساعة لذلك التاجر.

- نعم يا ولدي لا بد أن نذهب إليه، أريد أن أطمئن عليه وأمد إليه يد المساعدة لعلّي أريح ضميري.

اتفقنا على موعد لنبحث عنه ونذهب إليه، تمنينا بصدق ألا يكون قد فات الأوان.

عدت هائماً تائهاً كمن فقد ذاكرته أو كمن فقد هويته في بلد غريب، كورد النيل أطفو على سطح الحياة زاهي الخضار جميلاً لكن بلا جذور، بلا فائدة، عبء، عائق.

عاد بي التيار إلى الحارة، لماذا هذا الحنين إلى الحضيض؟ ربما أنا نتاج خطيئة سكير مع ضائعة، ارتكبا جريمة الخلق غير الشرعية في جنح الظلام، من

أجل شهوة حيوانية، كلبان شريدان نادتهما الغريزة
فَلَبَّيَا النداء، هكذا ببساطة وبلا أدنى مسؤولية جئت
إلى الحياة.

أول من شاهدت بمجرد دخولي الحارة كان سعيد،
جالسًا على المصطبة ينظر إلى الأرض ويحرك
الحصوات بنعله، عندما وقفتُ أمامه مباشرة ولم يعد
يفصل بيننا شيء نظر لي والدموع تسيل من عينيه.

- العم نبيل توفي في المشفى، لم يحتمل الصدمة،
رحمه الله!

قتلته الصدمة، وكذلك الصدمات المتلاحقة زلزلت
الناس الذين لم ينظروا إلى نسرين قط على أنها
عاهرة، بل كفتاة جميلة جرفها لهو المراهقة.

- قُتِلَتْ! بأي ذنب؟ الرجل الطيب مات، الحارة كلها
متورطة في هذه الجريمة، أياديهم ملوثة بدمائها،
أولئك الذين غضوا أطرافهم عن السقوط المدوي
لجميع القيم.

ألقى سعيد الخبر على سمعي والحزن يطحن قلبه طحنًا، اختفى جعفر عن الأنظار يومين ثم قبضت عليه الشرطة، حققوا معه وعذبوه قدر استطاعتهم لكنه لم يعترف بشيء وخرج للحياة بريئًا بشهادة الحكومة، كل أهل الحارة موقنون أنه فاعلها، يسير مختلًا متطوحًا يواجه الظنون والعيون الرامقة بنظرات السخرية والتهكم.

أُغِلَّت غرفة الكيف عدة أيام حدادًا لنفوس تكلى.
 "ثم ماذا حدث؟".

لا شيء، لا جديد، فُتِحَتْ مرة أخرى وعاد الشيطان يحمل الكيس الأسود، وكأن شيئًا لم يكن.

"عجيب أمر هذه الثلة، تتوالى عليهم الكوارث والمصائب ويظهر عليهم التأثير، حتى أظن أنهم سيتوبون أو يتغير حالهم لكن كل مرة لا يحدث شيء".

نعم كنت أعتقد هذه المرة أن الحادث سيغيرهم لكن ذلك الوهم تبدد عندما صعدتُ إلى السطح بعد صلاة العشاء ورأيت باب الغرفة مشرّعًا يخرج منه الدخان، تذكرت رغبتني الملحة بفك الألغاز وإيجاد الحلول لأسئلتني، سرت إليهم وكلي رغبة حقيقية لرؤيتهم بعين جديدة، النار لتوها هدأت والجمرات توهجت.

- أهلاً وسهلاً.

سمعتها من أفواه الثلاثة، توهجت مُقل الثعالب الخبثاء، تلالأت بسمات الانتصار على وجوههم، رمق جعفر ساعتني كأنه يراها لأول مرة ثم سألني:

- كم ساعتك الآن يا دكتور؟

كانت بالمصادفة الثامنة تمامًا وكأن الحكاية مقدرٌ لها أن تبدأ في هذا التوقيت وأن تنتهي عنده أيضًا.

- أيهمك الزمن؟ حياتك كلها لا قيمة لها.

ضحك كالأبله غير مدرك ما تحمله الحروف من معاني
الاحتقار، نظرت إلى الشيخ نعمان وسألته:

- لماذا لا تعود إلى الصلاة في المسجد مرة أخرى؟ هل
وجدت في الخمر والضياع ما ينسيك ابنك وزوجتك؟
عد إلى ربك لعله يعينك على الصبر.

نظر إلي متعجبًا ثم تكلم بلهجة متهكمة:

- لقد جاءنا نبي الله صالح ليهدينا هاهاها، أين الناقة
هاهاها؟

تحدث عني كأني ضالٌ والحديث عن الهداية لا يليق
بي، ضحكوا ثلاثتهم كالمعاتيه ثم قام جعفر فنفت
الدخان في وجهي، أشحت بوجهي بعيدًا أتجنبه، مد
لي سعيد زجاجة خمر، وقال:

- اشرب يا دكتور وانس هذا الكلام، لا فائدة ترجى منا.

- لا أريد.

- أقسم بالله لتشربنها.

- أقسم بالله لن أشربها.

- والله لتكوننَّ امرأتِي طالقًا إن لم تشربها كلها.

فقام جعفر فاتحًا الزجاجة ثم سكب الخمر في فمي
عنوة وأنا أقاومه مستميثًا، تسيل الخمر من فمي
وتتساقط القطرات من ذقني وهم يضحكون ضحكًا
مبحوحًا كالعويل.

- هل تريد أن يطلق الرجل زوجته يا دكتور؟

بلعت ما سكب وأنا غاضب لا أستطيع التملص،
فحدثت سعيد بكل ما أحمل من غلٍّ وغضب:

- أنت أكثر رجل ظالم في هذه الحارة يا سعيد، معلق
في رقبتك كل ما يُرتكب فيها من جرائم وآثام، والله
إني لأتعجب منك يا رجل، ولم أدرك يومًا حقيقتك، هل
كانت قضيتك في الحارة هي تحقيق العدل وحفظ
الأمن أم كانت هيبتك؟ شياطين الحارة ترتع بفضلك
وفي حمايتك، كنت أظنك شهماً لكنك كالشيطان

الأخرس أو أشد سوءًا فأنت لا تصمت عن الحق فقط بل تحمي الباطل وترعاه.

أريد وجهه وبدا الشر في عينيه فأكملت إفراغ جام غضبي عليه والشيطان جعفر يتناوب مع نعمان صب الخمر في فمي عنوة، علت الضحكات وثقلت الألسن وترنحت الأذرع، أزجرهم وأدفعهم بعيد عني لكن بلا فائدة.

- كيف تُصلي حتى احتلت علامة الصلاة أغلب جبينك؟ كيف تركع وتدعو الله متضرعًا أن يرزقك الجنة والستر لبناتك وأنت تحمي هذا الشيطان الذي قتل نسرين؟ ضع نفسك مكان أبيها، تخيلها إحدى بناتك يا أخي، من في الحارة كلها عنده شك أن هذا الكلب هو قاتلها؟!

- اسكت يا دكتور؛ إن للصبر حدودًا!

قالها سعيد وهو يعض على أسنانه، ثم قام جعفر فأمسك بطرفي ياقتي بقوة ووجهه أصبح كمسخ

متوحش، يكاد يخنقني، اقترب من أذني وهو يزيد ضغطه حول رقبتني ثم تكلم بصوت خافت حاد، والروائح النتنة تخرج من فمه.

- أنا كلب يا ابن المومس، فاسمع هذا السر هدية مني إليك، نعم، أنا قتلتها بعدما سيّلت الدماء بين ساقبيها، آه لقد كانت حلماتها وردية شهية مسكرة، كنت أمضغها بأسناني مضغًا، وأعصر نهديها عصرًا.

أفلتني المجرم لأغرق في بركة سوداء من الألم والضياء، أبحث عن قبس من نور لعقلي أو شهقة أكسجين لنفسي، شرب الجميع بنهم كمرضى يقتلهم الألم فيأخذون جرعات من الأدوية المسكنة مضاعفة ولا يحسبون للعواقب حسابًا، لا يتوقفون عن الضحك المقيت والهذي، تسيل الدموع من أعينهم، بلغ السكر بالجميع مبلغه وأنا بينهم كخرقة متكومة يسترقون النظرات إلي من حين إلى آخر، قام سعيد فاستند إلى نعمان وذهبا يترنحان، وما زلتُ وجعفر ماكثين بالغرفة، هو يبحث عن نعله وأنا أبحث عن العدل.

القدر منحني لحظة مصيرية لنصب المحكمة، مشى
يترنح يستند إلى الجدار حتى وصل إلى الباب، وأنا
خلفه لا أبرح ظله، خرجنا من الباب فحَضَرَتِ
الحمامات المتفحمة الواحدة تستدعي الأخرى، وقفن
في حلقات عدة وبدأ الدخان يخرج من أجسادهن
السوداء.

- تعال يا جعفر أريدك!

نظر لي ثم ابتعد عني مذعورًا جاحظ العينين يباعد
بيني وبينه بذراعه، وكأنه رأي في وجهي قابض
الأرواح ماذًا يديه!

- ماذا تريد يا دكتور؟ ابتعد عني أفضل لك، فلا قبل
لك بي، أنت لا تعرفني أنا شيطان ابن حرام!

قبضت على ذراعه بقوة الغل ودافع الكراهية، سحبته
نحو السور وهو يقاومني خائر القوة، زحفت الحمامات
تتبع خطانا وازداد علو دخانهم وبدأت جذوات اللهب
تطل من رؤوسهن وأخذت النار تلتهم سوادها

المحترق، حاول دفعي أو الإفلات مني وأنا قابض عليه
قبض القدر، حتى وصلت به إلى السور، قفزت
الحمامات ترتقين السور فتراصضن وقد أصبحن كتلاً
من اللهب أو الجحيم المستعر، وقفْتُ خلفه كالشّناق أو
السيّاف وهو مستسلم للحكم مرتعد مرتعش ثم دفعته
من ظهره بكل قوتي، فانطلقت الحمامات دفعة واحدة
تطير إلى السماء، عادت بيضاء بلورية كالثلج.

(41)

- ترى يا شيخ ماذا سيفعل الله بالناس يوم القيامة؟
هل سيسوقهم إلى الخلود في الجحيم سوقًا؟

- ما ظنك بالله الرحيم، هل تظن أن الله أكثر نازية من هتلر؟! أو أقل رحمة من الأم بأطفالها؟! جزء من رحمته يتراحم بها الناس والدواب حتى يوم القيامة، وتسع وتسعون يتركهم لنفسه ليرحم بها مخلوقاته، هل تدري...؟ أعتقد أن هذه المعادلة على سبيل التقريب، فرحمة الله مطلقة ولا يمكن حسابها ولو بمعادلات افتراضية تقريبية، فالله يملك المطلق من القدرات والصفات العظيمة.

هل هناك أمٌ رحيمة تحتل رؤية أبنائها يحترقون إلى الأبد؟ سأعيد تأويل النصوص بحسب ظني بالله.

"أراك -وقصتك موشكة على النفاذ- قد جمعت في نفسك بين السلفية والصوفية والإلحاد، كيف فعلت هذا؟ لقد جئت بما لم يجئ به مخلوق من قبل".

كل دين بلا رحمة مطلقة فهو بالضرورة دين به خلل، وأنا سأدين بدين الرحمة حتى ألقى ربي، وسيخبرني حتمًا بأنني أكثر إنسان فهمته على وجه الأرض، لذلك قررت أن أرحم الجميع وسأساعدهم وسأسامح أبي وعفيفي وكريم وكل من آذاني وسأرحم العالم كله من شر الشيطان جعفر، نعم لقد ذبح سيدنا الخضر الغلام وخرق السفينة وهدم الجدار أليس كذلك؟ شرٌّ في ظاهره، ورحمة في الباطن.

دخلت أميرة الغرفة، تحمل صينية الطعام، واجمة تتحاشى النظر إليّ، وضعت الطعام أمامي وخرجت صامتة ضجرة تنفخ بغيظ، شعرت بألم رهيب في يدي فنظرت إلى موضع الألم فإذا بي لا أجد الساعة، فقط وجدت آثار خدوش بمعصمي، صدمت صدمة رهيبة وأدركت حينها المعنى الحقيقي للفرع، أين الساعة؟ هل تشبث بها جعفر أثناء سقوطه، هل قتلته فعلاً أم كان ما حدث مجرد وهم من أوهام السكر؟ ستكون حتمًا دليلاً قاطعاً على إدانتني.

- أميرة، أميرة!

جاءت عاقدة الحاجبين واجمة تواري عني عينيها!

- نعم؟

- ماذا بك حبيبتى؟ أراك غاضبة مني!

- ألا تعرف؟ والله لقد اعتقدت أن الله قد شفاك من هذا البلاء وتاب عليك، قل لي يا رجل كيف تعود من المسجد على هذه الغرفة النجسة الملعونة، أأوحشك الضياع سريعًا؟ أما لك من عزيمة ولا كرامة؟ هل تعلم أن صاحبك الملعون سقط من فوق السطح وهو سكران، في نار جهنم وبئس المصير بإذن الله، لعنة الله عليه إنها الخاتمة التي يستحقها، أتذكر تلك المرة عندما أنزلتك من فوق السور وكنت على وشك السقوط؟

قلت لنفسي.. ترى.. هل ستصدق أنهم سقوني الخمر عنوة في هذه المرة بالذات؟ وهل ستفهم واحدة مثلها أن قصدي من الزيارة كان رغبتى القوية لمواجهة كل شيء حيرني وما زال يحيرني والإفصاح عن كل ما

يدور بنفسي؟ لكن المفزع حقًا في كلامها هو الشق الأخير منه

- أيُّ واحد منهم فكلهم ملاعين؟

- أخبثهم، جعفر سقط من فوق السطح فجراً، جروا به إلى المشفى ومات هناك!

لم يكن حلمًا ولا وهمًا هذه المرة بل حقيقة، سقط الملعون وفي يده ساعتى، من بالحارة كلها لا يعرفها، هل هذه نهاية حكايتها معي؟ هل هذا ما كانت تخطط إليه وتسوقني نحوه؟ ستقف في وجهي شاهرة نصال عقاربها وتشهد ضدي، ستسلمني لشانق الأرواح: "هذا هو القاتل، هذا من دفع جعفر وأنا الدليل"، تخيل إن كان المنتبهون يدبرون الجرائم ثم يتركون ورائهم الثغرات والأدلة فما بالك بسكران مثلي؟ ترى كم من دليل تركت خلفي؟

- اسمعيني يا حبيبتى تعالى نرحل من هذا المكان، سنذهب إلى شقة المهندسين، عالم مختلف، حياة

راقية وجيدة لتربية أولادك، كنت عند أبي أمس
ووعدني أن يتوسط لأعود إلى التدريس بالجامعة،
سنترك الحارة وسننساها إلى الأبد!

رأيت الفرحة تغمر أساريها وأخذت تطلق أسئلة
كثيرة متتابعة متلهفة "حقًا! متى سننتقل؟ ما شكلها؟"
ولم تترك لي فرصة واحدة للرد حتى قطع حالة البهجة
نداء سعيد من خارج الغرفة، خرجت له مهرولًا، وقلبي
وجل، ترى لماذا يناديني في مثل هذا الوقت؟

- عليكم السلام تفضل يا ربّس، أرجوك يا أميرة
اصنعي له كوب شاي!

جلس واهنًا وبدا مهمومًا، صامت ساكن إلا من عينيه
التي أخذت تسترق النظر إلى معصمي، ترى هل وضع
يده على الدليل؟

- أين ساعتك يا دكتور؟

- لا أذكر يبدو أنني وضعتها في مكان ما، لكنني لا أذكره
الآن.

صمت مرة أخرى والحيرة والارتباك باديان عليه:

- هل تعرف ماذا قال وكيل النيابة؟

- في ماذا؟

- في مقتل جعفر!

- جعفر قُتل؟! كيف ومتى؟!

- بعد سهرتنا البارحة سقط من فوق السطح.

- لا حول ولا قوة إلا بالله وماذا قال وكيل النيابة؟

- قال إن في الأمر شبهة جنائية، فلو كان جعفر سقط بسبب السكر لسقط بجوار جدار البيت مباشرةً لكنه سقط في منتصف الحارة وهذا دليل على أن أحدًا دفعه من فوق السطح دفعة قوية.

صمْتُ قليلًا ونظرتُ إلى الأرض أفتعل الحزن ثم حدثته:

- وما رأيك أنت؟

- إنه لأمر محير حقًا، لكن لم العجب فكارهو جعفر
كثيرون، كإبراهيم صاحب غية الحمام المحترقة
والكثير من تجار البرشام المنافسون له في المنطقة،
والشباب السوهاجي الذي شوه وجهه.

صمت طويلاً نظر خلالها إلى الأرض وعصر جبهته
بإصبعيه، ثم استأنف:

- المأمور وبخني وهددني بالتحقيق معي، يقول إن
جرائم كثيرة ارتكبت في الحارة وأنا ساكت عنها، هناك
من أخبره بكل ما يحدث في الحارة، بيع البرشام
والحشيش غير ما يحدث من شجارات!

قام واستدار هامًا بالرحيل لكنه بعد خطوة واحدة
تجمد برهة ثم استدار ونظر إلي مرة أخرى، أخرج
شيئًا من جيب سرواله وناولني إياه:

- خذ الساعة!

ارتجف قلبي بعنف وكاد يقف عندما رأيته:

- أين وجدتها؟

- لقد انتزعها جعفر من يدك عنوة وأنت مخمور أمس،
لم يسعفه الحظ ليستمتع بثمن بيعها، وجدتها ملقاة
تحتة ونحن نحمله إلى المشفى.

- آه سامحه الله، كان شقيًّا!

تنفست الصعداء أخيرًا، لكني لم أُن ارتياحي، فذلك
الرجل لا يشك في أبدًا، آه لو علم أنني من دفع الشقي
من فوق السطح!

(42)

لم أشعر بتأنيب الضمير ولا حتى لثانية واحدة، فجعفر قتل نسرين، نعم لقد اعترف لي، ومن قتل يُقتل ولو بعد حين.

"وهل وكلت بالقضاء والتنفيذ؟ كيف أعطيت نفسك هذا الحق؟".

حقًا أنا لست ممثلاً للعدالة، ولم ينل إبليس محاكمة عادلة، لكن أين العدل في هذه الحارة البائسة؟ أنا أقمت العدل بضمير مرتاح، ربما كانت مخاطرة ومؤامرة بين ضميري والخمر والحشيش، وتم تنفيذ الحكم بعقلي اللاواعي، لقد خلّصت الحارة من مصدر الشر والبلاء، وهذا شيء عظيم.

"ولم لا تفترض أن يكون جعفر قد سقط فعلاً بسبب السكر أو أن شخصًا آخر قد دفعه، أذكر أنك حلمت من قبل أنك تدفعه من فوق السطح، يبدو أن الخمر استحثت عقلك الباطن لترى أمنياتك كأنها حقيقة،

بدليل الساعة، أنت قد اعتقدت أن جعفر تشبث
بالساعة أثناء السقوط لكن سعيد أثبت لك أن ما كنت
تظنه ما هو إلا وهم".

هذه المرة أنا موقن أنني دفعته، هل يتصادف الوهم مع
الواقع بهذه الدقة؟

"على أي حال لم يتبقَّ من قصتك سوى القليل، استمر
دعنا ننتهِ!".

قررت الرحيل ولم يهمني أو يشغل بالي أن هذا
التصرف المفاجئ قد يثير الشكوك، فجعفر بالنسبة
للجميع مجرد فأر سقط من فوق السطح، الجميع فرح
لموته إلا ثلته التي كانت تستفيد من تجارته في
المخدرات.

أميرة في واديها هائلة سعيدة، أصبحت تتعامل مع
الحارة كأنها ماضٍ بعيد منسيٍّ، تجمع ثيابها وثياب
عيالها في الحقائب، وتترك الممزقة والقديمة والباهتة،
لن تليق تلك الثياب التالفة بالحياة الجديدة، مرت

الأيام اللاحقة هادئة هدوء ليث رابض مترقب، ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض.

كنت ألاحظ في أثناء زهابي إلى الجامعة لأتابع تطور الأحداث ومدى نجاح مساعي أبي، وكذلك عند زهابي إلى المسجد وإيابي منه ترقب ثلة جعفر، يحدجونني بنظرات تملؤها الكراهية والرغبة في الانتقام، أمر غريب حقًا، هل رأي أحد وأنا أقذفه؟ أم تفوه بالحقيقة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أخذت أميرة إلى شقة المهندسين لتقوم بتنظيفها، عندما وطئت قدمها عتبة الشقة وفتحت لها النور رأيت في عينيها نظرات دهشة عظيمة، لا تصدق أنني كنت أعيش في هذا النعيم وهجرته لأعيش في الحارة، لم أستطع الإجابة عن هذا السؤال التقليدي الذي حيّر عقول كثيرة، ولكني قلت لها ببساطة:

- أرسلني الله لأراكِ وأتزوجك!

ابتسمت ممتنة للطف كلماتي ثم خلعت عباءتها لتبدأ في التنظيف، تركتها منهمكة في شغلها وتجولت في الشقة أحاول قراءتها بعين جديدة، الشقة رائعة جدًا بها جميع وسائل الرفاهية والأثاث الكلاسيكي الأنيق، وبها مكتبة كبيرة تكتظ بمئات الكتب والمراجع القيمة، لم تكن الجدران هي سجن الحقيقي لكن العادات والأفكار التي سُجنت بداخلها ورغم كل محاولتي للتمرد فإن التكرار والإصرار نجحا في توريطي في هذه الأغلال حتى النخاع، نظرتُ إلى طلاء الشقة الذي يبدو على حاله جديدًا، هجمت على عقلي جميع ذكرياتي مع عثمان النقاش، أراه واقفًا فوق السلم الخشبي بفرشاته يدهن الحائط، وولداه أسفل منه يستجيبون لأوامره، أعتقد أنه قد آن الأوان أن أعوض الرجل عما لحقه من أذى بسببي، تركت أميرة وحيدة بالشقة تقوم بمهامها وذهبت إلى نعمان فأخذته ليوصلني إلى بيت عثمان بيولاك الدكرو، تركت لزوجته ما تبقى لدي في دفتر التوفير.

- هذه مساهمة بسيطة حتى يرزقني الله بمال آخر، لن أترككم حتى يخرج من محبسه ويعود لينير بيته.

تغيرت ملامح هاني وجمال رغم أن الفترة التي مرت لم تتجاوز السنتين لكن حمل الهم والمسؤولية بلا شك قادران على نحت الجبال، فما بالك بولدين يافعين؟ تصرف معي جمال برجولة وقام بضيافتي والترحيب بي على أكمل وجه، لا يعرف هو أو أمه أنني سبب غير مباشر في سجن رجلهما لكن استدعيت الحكمة الجديدة التي تعلمتها في حضرة المعلم الأكبر الشيخ نور الدين فقلت للسيدة:

- كلها أقدار يا أم جمال لا شيء في هذا الكون متروك للعبث، سيخرج زوجك قريبًا وقد شفاه الله من كل أنواع الإدمان، وسيعود إليكم إنسانًا مختلفًا بإذن الله.

في اليوم التالي ذهبت مع أبي لفيلاً أحمد جابر، التاجر المفلس صاحب الساعة، مع الأسف وجدناها قد بيعت في مزاد علني ولم تعد ملكًا له، قال لنا الخفير إنه هاجر لأخيه في كندا ولم يعد مرة أخرى. يبدو أن

الساعة هي قدري ولن تتركني مرة أخرى. شعر أبي بالارتياح على الأقل أنه تحرك بشكل إيجابي وبصدق لمد يد العون له، أخذ يتمتم وهو يقود السيارة:

- لقد ارتاح من هذا البلد، مؤكد أن الحياة بكندا ستكون أفضل.

سكت لبرهة ترقرت خلالها دمعان ثم زفر وقال ينفس عن نفسه ويزيح الهم "نعم أفضل بكثير!".

رجعت لشقة المهندسين وأخذت أميرة لنعود إلى عالمنا السفلي فوق السطح، وجدت الغرفة مقلوبة رأسًا على عقب، وبها العديد من المخبرين وأمناء الشرطة وضابط يبدو أنه برتبة كبيرة، وكان سعيد واقفًا خارج الغرفة مطأطيء الرأس، ذلك الجبل الصلب لم يكن سوى جبل من الزبد، مع أول محنة حقيقية.. سال، لا يستطيع صلب قوامه، دخلت أميرة غرفتها.. في حين استوقفني سعيد.

- إن الأمور يريد أن يتحدث إليك.

فذهبت إليه وجل القلب متخبط الخطى، شعرت أن كل العيون تهتف قائلة "هذا القاتل، هذا القاتل!"، أمس، قبل أن أنام قالت لي أميرة: "تتردد شائعات بالحارة أنك من قتلت جعفر، فأنت -كما حكى لهم نعمان- آخر من تحرك بصحبته، فضلاً عن المشاجرة التي نشبت بينكما في نفس السهرة".

- قل لي يا دكتور صالح، أليس من العجيب أن يسكن رجل يحتل مكانة مرموقة في المجتمع في مثل هذا المكان؟

عندما تتبع المنطق فغالبًا ستظلم إنسانًا ما، فكثير من الأمور في حياتنا تتم بصورة غير منطقية، بدأ الأمور البداية التي كنت أخشاها والتي قد تحسم القضية سريعًا.

- آه يا سيدي صدقت لقد كانت فترة عصيبة وكنت متعبًا وأتصرف بصورة غير منطقية لكني ماضٍ في إصلاح كل شيء، كان الخمر والمخدرات قد دمرتا حياتي ولعبا بعقلي لكني الحمد لله شفيت منهما

وأستعد لمغادرة الحارة لشقتي والعودة لعملي بالجامعة.

ناولته أحد المخبزين سيجارة حشيش ملفوفة كانت منسية بين ملابسي المطوية، فأمسكها بين إصبعيه وتكلم دون أن ينظر إلي:

- هذا واضح، بدليل سهرتك الأخيرة مع القتل مثلاً.

سكتُ وأنا أرى نفسي كلما تحدثت زدت الطين بلة وقدمت أدلة دامغة على تورطي.

- قال أحد الشهود إن الأمين سعيد وجد ساعتك مع القتل.

- آه حقاً قال لي إنه رآه يسرقها مني في تلك السهرة المشؤومة مستغلاً تأثير الخمر على عقلي، لذلك أعادها لي.

- آه حقاً هذا ما قاله، لكن هذا لن يبرئ ساحتها من تهمة إخفاء أدلة وأعتقد أنه سيواجه متاعب كثيرة في

الفترة المقبلة، اسمعني يا دكتور دعنا نتحدث بشكل شخصي وأقسم لك بشرفي أن أجنبك أي متاعب، ليس من المنطقي أن يساق أخو المستشار الكبير عفيفي بيه إلى أقسام الشرطة من أجل صرصور مثل جعفر، لكن الفضول يكاد يقتلني وأريدك بصفة شخصية أن تقول لي الحقيقة وتكشف غموض هذا اللغز.

نظرت إليه أتفحص وجهه أريد أن أقول له: "لا أثق بكم يا سيدي فكم من الجرائم ترتكبون بلا رادع ولا رقيب، أنتم فوق القانون، سيوف مسلطة على رقاب الكثير من الأبرياء وحراس لكثير من المجرمين".

- اسمعني جيدًا، جعفر كان بلطجيًا مجرمًا، أنا شخصيًا أرى أن قتل أمثاله يُعد خدمة عظيمة للبشرية والعدالة ليست جريمة، لو كان الأمر بيدي لظهرت المجتمع من كل المسجلين خطرًا والعتيدي الإجرام بلا محاكمات، فهم لن يكونوا في أي يوم وبأي حال من الأحوال عناصر مفيدة للمجتمع، شرهم المحتمل أكبر بكثير من انتظار الخير منهم، إن كنت أنت من فعلها.. فأخبرني، وأقسم لك أن أخفي أي دليل قد يظهر ضدك.

سكتُ وأطرقْتُ رأسي أرضًا وتحصنت بالصمت، كلما استرقتُ النظر إلى عينيه رأيتُه يتفرس وجهي ويحملك في عيني وأنا أتحاشى المواجهة وكأن الحقيقة مسجلة بخط واضح على وجهي.

- أظن أنه قد جاءني الرد، عامةً لا أستطيع توجيه أي اتهام لك لكن إن تذكرت أي شيء فكلمني على هذا الرقم.

فرك سيجارة الحشيش بين أصبعيه ورحل هو ورجاله من عندي وتركني غارقًا في أفكاري وهواجسي أتأمل ما صنعتُه في نفسي وما بعثني إليه سيري الأحمق وراء نزواتي، هذه نهاية مأساوية أكثر من أي تصور قد رأيتُه في صحوي أو نومي، ترى هل سيُعتبر قتلاً مع سبق الإصرار والترصد؟ هذا إعدام بلا شك، ربما يخفف الحكم لأنني كنت مخمورًا؟

- ماذا كانوا يفعلون بغرفتك؟

أميرة تفكر حتمًا بمنطق أنه لا دخان بلا نار.

- لا شيء، إن الشهود قالوا إن سعيد وجد ساعتني مع جعفر عندما سقط لذلك تعاملوا معي على أنني من الممكن أن أكون فاعلها، قل لي يا أميرة.. ألن يثير رحيلي من الحارة الآن الشكوك؟

قعدت على الأرض وقد صدمها تفكيري أو ربما وجدته معقولاً.

- ربما يثيرها حقًا، إن أردت أن نؤجل المغادرة عدة أيام أخرى فلا مانع عندي، افعل ما تراه مناسبًا.

(43)

هل كنت غافياً عنك يا جميلة وانقطاع النور أيقظني،
أصبح السلم جباً مقروراً في العمق النهائي من الضمير،
مسكت الدرايزين وتحسست بقدمي أدراج النزول،
أضاءت لي الشمعة البيضاء وتبسمت، في نفس المكان
حيث تركتني في تلك الليلة، عيناها سماء، جبينها
نعيم وشعرها لجج من ذهب، بسمتها بيضاء ياسمينية،
مدت كفها لي فمدت يدي، أخذتني ونزلنا على مهل
حتى وصلنا إلى باب شقتها المشرع، أسمع أنين أمها
حزيناً مؤلماً، اختفت الفتاة وتركنتي أكمل الطريق إلى
المسجد غارقاً في ظلام التخبط، صلينا على ضوء
المصابيح المشحونة الكهرباء، حل وجهها في
المصابيح واختلط حديثي لها بالمناجاة والتسبيح، بأي
ذنوب قتلت يا ربي، بأي ذنب؟

عدت إلى الحارة، أرى أمامي عيوناً تلمع في الظلام
كعيون الذئاب، صامته متوهجة، كلما اقتربت من باب
البيت شعرت بها تكاد تهم بي، جاء النور حينها لأجد
ثلة الملعون يحيطون بي، أشهروا سكاكينهم أمامي

دون أن ينبسوا ببنت شفة، فأشار أحدهم أن يبتعدوا
فعادوا إلى جلستهم.

عندما دخلت من باب البيت سمعت عويل أم عريان،
دخلت عليها وكانت تجلس مرتخية الذراعين ممدودة
الساقين، تغمر الدموع وجنتيها، تبكي وهي مغمضة
العينين، ناديتها بصوت هامس لكنها لم تنتبه لندائي،
المسكينة أخذوها في ذلك اليوم لتتعرف على جثة
بنتها في المشرحة فلم تعرفها، كانت متفحمة تمامًا،
فقط خصلة ذهبية قهرت فؤادها، قادتني قدمي
كالمجذوب إلى الداخل، أصبحت بمنتصف الردهة تمامًا
وأمام الغرفة، السيدة لا تشعر بي، أشم رائحة نسرين
تتدفق من تلك الغرفة التي كانت تدخلها أثناء زيارتي
الأولى والأخيرة لهم، دخلت الغرفة وقلبي يئن لموتها،
فراشها أمامي عليه جلبابها البيتي وقميص نومها
الوردي، وبجانب الفراش مائدة مستطيلة بحجم مكتب
صغير موضوع عليها كتبها ودفاترها وصورة ملونة لها
في إطار بلاستيكي رخيص، لم أشعر بنفسي إلا ويدي

تمتد لها فتحملها ولم أستطع منع دموعي من الانهمار
ولا شفتي من تقبيلها.

صعدت إلى السطح وأنا أوارى الصورة في قميصي
ودخلت على عجل لغرفتي فدسستها بين ثيابي،
جلست في الغرفة فلم أفتح نورها وأجهشت روعي
بالبكاء، حتى سمعت ديب خطوات ثقيلة تقترب.

- صالح! ماذا يجلسك في الظلام؟

قامت بكبس الزر فوضعت أصابعي على عيني
ورجوتها أن تطفئ النور مرة أخرى، استجابت لرجائي
وجاءت فجلست بجواري:

- ما بك؟ ما لصوتك حزينًا؟

- وهل هناك ما يدعو إلى الفرح؟ جهّزي نفسك لكي
نتنقل لشقة المهندسين غدًا إن شاء الله.

لن أحتمل المكوث هنا يومًا آخر، اللعنة على السطح قد
ترك ندبات عميقة في نفسي لا تشفى.

"هل بهذه البساطة قررت الرحيل؟ ألم تفكر في العواقب؟ هل سترحل نهارًا أمام الجميع أم ستتوارى في ظلام الليل؟".

لا طبعًا، لن أستطيع الخروج من الحارة نهارًا لذلك انتظرت حتى دثر الصمت والهدوء كل شيء، وأخذت أصوات أجهزة التلفاز والراديو تنطفئ الواحد تلو الآخر، نظرت من خلال سور السطح فلم أجد أحدًا يجلس بالحارة، حمل كل منا حقيبتين ونزلنا على مهل حتى بلغنا الحارة سنمشي حتى الشارع الرئيس ثم نستقل سيارة أجرة، لكن ما لم أعمل له حسابًا وما لم أفهمه.. من أين ظهرت الثلة الملعونة؟ أربعة شباب اقتربوا مني ثم أحاطوا بي وهم يشهرون سكاكين طويلة.

- هل تظن أن تفر بعملتك يا كلب؟

باغتني وقبل أن أنبس بكلمة واحدة بركة قوية في خصيتي كاد ينخلع لها قلبي، سقطت على الأرض وسقطت الحقيبتان بجواري.

- أي عملة؟ أنا لم أفعل شيئًا.. دعوني أرحل لم أفعل شيئًا!

- ترحل هاها بكل يسر هكذا، بدون أن تأخذ جزاءك!

- لم أفعل شيئًا صدقوني، لم أفعل شيئًا!

أميرة تقف حاملة الحقيبتين فوق رأسها خائفة ترتعد، وما إن هم أحدهم يهجم علي حتى ولولت بصوت عظيم، أشرعت النوافذ وخرجت منها الرؤوس، لم أشعر بألم بالغ من نصل السكين المشحوذ الذي جرى على ظهري لكنني شعرت بسخونة ولزوجة الدم الذي غمرني، أميرة لا تتوقف عن الصراخ والولولة، وأنا أشعر بشفرات السكاكين متوالية تجري على جلدي، ألقت الحقائق وحاولت دفعهم لكنهم انهالوا عليها باللطم والركلات، ربما استأثرت بجزء من نصيبي في هذه الكعكة بقدر لا بأس به، الدماء تسيل من ظهري وصدري وذراعي ورجلي، لكنني ما زلت لا أشعر بالألم، بل بالهلع، هلع عظيم، تكومت بجواري المسكينة، التفتوا إلي مرة أخرى، كانت الرغبة في إنهاء حفل

التعذيب بادية في عيونهم، صارمين على أمر ما قد اتفقوا عليه، ربما هذا قصاص عادل لارتكابي جريمة القتل، اقترب مني أقبحهم وأكثرهم غلاً، وبدا أنه سيهم بطعني لكني سمعت صوت جلبة عظيمة وهجوم كبير، كان إبراهيم صاحب غية الحمام ومعه شباب كثيرون من أهل المنطقة يحملون العصي والسكاكين، اشتبكوا مع ثلة إبليس، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك، فقط أغمضت عيني ولم تنفتحا مرة أخرى عليهم.

(44)

حياة البرزخ هي مجرد طور من أطوار الحياة الأبدية،
 كطور الشرنقة، مرحلة ما قبل الانبلاج إلى النور،
 المصاييح البيضاء الأنبوية متراصة فوق، الجدران
 اللانهائية البياض تحيط بي، البرودة الثلجية الصفرية
 التي تتعادل عندها جميع المتناقضات وتتآلف فيها
 جميع المتضادات؟

وجع البعث يدق رأسي بمطارقه، وخيوط الشرنقة
 الدقيقة تعتصر لحمي وعظامي عصرًا، الألم يسري في
 جسدي في حركة دودية متسارعة، لا أستطيع تحريك
 أطرافي، أرسلت نظرات عديدة تستكشف المكان،
 غرفة واسعة تكاد تتجمد أطرافي من شدة برودتها،
 تقف قريبًا مني سيدة تعطيني ظهرها تصنع شيئًا ما لا
 أراه، ولمحت على كرسي جانبي سيدة تشبه أُمي،
 تشبهها تمامًا، نفس الوقار والعبوس، أخذت أنادي
 أميرة لأطمئن عليها أخشى أن تكون أصابتها خطيرة.

- أميرة، أميرة.

التفتت إليّ السيدة وابتسمت مستبشرة:

- حبيبي، حمدًا لله على سلامتك!

هذا الوجه أعرفه جيدًا، هذه ليست أميرة، إنها سهير زوجتي رحمها الله، هل هذا حلم أم لقاء ما بعد البعث؟

- سهير كيف حالك؟ أراك بخير الحمد لله!

- نعم يا حبيبي أنا بخير الحمد لله المهم عندي الآن هو أنت، كيف حالك طمّني؟

- بخير الحمد لله، رأييت ما فعله كريم بي، لقد سحب أمواله من المصرف وتركني بلا مال، هل تصدّقين هذا؟ هل يرضيك ما فعله بي؟ هل هذه جزاء ما ربّيته، تخيلي لم يحاول الاطمئنان علي مرة واحدة خلال الفترة السابقة!

أخذت أبكي كالأطفال وأنا أشكو لها، اريدّ وجهها وتجمعت دموعات في عينيها تهم بالنزول، اقتربت

صوبي ونظراتها مملوءة بالشفقة، وضعت كفها فوق جبیني.

- حبيبي كريم لم يسحب أي شيء ورصيدك كما هو بالمصرف لم ينقص منه ملیم.

- لا لا، أنت لا تعرفين شيئًا، لقد جاء إلى مصر، وسحب كل رصيدي بمباركة عمه وجده.

- حبيبي اهدأ أرجوك، كريم لم يسافر ولم يرجع ولم يسحب أي أموال، لا حول ولا قوة إلا بالله، هل رأيت ما فعله إهمالك في العلاج، لقد حذرک الطبيب أكثر من مرة لكنك أصرت على ترك العلاج!

- أي طبيب وأي علاج؟! لا أفهم عمّ تتحدثين!

- هل نسيت الدكتور محمد المهدي اختصاصي الأمراض النفسية والعصبية، طبيبك المسؤول عن حالتك؟ كان يزورك أكثر من مرة أسبوعيًا ويستمع لك، كنت تحكي له عن أوهامك ومغامراتك الخرافية بالحارة والصحراء! هل نسيت؟ حالتك انتكست

بصورة خطيرة، حبيبي أنت تعاني في الفترة الأخيرة
أعراض فُصام وهلاوس، هل يعجبك الآن ما آلت إليه
حالتك بسبب رفضك للعلاج؟!

- من أي جحيم أتيت؟! أعوذ بالله منك! أين أميرة، يا
أميرة، أميرة!

- من أميرة تلك؟ أرايت كيف عدت لهذيانك؟

- زوجتي أميرة، إنها سيدة منتقبة كانت معي، يا
أميرة، أميرة أين أنت؟

- لا يوجد أميرة يا حبيبي إلا في خيالك، أنت متوهم،
حرام عليك أنت تعذبنا، جعلت حياتنا جحيمًا!

انخرطت في البكاء وعانقتني وأنا خائف إياها، أرتعدُ
أخشى أن تكون حقيقة، قامت السيدة التي تشبه أُمي
واندفعت نحوي تربت على صدري، وجهها حزين
مهموم، لم أرها هكذا من قبل!

- صدقها يا ولدي، أنت مريض جدًّا، لقد ساءت حالتك في الشهور الأخيرة، الطبيب قال إنك خلقت لنفسك حياة موازية أمتنا فيها وأحييت شخصًا آخرين، أنا آسفة من أجلك يا حبيبي، جميعنا هنا معك وبجانبك ولن نتخلى عنك حتى ترجع لنا بألف سلامة.

حاولت الانتفاض بكل قوتي كي أبدد أيديهم التي تحاول لمسي، كي أفيق من الكابوس، لكن القيود تشلني!

- ابعدا عني؛ أنتما كابوس رهيب، هل عدتما من الموت لتحولاني إلى مريض نفسي؟! اذهبا من وجهي، لا أريدكما، أكرهكما!

- أرجوك يا حبيبي اهدأ!

- أميرة، يا أميرة، أريد أن أخرج من هذا المكان، اتركوني، فكوا قيدي يا أولاد الكلاب!

أزيد الصراخ والتشنج أحاول الإفلات من هذا الفراش لكن القيود تكبلني من كل جانب، صرخت سهير

تستدعي النجدة حتى اقتحم الباب الطيب، نعم إنه
الرجل ذاته الذي كان يسمعني ويحاورني ويسجل كل
ما أنطق به، دخل ومعه عدة ممرضون وممرضات،
أعطاني حقنة على عجل أنهت الأمر كله مرة أخرى.

(45)

استيقظت من نومي وجسدي ملفوف في أغلبه
بالشاش والقطن، كان الألم يجتاحني، بجواري محاليل
معلقة، أميرة تنظر لي وعيناها مغمورتان بالفرح
والسعادة!

- ساعة وأنت تنادينني يا سيدي: "أريد أميرة أريد
أميرة" ها هي أميرة ماكثة بجوارك وتسهر على
رعايتك ولم تفارقك دقيقة واحدة، كيف حالك طمني؟

- الحمد لله الحمد لله لقد حلمت بكابوس رهيب!

تنفست الصعداء وشعرت بفرحة عظيمة.

- كم أحبك يا أميرة!

- وأنا والله أحبك جدًّا، اهدأ يا حبيبي واستعذ بالله من
الشیطان الرجيم!

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله! كم كان
حلمًا رهيبًا.

قَرَّبْتُ مِنِّي كُوبَ مَاءٍ وَصَبْتُ مِنْهُ بَيْنَ شَفَتَيْ عَلَى مَهْل!

- سَمِّ اللَّهَ يَا حَبِيبِي وَاشْرَبِ الْمَاءَ حَتَّى تَهْدَأَ نَفْسُكَ، خذْ نَفْسَكَ!

- كَيْفَ حَالُكَ أَنْتَ؟ طَمَئِنِّنِي عَلَيْكَ يَا غَالِيَةَ!

- الْحَمْدُ لِلَّهِ بِخَيْرٍ، تَكَادُ الْكَدَمَاتُ وَالْجُرُوحُ تَبْرَأُ تَمَامًا، كُلُّهَا مَتَوَارِيَةٌ أَسْفَلَ الثِّيَابِ، أَمَّا وَجْهِي فَقَمَرٌ كَعَادَتِهِ هَاهَا انْظُرَا!

رَفَعْتُ النِّقَابَ عَنْ وَجْهَهَا الْجَمِيلِ، ثُمَّ أَسْدَلْتَهُ مَرَّةً أُخْرَى.

كَانَ الشَّيْخُ نَعْمَانُ نَائِمًا عَلَى كَنْبَةٍ جَلْدِيَّةٍ مُوَاجِهَةً لِلسَّرِيرِ، وَبِجَوَارِهِ الْأَمِينُ سَعِيدٌ جَالِسٌ يَسْبَحُ بِصَوْتِ هَامِسٍ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَرْضِ.

- أَدْعُو لَكَ اللَّهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي صَلَوَاتِي أَنْ يَبْرَأَ جَسَدَكَ، لَقَدْ أَصَابَكَ الْمَجْرَمُونَ بِأَكْثَرِ مِنْ مِئَةِ وَخَمْسِينَ غَرَزَةً، لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، هَذَا غَيْرُ مَا فَقَدْتَ مِنَ الدَّمَاءِ، لَوْلَا إِبْرَاهِيمُ

وإخوته ورجال الحارة الطيبون لكنا خسرنالك، بارك الله لهم لقد أنقذك من أيدي المجرمين وجروا بك إلى المشفى وهم من تبرعوا لك بالدم!

- الحمد لله على كل شيء، الحمد لله!

استيقظ نعمان من نومه فنظر لي بوجه يحمل بسمة ذابلة:

- كيف حالك اليوم يا رجل؟ هل أعجبك البقاء هنا؟ ألم تشتق إلى السطح هاها؟ احمد الله وادع للمحامي المستشار محمد المهدي فلولا فطنته وذكائه لأكملت علاجك في مشفى السجن، الرجل بعدما سمعك في الأيام السابقة توقع أن يكون المجرم المحتمل هو علام ذلك الطالب الأزهرى الذي كان يسكن السطح وتعرض للضرب والإهانة وتشوه وجهه من جعفر وثلته، ألا تذكره؟

رفع سعيد نظره لي لكنه لم ينبس، وجهه مهموم، عينه مكسورة:

- حمدًا لله على سلامتك يا دكتور!

- ما لك مهمومًا يا سعيد؟!

سكت ولم يرد لكن الشيخ نعمان تبرع بالإجابة نيابة عنه:

- إنه يخضع لتحقيقات قاسية كل يوم تقريبًا، بسبب ما حدث في الحارة وبسبب إرجاعه الساعة لك، وهو الآن موقوف مؤقتًا عن العمل لحين انتهاء التحقيقات.

- أنا آسف لك يا سعيد، وأتمنى من الله أن يجعل العاقبة خيرًا!

- لا تشغل بالك يا دكتور، فكر الآن في نفسك وحافظ على صحتك!

تكلمت أميرة تحكي لي التفاصيل القبض على علام:

- عندما طلب الأستاذ محمد مهدي من النيابة استدعاء علام والتحقيق معه، أصدروا الأمر بإحضاره، داهموا مسكنه في الوايلي، وعندما ألقوا القبض عليه انتابته

حالة من الهياج وأخذ يصرخ ويقول: "لقد أخذت
بثأري، أخذت بثأري من الكلب" واعترف أمام النيابة
بالتفاصيل كلها وأنه كان يتربص به حتى استغل
الفرصة عندما تركته وعدت إلى غرفتك لينفذ خطته،
مسكين ضيّع مستقبله!

(46)

- صباح الخير.

- صباح الخير.

القاعة تضج بالحضور، مئات الطلبة من مريديّ،
أضعاف الدفعة الرسمية التي أدرس لها، إنهم من
كليات مختلفة سمعوا عني ويرغبون في حضور
محاضراتي والالتزام مع بدء العام الدراسي!

- أرحب بكم في السنة الدراسية الجديدة، سننطلق
خلال الأشهر القادمة في رحلة عميقة جدًا بداخل
النفس البشرية، نخرج من خلالها بعدة قواعد ومبادئ
نستطيع البناء عليها في السنوات القادمة على مستوى
الدراسة ثم التطبيق العملي، سيكون طرح المنهج
جديدًا وغير اعتيادي، فالمشكلة العظمى التي تواجه
الباحث أو الدارس أو المتعامل مع النفس الإنسانية أنه
يحاول التعامل مع معطيات يسمعها ولها ترجمة سابقة
في العقل الواعي واللاواعي لكنها غالبًا ليست دقيقة

إلا في ذلك القدر اليسير جدًا من تجاربه الشخصية التي مر بها في حياته حتى يستطيع تقدير المشكلة تقديرًا دقيقًا، فليس من الطبيعي أن يشعر الثري بدقة بشعور الفقر والحاجة والأزمات المادية التي تطحن الفقراء ما لم يمرّ بهذه التجربة في فترة ما في حياته، أما إن لم يمرّ بهذه التجربة فغالبًا سيظن أن الفقير يبالغ في كلامه، كذلك لن يستطيع تقدير قسوة المرض وخصوصًا الأمراض التي تهدد الحياة، أو التي تغير شكلها إلى الأبد ما لم تمر بتجربة مشابهة، كأن تتعرض إلى حادثة تفقدك البصر، أو استئصال رحم أو الخصيتين فتصبح عقيمًا لا أمل لك في الإنجاب، أو حرق يشوهك إلى الأبد، فتتألم كلما رأيت صورتك في المرآة أو انعكاسها في عيون الآخرين، رصد كل هذه الأمور بالطرق النظرية والأكاديمية غالبًا ما يجعل الباحث عاجزًا عن إدراكها بشكل حقيقي وستمثل عائقًا كبيرًا في نجاحه للوصول إلى الهدف المطلوب، ستعتمد طريقتي الجديدة على...

استفضت في شرح منهجي الجديد في الدراسة، أوزع النظرات على كل جانب وألاحظ أن الكثير من الطلبة يحملون في ساعتَي الذهبية كلما حركت يدي اليسرى، لكن واحدة فقط كانت مثبتة عينيها في عيني. عيناها في زرقة السماء وشعرها الذهبي كصحراء تملس الشمس الدافئة على تلالها ووديانها، سبحان الله.

- تفضلي قفي من فضلك.. نعم أنتِ.

- ما اسمك؟

- نسرين.

- نسرين فقط؟ هل نبئت شيطانًا هكذا؟

ضحك الطلاب وعادوا سريعًا لحالة الدهشة والغموض.

- نسرين نبيل عطا الله.

نسرين؟! أيُّ نسرين؟! هل يوجد في الحياة أي نسرين أخرى؟ وإن تشابهت الأسماء لكن هل تتشابه الوجوه

والأرواح؟

- هل عرفت يا صالح؟

- عرفت ماذا يا شيخي؟

- ألم أقل لك إن الزمان والمكان ككرة من حيث تبدأ
تنتهي ومن حيث تنتهي تبدأ؟

- نعم يا سيدي وكذلك الحقيقة والوهم كرة، الواقع
والخيال كرة، الأنا والآخر كرة، المخلوقات والخالق
كرة.

- ألم أقل لك إنه لا يوجد في المسألة أي عبث.

- نعم صدقت يا حبيبي، وإن كنت لم أشك في كلامك
يومًا.

- من صدق عرف، وأنت الآن من العارفين يا صالح، قل
لي كيف حالك؟

- الحمد لله يا سيدي، لولا فراقكم لكنت في خير عظيم، بحثت عنك مرارًا ورغم كل ما في قلبي من يقين لكني لم أجد لكم أثرًا، لماذا؟ أرجوك قل لي وأرح قلبي؟

- أنا يا صالح لست جسدًا فالأجساد مآلها إلى الفناء والزوال، أنا مجرد أفكار ومعاني، أهيمن في الملكوت المطلق أصول وأجول في الزمان والمكان وأطلع على ما دار وما يدور وما سيدور بإذن الله، أنا حولك وبداخلك.

- قل لي خبرًا، أو اكشف لي سرًا.

- سأنبئك بغيبي، سأخصك بالسر فلا تبخ به لمخلوق ما دمت حيًّا

- قل ولن أبوح أبدًا، أعدك!

- سيأتي عصر قريب تغضب فيه صحاري الدنيا وتثور الرمال فتطمس الحضارات الزائفة لتبدأ الدنيا العهد

الجديد، عهدًا يرث فيه الأرض آلهة من رمال، بشر صالحون، ينشرون الخير والسلام.

شعرتُ بتحرُّج الفتاة لطول صمتي، ونظرتي لها التي تحمل ألف مغزى، كان الطلاب ينظرون لي ثم لها ويعيدون الكرة حتى علت الهمهمات واضطربت الأجساد على كراسيها.

- تفضلي يا عزيزتي، المعذرة فقد كان لي جارة تشبهك تمامًا.

نظرتُ إلى الحضور وابتسمتُ لهم مُنهيًا المحاضرة.

- موعدنا الأربعاء القادم سأشرح لكم كيف سنبدأ المنهج بناءً على فلسفة المحاكاة والتعايش.. إلى اللقاء أعزائي.